شجرة النور الزكية

في

طبقات المالكية

تأليف

العلامة الجليل الأستاذ الشيخ

محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف

المتوفى ١٣٦٠ هـ

خرج حواشيه وعلق عليه

عبد المجيد خيالي

الجزء الثاني

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

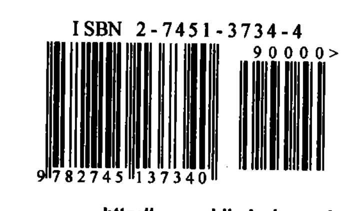
الطبعة الأولى
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم

تمهيد

ذكرنا فيما تقدم ما أمكن ذكره من التراجم والمناقب لبعض الصحابة والتابعين، والأئمة المهتدين، والعلماء المشهورين. وهم نحو الثمانية عشر ومائة. من أعز فريق وأفضل فئة، في طبقات على الترتيب الذي قصدناه، والأسلوب الذي أصّلناه. غير أن ما ذكرناه، بالنسبة إلى ما تركناه، قليل وما لا يذكر كله لا يترك قله. وعين الرحمة، وينبوع كل فضيلة وحكمة. هو واسطة عقدهم، ومركز دائرة مجدهم ﷺ وكرم وعظم. وفي سلك تلك الطبقات الكثير من الصحابة والتابعين، والقراء والمحدثين، والأئمة المجتهدين، والعلماء المقلدين، والصوفية والمتكلمين، والشعراء واللغوين والنحويين، والقضاة والأمراء والسلاطين، والملوك العادلين. وهؤلاء السادات، قاموا بالواجبات، التي هي غاية الغايات. تهم المسلمين في دينهم ودنياهم، وبها تحصل السعادة في أخراهم. فمنهم من ساس الأمة وقادها، وبيّن ما لها وما عليها وأفادها. وجاب البلاد، وهذّب العباد، وأزال البغي والفساد، واستوسع في الفتوحات، حتى دخل الناس في هذا الدين الحنيف أفواجاً أفواجاً من سائر الجهات، ومنهم مَن حثّ على الجد والكد والاستمرار على الأعمال، بما يعود بالفائدة في الحال والمآل. وقد امتن الله سبحانه على عبيده في غيرة آية فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: 13] وقال عليه الصلاة والسلام: «اعمل عمل امرىء يظن أن لا يموت أبداً، واحذر حذر امرىء يخشى أن يموت غداً» رواه البيهقي عن ابن عمر. ومنهم من ألف في الفن الذي جنح إليه، وعول في التحصيل عليه. ففسر وقرر ووضح، وبيّن ورجح، ورتب وهذّب ونقح، وعدل وجرح. واستعمل ما لديه من الوسائل، وأيد ذلك بالبراهين والدلائل، والمنقول والمعقول، وكل مفيد يمكن به الوصول. فأحاط بما ألّف خبراً، ودون

علم الشريعة نظماً ونثراً، بأفصح عبارة، وألطف إشارة. وفصيح اللسان منهم والقلم، قام على المنابر في المحافل خطيباً في الأمر الذي يهم. فخطب الخطب البارعة المذكرة، الجامعة النافعة المؤثرة. بأبلغ لسان، وأبين بيان. ونسج الشعراء في قصائدهم الطنانة على هذا المنوال، وأتوا بما يعتمد عليه في الأقوال والأفعال. وبما تحمد عقباه في الحال والمآل. فهؤلاء الأعلام، هداة الإسلام مهدوا للأمة طرق إرشادها، وما يفيد في أمر معاشها ومعادها. بما ذكر وبضرب الأمثال والنصح بجوامع الكلم، والمواعظ والرقائق والحكم. قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: 55] كل ذلك باللغة العربية الفصيحة التي جاء بها الكتاب المبين، قال جلّ جلاله وعز كماله: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصلت: 3] وحثُّوا على التعليم والتعلم ليقع التفقه في الدين ويحصل التقدم. فالعلم وسيلة النفوس الشريفة إلى المطالب المنيفة والسبيل في الآخرة إلى السعادة وفي الدنيا إلى النحلة عادة، قال عز من قائل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: 9] وعن كميل بن زياد أن علياً رضي الله عنه قال: يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير. الناس ثلاث: فعالم رباني ومتعلم في سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا منه إلى ركن وثيق. العلم خير من المال. العلم يحرسك وأنت تحرس المال. العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة. العلم حاكم والمال محكوم عليه. العلم دين يدان به يكسب الإنسان الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته، مات خزان الأموال وهم أحياء العلماء باقون ما بقي الدهر؛ أشخاصهم مفقودة وأشباحهم في القلوب موجودة اهـ. من سراج الملوك. وفي هذا المعنى أنشد أبو محمد عبد الله بن محمد ابن السيد البطليوسي:

أخو العلم حي خالد بعد موته ... وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى ... يظن من الأحياء وهو عديم

وقال أيضاً كرم الله وجهه في بعض خطبه: اعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون وقدر كل امرىء ما يحسن. وهو كلام لم يسبق به أحد فيه حث على طلب العلم، ونظم ذلك بعضهم:

تلوم على أن رحت للعلم طالباً ... وأجمع من علم الرواة فنونه
فيا لائمي دعني أغالي بمهجتي ... فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وفي كتاب الاعتصام أن الله سبحانه شرّف أهل العلم ورفع أقدارهم وعظّم مقدارهم ودلّ على ذلك الكتاب والسنة والإجماع بل قد اتفق الفضلاء على فضيلة العلم وأهله وأنهم المستحقون شرف المنازل وهو مما لا ينازع فيه عاقل. واتفق أهل الشرائع على أن علوم الشريعة أفضل العلوم وأعظمها أجراً عند الله يوم القيامة ولا علينا أسامحنا بعض الفرق في تعيين العلوم أعني العلوم التي نبّه الشارع على مزيتها وفضيلتها أو لم يسامحنا بعد الاتفاق من الجميع على الأفضلية وإثبات المزية وأيضاً فإن علوم الشريعة منها ما يجري مجرى الوسائل بالنسبة إلى السعادة الأخروية ومنها ما يجري مجرى المقاصد والذي يجري مجرى المقاصد أعلى مما ليس كذلك بلا نزاع بين الفقهاء أيضاً كعلم العربية بالنسبة إلى علم الفقه فإنه كالوسيلة فعلم الفقه أعلى. وإذا ثبت هذا فأهل العلم أشرف الناس وأعظم منزلة بلا إشكال ولا نزاع وإنما وقع الثناء في الشريعة على أهل العلم من حيث اتصافهم بالعلم لا من جهة أخرى ودل على ذلك وقوع الثناء عليهم مقيداً بالاتصاف به فهو إذاً العلة في الثناء ولولا ذلك الاتصاف لم يكن لهم مزية على غيرهم ومن ذلك صار العلماء حكاماً على الخلائق أجمعين قضاءً وفتياً وإرشاداً لأنهم اتصفوا بالعلم الشرعي الذي هو حاكم بالإطلاق ثم قال بعد تفصيل وكلام طويل فعلى كل تقدير لا يتبع أحد من العلماء إلا من هو متوجه نحو الشريعة قائم بحجتها حاكم بأحكامها جملة وتفصيلاً وأن من وجد متوجهاً غير تلك الوجهة في جزئية من الجزئيات أو فرع من الفروع لم يكن حاكماً ولا استقام أن يكون مقتدى به فيما حاد به عن صوب الشريعة البتة اهـ. وقال الإمام الغزالي أن أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات وما أشبه ذلك إنما هي قانون السياسة وضبط الجمهور الذين يتنازعون بحكم شهواتهم فالفقيه معلم السلطان ومرشده إلى قانون سياسة الخلق وهذا في الحقيقة حراسة للدنيا والدنيا بها يتم الدين، فالفقه الذي عند الأمة الإسلامية إنما هو القانون والقانون يحفظ البلاد والعباد وبحفظ هؤلاء يتم الدين. وقال الحسن البصري رضي الله عنه: العلماء سراج الأزمنة فكل عالم مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره ولولا العلماء لكان الناس في عمى كالبهائم ولولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضاً ولله در عبد الله بن المبارك حيث قال:

لولا الخلافة ما قامت لنا سبل ... وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

وكما أن الله سبحانه شرّف العلم وأهله شرّف الحكام العادلين. في الصحيحة «سبعة يظلهم الله بعرشه يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل»[1] والوعيد الذي جاء في حقهم إنما هو في حق غير العادل في الجامع الصغير عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه إمام جائر»[2] رواه الترمذي والإمام أحمد في مسنده. وقال سفيان الثوري: صنفان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسدا فسدت الأمة الملوك والعلماء. والملك العادل هو الذي يقضي بكتاب الله عزّ وجل ويشفق على الرعية شفقة الرجل على أهله. في الجامع الصغير عن معقل بن يسار «أيما وال ولي شيئاً من أمر أمتي فلم ينصح لهم ويجتهد كنصيحته وجهده لنفسه كبه الله تعالى على وجهه يوم القيامة في النار»[3] رواه الطبراني في الكبير. وفي سراج الملوك: العدل النبوي بأن يجمع السلطان إلى نفسه حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه وهم أولياء الله تعالى والقائمون بأمر الله والحافظون لحدوده والناصحون لعباده. روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة ثلاثاً. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[4] وأن يتخذ العلماء شعاراً والصالحين دثاراً وأخلق بملك يدور بين هاتين الخصلتين أن تقوم عمده ويطول أمده. ثم قال: ويجب ترفيع مجالسهم وتمييز مواضعهم عمن سواهم. قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: 11] وفيه استمالة لقلوب الرعية وخلوص نياتهم لسلطانهم واجتماعهم على محبته، فواجب على السلطان أن لا يقطع أمراً دونهم ولا يفصل حكماً إلا بمشاورتهم لأنه في ملك الله يحكم وفي شريعته يتصرف، وأقل الواجب على السلطان أن ينزل نفسه مع الله منزلة ولاته ولم يأمن سطوته وإذا امتثل أوامره

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، حديث (660) ومسلم في كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، حديث (1031) والحديث طويل لا يقتصر على لفظة إمام عادل برواية أبي هريرة.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الأحكام، باب ما جاء في الإمام العادل، حديث (1334) وقال: حديث أبي سعيد حديث حسن، غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(3) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير حديث (465) 1/ 282، والجامع الصغير للسيوطي حديث (3008) ص180.

(4) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة، حديث (55) برواية تميم الداري.

وازدجر من زواجره حل منه محل الرضا. فهذا طريق إقامة العدل الشرعي والسياسة الإسلامية الجامعة لوجوه المصلحة الآخذة لازمة التدبير السالمة من العيوب الممهدة لإقامة الدنيا والدين، فكما أن الملك الحازم لا يتم له حزمه إلا بمشاورة الوزراء الأخيار كذلك لا يتم له عدله إلا باستمالة العلماء الأبرار اهـ وفيه قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40] هاته الآية في السلاطين على ما اقتضته من السياسة العامة التي فيها إبقاء الممالك وثبوت الدول ثم سمى المنصورين وأوضح شرائع النصر فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ﴾ [الحج: 41] فضمن الله تعالى النصر للملوك وشرط عليهم كما ترى، فمن تضعضعت قواعدهم وانتقض عليهم من أطراف ممالكهم أو ظهر عليهم عدو أو باغي فتنة أو حاسد نعمة أو اضطربت عليهم الأمور فليلجأوا إلى الله تعالى بإصلاح ما بينه وبينهم بإقامة ميزان القسط الذي شرعه الله لعباده وركوب سبيل العدل والحق الذي قامت به السماوات والأرض وإظهار شرائع الدين ونصرة المظلوم والأخذ على الظالم وكف يد القوي عن الضعيف. روي أن النبي ﷺ قال: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1] وفيه وينبغي للسلطان أن يولي الأفضل فالأفضل وإن كان على خلاف ذلك كان سيىء النظم، وينبغي أن يكون الأقرب إليه أهل العلم والعقل والأدب والرأي والأصالة والشرف والكمال من كل قبيلة وإن كان على خلاف ذلك كان نقصاً. انتهى.

واعلم أنه اقتضت حكمة هذا الدين أن يكون الخليفة رئيسه السياسي والديني وهي في هاته الأمة دينية نافعة في الدنيا والآخرة وتصرفه الديني مختص بخطط ومراتب لا تعرف إلا للخلفاء الإسلاميين. منها الصلاة والقضاء والجهاد والحسبة وهي بهذه المثابة لم تتجاوز عهد الخلفاء الراشدين وصارت بعد ذلك ملكاً دنياوياً بحتاً إذ ترك الخلفاء أهم أصل من أصول الدين وهي الصلاة بالناس التي استخلف بها رسول الله ﷺ أبا بكر فكان الخليفة على الأمة في الدين كما صار أميراً عليها في أمور سياستها في الدنيا. وعقد ولي الدين بن خلدون فصلاً في معنى الخلافة والإمامة[2] قال فيه: إذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الدنيا والآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فإنها

(1) أخرجه أحمد وابن ماجه وأبو داود والترمذي من رواية ابن عمر وهو حديث صحيح. انظر الجامع الصغير للسيوطي ص396 رقم (6370).

(2) انظر مقدمة ابن خلدون ص130 دار الهلال، بيروت، السنة 1986م.

كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: 115] فالمقصود منهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، فجاءت الشرائع تحملهم ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي في الاجتماع الإنساني فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع. وقال في فصل الخطط الدينية: تبين أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع يتصرف في الأمرين أما في الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية الذي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها، وأما في سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري وهو ضروري للبشر وأن رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد إن أهملت اهـ.

إذا علمت ذلك وظهر لك هنالك علمت علم اليقين أن بين القضاة والعلماء والملوك والأمراء وأهل الرئاسة وأرباب السياسة الارتباط الشرعي الذي هو في سياسة الملك مرعي وقد ذكرنا في المقصد بعض أعيان الفريق الأول وبقي علينا ذكر البعض من الفريق الثاني الذين عليهم في إدارة الملك المعول في تتمة أذكر فيها أئمة أعيان الأعيان مرجوعاً إليهم في كل مهمة حيث كانوا رجال علم وأدب وهمم سامية كأسد بن الفرات وسحنون وسعدون الخولاني وأضرابهم من عظماء الرجال الذين تركوا ثناءً عاطراً وذكراً خالداً وهم في الحقيقة كالوزراء لمعاصريهم من الملوك والأمراء منتخبون من طبقات المقصد على مقتضى ترتيبها بألطف إشارة وأفصح عبارة تمهيداً لذكر معاصري كل طبقة منها من الملوك والأمراء في قطر إفريقية وذكرهم كذلك خلاصة نقية وتمهيداً لتنبيهات مهمة جديرة بالاعتبار عند ذوي الأنظار يعلم منها سيرة السلف وما آل إليه أمر الخلف من زمن البعثة إلى هذا الوقت، فبعضهم ارتكب ما يؤدي إلى الخسران والخذلان والمقت وبعضهم مستور الحال وبعضهم جمع الفضائل ونسجها على أحسن منوال وهذا في الحقيقة من الطراز الأول وعليه في أمور الدين والدنيا والمعول وتعلم ما حصل لتلك الأجيال في القرون الخالية من الحوادث والأحوال كبسط النعم وسلبها وما حصل في ذلك من الأطوار والأدوار وكيفية انتشار مذهب مالك بإفريقية وغيرها من الأقطار والأمصار وانتشار العلوم واتساعها وانحطاطها في بعض الجهات وانقطاعها، ومن المعلوم أن العلوم والمعارف لا تنمو وتتسع والتقلب في النعم لا يسمو ويرتفع إلا بعد الأمن والاطمئنان ومد رواق الراحة والعافية وما يؤدي إلى العمران وجمع الكلمة وبسط العدل وارتكاب الفضائل واجتناب الرذائل وعدم الغفلة عن الله وما هو عنا بغافل.

فائدة

في خاتمة بداية المجتهد الإشارة إلى تقسيم الفضائل ونصه ببعض اختصار الأحكام الشرعية تنقسم إلى قسمين: قسم يقضي به الحكام وجل ما ذكرناه في هذا الكتاب داخل في هذا القسم. وقسم لا يقضي به الحكام وهذا أكثره داخل في المندوب إليه، مثل رد السلام وتشميت العاطس وغير ذلك. وقد رأينا أن نذكر من هذا الجنس المشهور منه إن شاء الله. وينبغي قبل هذا أن تعلم أن السنن المشروعة العملية المقصود منها هو الفضائل النفسانية. فمنها ما يرجع إلى تعظيم من يجب تعظيمه، وشكر من يجب شكره وفي هذا الجنس تدخل العبادات وهذه هي السنن الكرامية. ومنها ما يرجع إلى الفضيلة التي تسمى عفة، وهذه صنفان السنن الواردة في المطعم والمشرب والسنن الواردة في المناكح. ومنها ما يرجع إلى طلب العدل والكف عن الجور. فهذه هي أجناس السنن التي تقتضي العدل في الأموال والأبدان. وفي هذا الجنس يدخل القصاص والحروب والعقوبات، لأن هذه كلها إنما يطلب بها العدل. ومنها السنن الواردة في الأعراض. ومنها السنن الواردة في جمع الأموال وتقويمها وهي التي يقصد بها طلب الفضيلة التي تسمى السخاء، وتجنب الرذيلة التي تسمى البخل. والزكاة تدخل في هذا الباب من وجه، وتدخل أيضاً في باب الاشتراك في الأموال، وكذلك الأمر في الصدقات. ومنها سنن واردة في الاجتماع الذي هو شرط في حياة الإنسان وحفظ فضائله العملية والعلمية، وهي المعبر عنها بالرياسة. ولذا ألزم أيضاً أن يكون سنن الأئمة والقوام بالدين. ومن السنن المهمة حين الاجتماع السنن الواردة في المحبة والبغضة. والتعاون على إقامة هذه السنن وهو الذي يسمى النهي عن المنكر والأمر بالمعروف وهي المحبة والبغضة أي الدينية التي هي إما من قبل الإخلال بهذه السنن وإما من قبل سوء المعتقد في الشريعة. وأكثر ما يذكر الفقهاء في الجوامع من كتبهم ما شذّ عن هذه الأجناس الأربعة التي هي فضيلة العفة وفضيلة العدل وفضيلة الشجاعة وفضيلة السخاء، والعبادة التي هي كالشروط في تثبيت هذه الفضائل اهـ.



الطبقة الأولى

منحصرة فيمن أنزل عليه القرآن وجاء بالشريعة المطهرة ﷺ وكرم وعظم

اعلم أنه ﷺ أرسل رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً على رأس الأربعين سنة وأول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. وأول ما نزل عليه من القرآن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: 1] كما في الصحيح قال الألوسي وعليه أكثر الأئمة ثم فتر[1] الوحي ثلاث سنين ثم نزل عليه القرآن وحمى وتتابع منجماً[2] بحسب الوقائع في ظرف عشرين سنة سمعه منه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وعملوا به وبلّغوه لقوله ﷺ: «فليبلغ الشاهد الغائب»[3] وكذلك أخذوا عنه السنن التي سنّها ولم ينتقل ﷺ حتى ترك الدين تام الأصول. روى الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال ﷺ رسول الله ﷺ: «تركت فيكم شيئين لن تضلا بعدهما: كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض»[4]. وروى أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح ولفظه: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وأن تأمر عليكم عبد وأنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»[5]. وفي جامع المعيار عن الإمام

---

(1) فتر: انقطع الوحي. انظر الحديث بأتمه في صحيح البخاري كتاب بدء الوحي، باب (3) حديث 3 برواية عائشة رضي الله عنها.

(2) منجماً: مفرقاً.

(3) أخرجه البخاري في كتاب العلم باب قول النبي ﷺ: «رُبَّ مُبَلَّغٍ أوعى من سامع» حديث 67، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، حديث (1679).

(4) أخرجه الحاكم في مستدركه حديث (319) 1/ 172.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب في لزوم السنة حديث (4607) والترمذي في كتاب العلم باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، حديث (2676) وقال: هذا حديث حسن صحيح من حديث العرباض بن سارية.

المازري: «القرآن قاعدة الإسلام وقطب الأحكام ومفزع أهل الملة ووزرهم وآية رسولهم ودليل صدق دينهم» اهـ والقرآن فيه تبيان كل شيء، جامع لكل فضيلة وناه عن كل رذيلة، .عو إلى الإخاء والاتحاد والاجتماع والعدل والإحسان واجتناب البغي والفساد، طأطأت الرؤوس لسلطانه، وانصاع أبلغ العرب لبلاغته وبيانه، ونهض به الإسلام نهضة لم تعهد، واستعذبته النفوس والقلوب، وحصل به غاية المطلوب. في أوائل تبصرة ابن فرحون أن الله تعالى أكمل لنبيه ﷺ دينه القويم وهدى به مَن يشاء إلى الصراط المستقيم، وأسس شرعه المطهر على أحسن الطرائق وأحكم القواعد، وشيده بالتقوى والعدل وجلب المصالح ودرء المفاسد، وأيده بالأدلة الموضحة للحق وأسبابه المرشدة إلى إيصال الحق لأربابه، وحماه بالسياسة الجارية على سنن الحق وصوابه. ولذا قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: 115]. فالمراد بالكلمات القرآن العظيم تمت دلائله وحججه وأوامره ونواهيه وأحكامه وبشارته وإنذاره، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3]. وفيها في طالعة القسم الثالث: السياسة نوعان، سياسة ظالمة الشرع يحرمها، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم وتدفع كثيراً من المظالم وترد أهل الفساد ويتوصل بها إلى المقاصد الشرعية. فالشريعة يجب المصير إليها والاعتماد في إظهار الحق عليها وهي باب واسع تضل فيه الأفهام وتزل فيه الأقدام وإهماله يضيع الحقوق ويبطل الحدود ويجرىء أهل الفساد ويعين أهل العناد والتوسع فيه يفتح باب المظالم الشنيعة ويوجب سفك الدماء وأخذ الأموال بغير الشريعة ولذا سلكت فيه طائفة مسلك التفريط المذموم فقطعوا النظر عن هذا الباب إلا فيما قلّ ظناً منهم أن تعاطي ذلك مناف لقواعد الشريعة فسدُّوا من طرق الحق سبيلاً واضحة وعدلوا إلى طريق العناد الفاضحة لأن في إنكار السياسة الشرعية رد النصوص الشرعية وتغليطاً للخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم. وطائفة سلكت في هذا الباب مسلك الإفراط فتعدوا حدود الله تعالى وخرجوا عن حدود الشرع إلى أنواع الظلم والبدع والسياسة وتوهمو أن السياسة الشرعية قاصرة عن سياسة الخلق ومصلحة الأمة وهو جهل وغلط فاحش. قال عزّ من قائل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فدخل في هذا جميع مصالح العباد الدينية والدنياوية. وقال ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي» وطائفة توسطت وسلكت مسلك الحق وجمعوا بين السياسة والشرع فغمصوا الباطل ودحضوه ونصفوا الشرع ونصروه. ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. انتهى.

وفي الاعتصام أن الله تعالى أنزل الشريعة على رسوله ﷺ فيها تبيان كل شيء يحتاج إليه الخلق في تكاليفهم التي أمروا بها وتعبداتهم التي طوّقوها في أعناقهم

ولم يمت ﷺ حتى كمل الدين بشهادة الله تعالى حيث قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ والمراد بالكمال بحسب ما يحتاج إليه من القواعد الكلية التي يجري عليها ما لا نهاية له من النوازل والجزئيات انتهى.

وفي أوائل بداية المجتهد أن الطرق التي تلقيت منها الأحكام عن النبي ﷺ بالجنس ثلاثة إما لفظ وإما فعل وإما إقرار. وأما ما سكت عنه الشارع من الأحكام فقال الجمهور إن طريق الوقوف عليه هو القياس. وقال أهل الظاهر: القياس في الشرع باطل وما سكت عنه الشارع فلا حكم له، ودليل العقل يشهد بقبوله وذلك أن الوقائع بين أشخاص الأناسي غير متناهية والنصوص والأفعال والإقرارات متناهية ومحال أن يقابل ما لا يتناهى بما يتناهى اهـ. وزبدة القول إن القانون الإسلامي هو القرآن العظيم وسنة نبيه الكريم. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: 44] وقال: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: 31] ثم استنباط المجتهدين من الكتاب والسنة، وقد اعتنى المجتهدون بحفظ مقاصد الشريعة في الخلق لأنها جاءت لإخراج المكلف عن داعية هواه في جميع الأحوال من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو ضروري للاجتماع الإنساني فأجرته على قانون مستقيم ومنهاج من الدين قويم في شروط صاحبه، وما يجب عليه من العدل والدين والأمانة واتباع المصلحة وغير ذلك مما هو مقرر في كتب الدين ومن له مساس بالفقه لا يخفى عليه أن أحكام الشرع تدور مع المصالح والمفاسد وتختلف باختلاف الأحوال والأزمان. قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور. في روح المعاني عند قوله عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: 5] أي يعادونهما ويشاقونهما. قال ناصر الدين البيضاوي: ويضعون أو يختارون حدوداً غير حدود الله تعالى ورسوله ﷺ. وقال شيخ الإسلام سعد الله جلبي: وعلى هذا ففيه وعيد عظيم للملوك وأمراء السوء الذين وضعوا أموراً خلاف ما حده الشرع وسموها القانون. قال شهاب الدين الخفاجي بعد نقله ما ذكر وقد صنف العارف بالله الشيخ بهاء الدين رسالة في كفر من يقول يعمل بالقانون والشرع إذا قابل بينهما وقد قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: 3] وقد وصل الدين إلى رتبة من الكمال لا يقبل التكميل وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ولكن أين مَن يعقل انتهى. وليتني رأيت هاته الرسالة ووقفت على ما فيها فإن إطلاق القول بالكفر مشكل عندي فتأمل، ثم إنه لا شبهة في أنه لا بأس بالقوانين السياسية إذا وقعت باتفاق ذوي الآراء من أهل الحل والعقد على وجه يحسن بها الانتظام ويصلح أمر الخاص والعام ومنها تعيين مراتب التأديب

والزجر على معاصي وجنايات لم ينص الشارع فيها على حد معين بل فوّض الأمر في ذلك لرأي الإمام فليس ذلك من المحادة لله تعالى ورسوله ﷺ في شيء بل فيه استيفاء حق الله تعالى على أتم وجه لما فيه من الزجر على المعاصي وهو أمر مهم للشارع عليه الصلاة والسلام ويرشد إليه ما في تحفة المحتاج للإمام أن يستوفي التعزير إذا عفا صاحب الحق لأن الساقط بالعفو هو حق الآدمي والذي يستوفيه الإمام هو حق الله تعالى للمصلحة وفي كتاب الخراج لأبي يوسف إشارة إلى ذلك أيضاً ولا يعكر على ذلك ونحوه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ لأن المراد كماله من حيث تضمنه ما يدل على حكمة الله تعالى خصوصاً أو عموماً ويرشد لهذا عدم النكير على أحد من المجتهدين إذا قال بشيء لم يكن منصوصاً عليه بخصوصه ومن ذلك ما ثبت بالقياس بأقسامه نعم القانون الذي يكون وراء ذلك فإن كان مصادماً لما نطقت به الشريعة الغراء زائغاً عن سنن المحجة البيضاء فيه ما فيه كما لا يخفى على العارف النبيه والآية نزلت في كفار قريش اهـ.

صلة

بها أن القرآن هو الحكمة البالغة والحجة الكاملة مع الإبانة عن فضل المعنى الذي به باين سائر الكلام

اعلم أن في آي القرآن العبرة لمن اعتبر، والذكرى لمن اذكر، والبيان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. في تفسير الإمام المفسر المجتهد أبي جعفر محمد بن جرير الطبري[1] عند تفسير الفاتحة ما نصه:

مسألة يسأل عنها أهل الإلحاد الطاعنون في القرآن إن سألنا منهم سائل فقال إنك قد قدمت في أول كتابك هذا في وصف البيان بأن أعلاه درجة وأشرفه مرتبة أبلغه في الإبانة عن حاجة المبين به عن نفسه وأبينه عن مراد قائله وأقربه من فهم سامعه. وقلت مع ذلك أن أولى البيان بأن يكون كذلك كلام الله جلّ ثناؤه بفضله على سائر الكلام وبارتفاع درجته على أعلى درجات البيان. فما الوجه إذ كان الأمر على ما وصفت في إطالة الكلام بمثل سورة أم القرآن بسبع آيات وقد حوت معاني جميعها منها آيتان وذلك قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ إذ كان لا شك أن من عرف ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ فقد عرفه

(1) محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر، ولد سنة 224هـ وتوفي سنة 310هـ.

بأسمائه الحسنى وصفاته المثلى وأن من كان لله مطيعاً فلا شك أنه لسبيل من أنعم الله عليه في دينه متبع، وعن سبيل من غضب عليه وضلّ معتدل. فما في زيادة الآيات الخمس الباقية من الحكمة التي لم تحوها الآيتان اللتان ذكرنا. قيل له إن الله تعالى جمع لنبينا محمد ﷺ ولأمته بما أنزل إليه من كتابه معاني لم يجمعهن بكتاب أنزله إلى نبي قبله ولا لأمة من الأمم قبلهم وذلك أن كل كتاب أنزله جلّ ذكره على نبي من أنبيائه قبله فإنما أنزله ببعض المعاني التي يحوي جميعها كتابه الذي أنزله إلى نبينا محمد ﷺ كالتوراة التي هي مواعظ وتفصيل والزبور الذي هو تحميد وتمجيد والإنجيل الذي هو مواعظ وتذكير لا معجزة في واحد منها تشهد لمن أنزل إليه بالتصديق والكتاب الذي أنزل على نبينا محمد ﷺ يحوي معاني ذلك كله ويزيد عليه كثيراً من المعاني التي سائر الكتب غيره منها خال وقد قدمنا ذكرها فيما مضى من هذا الكتاب. ومن أشرف تلك المعاني التي فضّل بها كتابنا سائر الكتب قبله نظمه العجيب ووصفه الغريب وتأليفه البديع الذي عجزت عن نظم مثل أصغر سورة منه الخطباء، وكلّت عن وصف شكل بعضه البلغاء، وتحيرت في تأليفه الشعراء، وتبلدت قصوراً عن أن تأتي بمثله لديه أفهام الفهماء. فلم يجدوا له إلا التسليم والإقرار بأنه من عند الواحد القهار مع ما يحوي مع ذلك من المعاني التي هي ترغيب وترهيب وأمر وزجر وقصص وجدل ومثل وما أشبه ذلك من المعاني التي لم تجتمع في كتاب أنزل إلى الأرض من السماء فمهما يكن فيه من إطالة على نحو ما في أم القرآن فلما وصفت قبل من أن الله جلّ ذكره أراد أن يجمع بوصفه العجيب ونظمه الغريب المنعدل على أوزان الأشعار وسجع الكهان وخطب الخطباء ورسائل البلغاء العاجز عن وصف مثله جميع الأنام وعن نظم نظيره كل العباد الدلالة على نبوة نبينا محمد ﷺ وبما فيه من تحميد وتمجيد وثناء عليه تنبيه للعباد على عظمته وسلطانه وقدرته وعظم مملكته ليذكروه بآلائه ويحمدوه على نعمائه فيستحقوا به منه المزيد ويستوجبوا عليه الثواب الجزيل وبما فيه من نعت من أنعم عليه بمعرفته وتفضل عليه بتوفيقه لطاعته تعريف عباده أن كل ما بهم من نعمة في دينهم ودنياهم فمنه ليصرفوا رغبتهم إليه ويبتغوا حاجاتهم من عنده دون ما سواه من الآلهة والانداد وبما فيه من ذكره ما حل بمن عصاه من مثلاته وأنزل بمن خالف أمره من عقوباته ترهيب عباده من ركوب معاصيه والتعرض لما لا قبل لهم به من سخطه فيسلك بهم في النكال والنقمات سبيل من ركب ذلك من الهلاك فذلك وجه إطالة البيان في سورة أم القرآن وفيما كان نظيراً لها من سائر سور القرآن وذلك هو الحكمة البالغة والحجة الكاملة. انتهى.

وقد وصف البيان، في أول كتابه بأبين بيان. ومحل الحاجة منه:

لا شك أن أعلى منازل البيان درجة وأسنى مراتبه مرتبة أبلغه في حاجة المبين نفسه وأبينه عن مراد قائله وأقربه من فهم سامعه فإن تجاوز ذلك المقدار وارتفع عن وسع الأنام وعجز عن أن يأتي بمثله جميع العباد كان حجة وعلماً لرسل الواحد القهار كما كان حجة وعلماً لها إحياء الموتى وإبراء الأبرص وذوي العمى بارتفاع ذلك عن مقادير أعلى منازل طب المتطببين وأرفع مراتب علاج المعالجين إلى ما يعجز عنه جميع العالمين وكالذي كان لها حجة وعلماً قطع مسافة شهرين في الليلة الواحدة بارتفاع ذلك عن وسع الأنام وتعذر مثله على جميع العباد وإن كانوا على قطع القليل من المسافة قادرين واليسير منه فاعلين فإذا كان ما وصفنا من ذلك كالذي وصفنا فبين أن لا بيان أبين ولا حكمة أبلغ ولا منطق أعلى ولا كلام أشرف من بيان ومنطق تحدى به امرؤ قوماً في زمان هم فيه رؤساء صناعة الخطب والبلاغة وقيل الشعر والفصاحة والسجع والكهانة كل خطيب منهم وبليغ وشاعر منهم وفصيح وكل ذي سجع وكهانة فسفه أحلامهم وقصر معقولهم وتبرأ من دينهم ودعا جميعهم إلى اتباعه والقبول منه والتصديق به والإقرار بأنه رسول إليهم من ربهم وأخبرهم أن دلالته على صدق مقالته وحجته على حقيقة نبوته ما أتاهم به من البيان والحكمة والفرقان بلسان مثل ألسنتهم ومنطق موافقة معانيه معاني منطقهم ثم أنبأ جميعهم أنهم عن أن يأتوا بمثل بعضه عجزة ومن المقدرة عليه نقصة فأقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق وشهدوا على أنفسهم بالنقص. انتهى من تفسير أبي جعفر بن جرير الطبري.

وفي خلاصة تاريخ العرب أشهر معجزاته ﷺ القرآن الكريم لاشتهار البلاغة والفصاحة في زمنه عند قريش الذين كانوا يفتخرون بحسن الكلام ويتغالون فيه كما كان إحياء الموتى لعيسى والثعبان لموسى زمن اشتهار السحر والنفس الطيب لداود زمن اشتهار الموسيقى وتلا ﷺ على عباد الأصنام أول سورة فصلت وبلغ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [فصلت: 9] إلى أن قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: 31، 32] وكان من أراد الله هدايته يسمع القرآن فيسلم كعمر رضي الله عنه فإنه توجه بسيفه لقتل النبي ﷺ فقيل له: لا تفعل لئلا يقتلك بنو عبد مناف ولكن اردع خباباً وأختك وابن عمك سعيد بن زيد فإنهم أسلموا فقصدهم وهم يتلون سورة طه فسكتوا فسألهم عما سمعه فأنكروه فضرب أخته فشجها قائلاً: أريني ما كنتم تقرأونه وخافت على الصحيفة فعاهدها على أن يردها إليها فدفعتها وقرأها وقال ما أحسن هذا وأكرمه، ثم توجه إلى النبي ﷺ فأسلم اهـ.

وفيها بعد نقله آياً من القرآن في الآداب ما نصه: ما فرط القرآن في شيء من الآداب التي قوامها الحكمة ورأسها العدل والإحسان وغايتها قصد سبيل الحق والصد عن محجة الضلالة والخروج من ظلمات الرذائل إلى نور الفضائل والتطهير من شوائب النقص والتحلي بزينة الكمال وما قصدنا بإيراد ما سلف إلا أن يكون لهذه الأمة الشريفة دليل تقدس غايتها وحرمة مذهبها ورفعة حكمتها وموافقتها لما نزل من قبل على الرسل الكرام فبذلك يهتدي البصير إلى فضل القرآن المجيد إذ جمع فأوعى ما أوتيه النبيون من قبل من البينات. انتهى من خلاصة تاريخ العرب للعالم المنصف سيديو وقصة إسلام عمر رضي الله عنه سنذكرها في خلافته.

درة

اعلم أنه جرت عادة الله أن أوامره لا تخلو من حكمة فإن ظهرت فهي معقولة المعنى وإلا فتعبد وذلك لأنا استقرأنا عادة الله تعالى فوجدناها جالبة للمصالح دارئة للمفاسد ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إذا سمعت نداء الله فهو إنما يدعوك لخير أو يصرفك عن شر كإيجاب الزكاة والنفقات لسد الخلات وأرشد جبر الجنايات المتلفات وتحريم القتل والزنا والسكر والسرقة والقذف صوناً للنفوس والأنساب والعقول والأموال والإعراض عن المفسدات» اهـ حطاب.

جوهرة

في الاعتصام أن الله عزّ وجل أنزل القرآن عربياً لا عجمة فيه بمعنى أنه جار في ألفاظه ومعانيه وأساليبه على لسان العرب، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: 3] وقال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: 28] وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: 193 ـ 195] وكان المنزل عليه القرآن عربياً أفصح من نطق بالضاد وهو محمد بن عبد الله ﷺ وكان الذين بعث فيهم عرباً أيضاً يجري الخطاب به على معتادهم في لسانهم فليس فيه شيء من الألفاظ والمعاني إلا وهو جار على ما اعتادوه ولم يدخله شيء بل نفى عنه أن يكون فيه شيء عجمي فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: 103] وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: 44] هذا وإن كان بعث للناس كافة فإن الله جعل جميع الأمم وعامة الألسنة في هذا الأمر تبعاً للسان العرب وإذا كان كذلك فلا يفهم كتاب الله تعالى إلا من الطريق الذي نزله عليه وهو اعتبار ألفاظ ومعانيها وأساليبها اهـ.

فريدة

في الاعتصام أن الله بعث إلينا محمداً ﷺ رحمة للعالمين حسبما أخبر في كتابه، وقد كنا قبل طلوع ذلك النور الأعظم لا نهتدي سبيلاً ولا نعرف من مصالحنا الدنياوية إلا قليلاً على غير كمال ولا من مصالحنا الأخروية كثيراً ولا قليلاً، بل كان كل أحد يركب هواه وإن كان فيه ما فيه ويطرح هوى غيره فلا يلتفت إليه فلا يزال الاختلاف بينهم والفساد فيهم يخص ويعم حتى بعث الله نبيه ﷺ لزوال الريب والالتباس وارتفاع الخلاف بين الناس كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: 213] وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس: 19] ولم يكن حاكم بينهم فيما اختلفوا فيه إلا وقد جاءهم بما ينظم به شملهم وتجتمع به كلمتهم وذلك راجع إلى الجهة التي من أجلها اختلفوا وهو مما يعود عليهم بالصلاح في العاجل والآجل ويدرأ عنهم الفساد على الإطلاق فاحتفظت الأديان والدماء والعقول والأنساب والأموال من طريق يعرف مأخذها العلماء وذلك القرآن العظيم بل المنزل على النبي ﷺ قولاً وعملاً وإقراراً، ولم يردوا إلى تدبير أنفسهم للعلم بأنهم لا يستطيعون ذلك ولا يستقلون بدرك مصالحهم ولا تدبير أنفسهم، فإذا ترك المبتدع هذه المهمات العظيمة والعطايا الجزيلة وأخذ في استصلاح نفسه ودنياه بما لم يجعل الشرع عليه دليلاً فكيف له بالعصمة والدخول تحت هذه الرحمة وقد حلّ يده من حبل العصمة إلى تدبير نفسه فهو حقيق بالبعد عن الرحمة. قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: 103] بعد قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: 102] فاشعر أن الاعتصام بحبل الله هو تقوى الله حقاً وأن ما سوى ذلك تفرقة لقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ والفرقة من أحسن أوصاف المبتدعة لأنه خرج عن حكم الله وباين جماعة الإسلام. روى عبد الله بن حميد عن عبد الله: أن حبل الله الجماعة. وعن قتادة: حبل الله المتين هو القرآن وسننه وعهده إلى عباده الذي أمر أن يعتصم بما فيه من الخير والثقة وأن يتمسكوا به ويعتصموا بحبله ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الحج: 78] اهـ. وفيه لولا أن منَّ الله على الخلق ببعثة الأنبياء لم تستقم لهم حياة ولا جرت أحوالهم على كمال مصالحهم وهذا معلوم بالنظر في أخبار الأولين والآخرين. وفيه أيضاً الشريعة موضوعة لإخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله، وهي حجة على الخلق كبيرهم وصغيرهم مطيعهم وعاصيهم برهم وفاجرهم بل إن المرسلين بها صلوات الله عليهم

داخلون تحت أحكامها، فأنت ترى أن نبينا محمداً ﷺ مخاطب بها في جميع أحواله وتقلباته مما اختص به دون أمته أو كان عاماً له ولأمته كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: 50] إلى سائر التكاليف التي وردت على كل مكلف والنبي فيهم فالشريعة هي الحاكمة على الإطلاق والعموم عليه وعلى جميع المرسلين وهي الطريق الموصل والهادي الأعظم. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: 52] فهو عليه الصلاة والسلام أول من هداه الله بالكتاب والإيمان ثم من اتبعه فيه والكتاب هو الهادي والوحي المنزل عليه مرشد ومبين لذلك الهدى والخلق مهتدون بالجميع. ولما استنار قلبه وجوارحه عليه السلام وظاهره وباطنه بنور الحق علماً وعملاً صار هو الهادي الأول لهذه الأمة والمرشد الأعظم حيث خصه الله دون الخلق بإنزال ذلك النور عليه واصطفاه من جملة مَن كان مثله في الخلقة البشرية اصطفاءً أولياً لا من جهة كونه بشراً عاقلاً مثلاً لاشتراكه مع غيره في هذه الأوصاف ولا لكونه من قريش مثلاً دون غيرهم وإلا لزم ذلك في كل قريش، ولا لكونه من بني عبد المطلب ولا لكونه عربياً ولا لغير ذلك بل من جهة اختصاصه بالوحي الذي استنار به قلبه وجوارحه فصار خلقه القرآن حتى نزل فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 4] وإنما كان خلقه القرآن لأنه حكم الوحي على نفسه حتى صار في علمه وعمله على وفقه فكان للوحي موافقاً قائلاً مذعناً ملبياً نداءه واقفاً عند حكمه، وهذه الخاصة كانت من أعظم الأدلة على صدقه فيما جاء به إذ قد جاء بالأمر وهو مؤتمر وبالنهي وهو منته وبالوعظ وهو متعظ وبالتخويف وهو أول الخائفين وبالترجية وهو سائق دابة الراجين، وحقيقة ذلك كله جعله الشريعة المنزلة عليه حجة حاكمة عليه ودلالة له على الصراط المستقيم الذي سار عليه ﷺ ولذا صار عبداً لله حقاً وهو أشرف اسم تسمى به العباد. قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: 1] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: 1] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23] وما أشبه ذلك من الآيات التي وقع مدحه فيها بصفة العبودية، وإذا كان ذلك فسائر الخلق حريون بأن تكون الشريعة حاكمة عليهم ومناراً يهتدون بها إلى الحق وشرفهم إنما يثبت بحسب ما اتصفوا به من الدخول تحت أحكامها والعمل بها قولاً واعتقاداً وعملاً لا بحسب عقولهم فقط ولا بحسب شرفهم في قومهم فقط لأن الله تعالى إنما أثبت الشرف بالتقوى لا غير لقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: 13] فمَن كان أشد محافظة على اتباع الشريعة فهو أولى

بالشرف ومَن كان دون ذلك لم يكن أن يبلغ في الشرف مبلغ الأعلى في اتباعها. فالشرف إذاً إنما هو بحسب المبالغة في تحكم الشريعة اهـ ببعض اختصار.

خلاصة
في العلوم التي تفرعت من القرآن أو نشأت لخدمته

اعلم أن العرب في صدر الإسلام حفظوا القرآن وليس في أيديهم من الكتب غيره يقرأونه ويتعظون به ويتحاكمون إليه وقد عجبوا بأسلوبه ودهشوا ببلاغته لأنه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ونظم الشعراء المقفى الموزون وقد خالف كليهما وفيه من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه في لسانهم، فسحروا بأسلوبه وبما حواه من الشرائع والأحكام والأخبار، فأصبح همهم تلاوته وتفهم أحكامه، لأنه قاعدة الدنيا والدين وبه تتأيد السلطة والخلافة وهو أول كتاب أخذوا في قراءته وحفظه.

القراءات السبع

واختلفوا في قراءة بعض آياته. فتولدت القراءات السبع نسبة إلى سبعة من القراء ـ تقدم ذكرهم في المقدمة ـ وتفرع بتوالي الأعصر إلى سبعة علوم هي: علم الشواذ، وعلم مخارج الحروف، ومخارج الألفاظ، والوقوف، وعلل القرآن، وكتابة القرآن، وآداب كتابة المصحف. وفي كل من هذه العلوم قواعد وكتب، وأكثر العلوم الإسلامية نشأت من القرآن أو تولدت خدمة له ولا يكاد يخلو علم من تأثير القرآن عليه رأساً أو ضمناً.

النحو

أول شيء احتاجوا إليه في ضبط القرآن النحو، وكان الباعث على التعجيل في ضبطه وضبط قواعده ما شاهدوه من لحن الناس في قراءة القرآن بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق، وقد نمت قواعده ولم يتم القرن الثاني للهجرة أي نضج في قرن وبعض القرن، واليونان لم يتم علم النحو عندهم إلا بعد إنشاء دولتهم بعدة قرون، ولم يضع الرومان نحو اللغة اللاتينية إلا بعد قيام دولتهم بستة قرون. ويفتقر علم النحو في تأييد قواعده إلى معرفة كلام العرب وأساليبهم.

التفسير وعلم الأدب

ولما أخذ العلماء في تفسير القرآن احتاجوا أيضاً إلى ضبط معاني ألفاظه وتفهم أساليب عبارته فجرّهم ذلك إلى البحث في أساليب العرب وأقوالهم وأشعارهم وأمثالهم وهو علم الأدب المشتمل على الفنون الأدبية والعلوم المتعلقة بالألفاظ وهي تزيد على العشرين علماً كالنحو الصرف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والعروض، والفضل في تعجيل ظهورها للقرآن.

الحديث

واحتاجوا في تفسير القرآن أيضاً إلى تفهم الحديث لأنهم كانوا إذا أشكل عليهم فهم آية أو اختلفوا في تفسيرها أو حكم من أحكامها استعانوا بأقوال النبي ﷺ على استيضاحها، فلما تفرّق الصحابة في الأرض تفرقت الأحاديث معهم فاشتغل جماعة من المفكرين في جمعها وتدوينها وتولد من ذلك العلوم المتعلقة بالحديث وهي التي مر بيانها بخاتمة المقصد. والتفسير نفسه لما نضج تفرع إلى علوم كثيرة مذكورة في مفتاح السعادة وهي تزيد على السبعين علماً ولكل منها علماء ومصنفات ومناظرات، وكان للعلوم اللغوية ارتباط بالعلوم الشرعية، لا يستطيع الطالب إتقان الواحدة إن لم يتقن الأخرى.

الفقه

ولما صار الإسلام دولة احتاج أمراؤه إلى ما يقضون به بين رعاياهم في أحوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية فكان معولهم على القرآن والحديث فاستنبطوا منهما الشريعة وأحكامها وهو الفقه بفروعه المشهورة علم النظر والمناظرة والجدل والفرائض والشروط والقضاء والتشريع والفتاوى ونحوها.

السير والتاريخ

ولما اشتغل المسلمون في جمع القرآن وجمع الأحاديث احتاجوا إلى تحقيق الأماكن والأحوال التي كتبت بها أو قيلت فيها الأحاديث فعمدوا إلى جمع السيرة النبوية ودوّنوها واضطروا لتحقيق مسائل الحديث والفقه والنحو والأدب إلى البحث في أسانيدها والتفريق بين ضعيفها ومتينها فجرهم ذلك إلى النظر في الرواة وتراجمهم وسائر أحوالهم وقسموا كل فن إلى طبقات، فتألف من ذلك تراجم

العلماء والأدباء والفقهاء والنحاة وغيرهم مما يعبرون عنه بالطبقات كطبقات الشعراء وطبقات المفسرين أو النحاة أو الفقهاء أو الحفاظ أو النسابين أو غيرهم. وكان ذلك أساً لعلم التاريخ وزد على ذلك ما في القرآن من الآيات الحاثة على الاشتغال بالتاريخ أو بالأخبار للعبرة والموعظة كقوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111].

الجغرافيا

ومن الأسباب التي ساعدت على وضع علم الجغرافيا وتقويم البلدان الأسفار في طلب الحديث من حملته والحج إلى مكة والرغبة في تطبيق القواعد الفقهية ويفتقر ذلك إلى معرفة حال البلاد وكيفية فتحها صلحاً أو عنوة وقد جرّ ذلك إلى تعرف البلاد ومواطنها ومع ذلك فإن في القرآن نصوصاً تحض على طلب هذا العلم كقوله جلّ جلاله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46] وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: 11] وغير ذلك. وقد ذكرنا فضيلة التاريخ والجغرافيا في صدر المقصد من هذا المؤلف.

الخطابة

هذا ما كان من تأثير القرآن في آداب الجاهلية وهناك تأثير أحدثه القرآن أيضاً في الآداب التي كانت شائعة قبل الإسلام فغيّر أسلوبها ورقاها وأهمها الخطابة والشعر من الفنون الأدبية الجاهلية التي زادها الإسلام رونقاً وبلاغة وارتفعت زمن الصحابة والتابعين والفضل في ذلك عائد للكتاب المبين من وجوه منها أن القرآن وإن كان نزل بلغة القوم التي بها يتخاطبون وبفصاحتها يتفاخرون إلا أن أساليبه العالية أعجزت فصحاءهم وأخذت بمسامع قلوبهم وأكسبتهم ملكة من البلاغة في تحسين الأساليب العالية، ولذا كانوا يعيبون الخطيب المصقع إذا لم يكن في كلامه شيء من آداب القرآن. روى الحافظ عن الهيثم بن عدي أنهم ـ يعني العرب ـ كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آية من آي القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الموقع ومنها ما جاء في القرآن من الترغيب والترهيب على الأسلوب العجيب البالغ حد الإعجاز في التأثير على الضمائر والأخذ بشكائم النفوس أعانهم على التفنن في أساليب الوعظ الخطابي عند حلول الأزمات والحاجة إلى تأليف قلوب الجماعات حتى لقد كان الخطيب البليغ

منهم ليدفع بالخطبة الواحدة من الملمات ما لا يدفع بالبيض المرهفات، ويملك بها من قلوب الرجال ما لا تملكه البدر كما صنع أبو بكر رضي الله عنه في خطبته يوم السقيفة التي امتلك بها قلوب المهاجرين والأنصار وصرف عن الأمة فتنة هي من الأمور الكبار، وكان الخطباء في صدر الإسلام يخطبون الناس عند طروء كل حادث جلل فلا تقييد لوقت ولا تكليف لقول فكانوا يجمعون المسلمين تارة لإعلان خبر عليهم، وتارة لاستشارتهم ووقتاً لتحذيرهم وآخر لوعظهم وتذكيرهم.

الشعر

أما الشعر فقد كان له أعظم التأثير في قلب العربي يحركه كما يحرك الهواء ريشة في الجو وكان عندهم بمثابة الجرائد في هذا الوقت؛ ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتتلقاها الأسماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم، وكانت أسواقهم التي بها يجتمعون لإلقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام وهي عكاظ ومجنة وذو مجاز.

وبالجملة فإن للقرآن تأثيراً عظيم الأهمية لم يوفق لغير القرآن من الكتب الدينية في الأمم الأخرى وفي آداب اللغة العربية الفصحى وفي أخلاق أصحابه ممن سواه لأنهم مكلفون بحفظه قبل كل علم وهم أطفال وهو داخل في كل شيء من الأمور الدينية والدنيوية وأساس شرائعهم القضائية وقاعدة معاملاتهم اليومية وأحوالهم العائلية حتى الطعام والشراب واللباس والنوم والغسل وكل شيء يمكن استنباطه منه وتجد له مثالاً فيه. وهذا لا تراه في غيره من الكتب السماوية.

فصل
أذكر فيه الوازع والحرية

فأقول: إن الإنسان ميّال بطبعه للسعادة إذا أرشد إليها وحثّ عليها. والشرائع إنما شرعت للسعادة البشرية وقوام الحالة الاجتماعية فالوازع الذي يزع الناس بالشريعة لا يحاول بما يزع به قهراً للنفوس ولا حجراً على الإرادة بل يماشي الإرادة ويساعد النفوس على نيل السعادة لهذا فطاعة الوازع من مستلزمات السعادة لا يأباها العقل ولا يهضم فيها حق من حقوق الحرية ما دامت طاعته يراد بها طاعة القانون الذي هو أصل في السعادة لا طاعة الوازع نفسه من حيث كونه أمراً بهواه وشهواته لا مأموراً من القانون ومهيمناً عليه فالحرية مقيدة بقيدين نفسي وخارجي فالنفسي هو الزاجر الديني والفضيلة الذاتية ففي مطاوعة الزاجر النفسي مطاوعة للفضيلة ووقوف

عند حد الإنسانية والخارجي هو الوازع وفي مطاوعتها للوازع مطاوعة للشرع وخضوع للقانون وليس في كلا القيدين معنى العبودية أو منع للحرية وإنما هو إمساك النفس عن الاندفاع في تيار الهوى الذي يلحق الإنسان بالبهائم فهاته الفضيلة وسط وطرفاها رذيلة إفراط وتفريط وكلاهما رجوع للبهيمية فالحرية بالقيد المذكور فضيلة معناها تخلص الإنسان من الأسر وتخلصه من ضيق الحجر وجواز تصرفه في كل حق من حقوق الإنسانية التي سوّغها العقل وقضت بها أصول الاجتماع والتعاون بحيث يكون الإنسان مالكاً لإرادته لا بهيمة تتحرك بإرادة سواه مالكاً لثمرة عمله لا حق لآخر بحرمانه منها مالكاً لا منه لا لسلطان آخر يسلب منه ذلك، ومتى فقد الشخص واحدة من هذه الثلاث سلب منه معنى الحرية وصار كالحيوان يتعب ليأكل سواه ويشقى ليسعد غيره ويسعى ليموت هو ويحيى مَن عداه.

البشارة بالسعادة والنذارة بالشقاوة

والبشارة المطلقة لا تكون إلا بخير والإنذار الإبلاغ ولا يكون إلا في التخويف. إذا علمت ذلك فاعلم أن الشريعة جاءت بها الرسل لتدعو الناس إلى السعادة والنجاة من الشقاوة، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: 48] فالسعادة تكون بالإقرار للّه تعالى بالوحدانية ولمحمد بالرسالة والاتباع لما جاء به وسنة من فعل المأمورات واستجلاب الفضائل واجتناب الرذائل وجمع الكلمة وبسط العدل ورفع مقام العلم واستعمال غاية الجهد في اتخاذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال عزّ كماله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110] وقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: 90] ما من شيء يحتاج إليه الناس في أمر دينهم مما يجب أن يترك أو يؤتى إلا وقد اشتملت عليه هذه الآية. في روح المعاني أن الآية كما أخرج البخاري في الأدب والبيهقي في شعب الإيمان والحاكم وصححه عن ابن مسعود: أجمعُ آية للخير والشر. وأخرج أبو نعيم عن عبد الملك بن عمير قال: بلغ أكثم بن صيفي مخرج النبي ﷺ فأراد أن يأتيه فأتى قومه فانتدب رجلين فأتيا رسول الله ﷺ فقالا: نحن رسل أكثم يسألك مَن أنت وما جئت به؟ فقال النبي ﷺ: «أنا محمد بن عبد الله عبد الله ورسوله» ثم تلا عليهم هذه الآية. قالوا: ردِّد علينا هذا القول، فردّد عليه الصلاة والسلام حتى حفظوه فأتيا أكثم فأخبراه، فلما سمع الآية قال: إني لأراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهي عن مذامها فكونوا في

هذا الأمر رأساً ولا تكونوا فيه أذناباً. وروي عن ابن عباس أن هذه الآية كانت سبب استقرار الإيمان في قلب عثمان بن مظعون بعد أن أسلم محبة في النبي ﷺ. ولجمعها ما جمعت أقامها عمر بن عبد العزيز حين آلت الخلافة إليه مقام ما كان بنو أمية يجعلونه في أواخر خطبهم من سب علي كرّم الله وجهه وكان ذلك من أعظم مآثره رضي الله عنه. وقال غير واحد: لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين. ولعل إيرادها عقب قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ [النحل: 89] للتنبيه عليه. انتهى باختصار.

أما الشقاوة فإنها تكون باجتناب المأمورات وارتكاب الرذائل والمحرمات واتباع البدع والشهوات وإيثار اللذات كالفجور وقول الزور وشرب الخمور وحب الظهور والدخول تحت معاصي الله ومساخطه جهلاً باستدراج الله وأمناً لمكره. قال جلّ ذكره: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: 112] وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: 25] في روح المعاني: المراد بالفتنة الذنب. وفسر بنحو إقرار المنكر والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع. وفيه عند قوله عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: 23] أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والخطيب والديلمي وغيرهم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث هن رواجع: المكر والنكث والبغي» ثم تلا عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43] ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: 10] وأخرج ابن مندويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لو بغى جبل على جبل لدك الباغي» والبغي هو الظلم الظاهر الذي لا يخفى قبحه على أحد. وفي ذلك من الزجر ما لا يخفى اهـ.

لا يأمن الدهرَ ذو بغي ولو ملكا جنوده ضاق عنها السهل والجبل

فصدور مثل تلك المخالفات سالبة للنعم جالبة للنقم وإثارة الفتن والمصائب والإحن وفقد الراحة والهوان وقلة العمران وخراب الديار والمنازل والفناء في الشعوب والقبائل. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ والخلاصة أن السعادة والشقاوة مقترنتان بالعمل الفاسد والصالح وتترتب عليهما في الدنيا ما قد علم وفي الآخرة الجنة وجهنم.

خلاصة

فيما حصل لرسول الله ﷺ وهو بمكة عندما أعلن بالرسالة وما حصل لمن آمن به

في كتاب الاعتصام أن رسول الله ﷺ بعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل وفي جاهلية جهلاء لا تعرف من الحق رسماً ولا تقيم به في باب مقاطع الحقوق حكماً، بل كانت تنتحل ما وجدت عليه آباءها وما استحسنه أسلافها من الآراء المنحرفة والنحل المخترعة والمذاهب المبتدعة. فحين قام فيهم ﷺ بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً فسرعان ما عارضوا معروفه بالنكر وغيروا في وجهه صوابه بالإفك والمكر ونسبوا إليه إذ خالفهم في الشرعة ونابذهم في النحلة كل محال ورموه بأنواع البهتان، فتارة يرمونه بالكذب وهو الصادق المصدوق الذي لم يجربوا عليه قط خبراً بخلاف مخبره، وآونة يتهمونه بالسحر وفي علمهم أنه لم يكن من أهله ولا ممن يدعيه، وكرة يقولون إنه مجنون مع تحققهم بكمال عقله وبراءته من مس الشيطان وخبله، وإذا دعاهم إلى عبادة المعبود بحق وحده لا شريك له قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [صٓ: 5] مع الإقرار بمقتضى هذه الدعوة الصادقة ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: 65] وإذا أنذرهم بطشة يوم القيامة أنكروا ما يشاهدون من الأدلة على إمكانه وقالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [قٓ: 3] وإذا خوّفهم نقمة الله قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32] اعتراضاً على صحة ما أخبرهم به مما هو كائن لا محالة، وإذا جاءهم بآية خارقة افترقوا في الضلالة على فرق واخترقوا فيها لمجرد العناد ما لا يقبله أهل التهدي إلى التفرقة بين الحق والباطل كل ذلك قصداً منهم إلى التأسي بهم والموافقة على ما ينتحلون إذا رأوا خلاف المخالف لهم في باطلهم رداً لما هم عليه ونبذاً لما شدوا عليه يد الظنة واعتقدوا إذا لم يتمسكوا بدليل أن الخلاف يوهو الثقة ويقبح جهة الاستحقاق وخصوصاً حين اجتهدوا في الانتصار بعلم فلم يجدوا أكثر من تقليد الآباء، ولذا أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام في محاجة قومه ﴿مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾ [الشعراء: 70 ـ 74] فحادوا كما ترى عن الجواب القاطع المورد مورد السؤال إلى الاستمساك بتقليد الآباء. وقال الله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا

وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: 21 و22] فرجعوا عن جواب ما ألزموا به إلى التقليد. فقال تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: 24] فأجابوا بمجرد الإنكار ركوناً إلى ما ذكروا من التقليد لا بجواب السؤال، فكذلك كانوا مع النبي ﷺ فأنكروا ما توقعوا معه زوال ما بأيديهم لأنه خرج عن معتادهم وأتى بخلاف ما كانوا عليه من كفرهم وضلالهم حتى أرادوا أن يستنزلوه على وجه السياسة في زعمهم ليوقعوا بينهم وبينه المؤالفة والموافقة ولو في بعض الأوقات أو في بعض الأحوال أو على بعض الوجوه ويقنعوا منه بذلك ليقف لهم بتلك الموافقة واهى بنائهم فأبى عليه السلام إلا الثبوت على محض الحق والمحافظة على خالص الصواب، وأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ [الكافرون: 1، 2] إلى آخر السورة فنصبوا له عند ذلك حرب العداوة ورموه بسهام القطيعة وصار أهل السلم كلهم حرباً عليه وعاد الولي الحميم عليه كالعذاب الأليم، فأقربهم إليه نسباً كان أبعد الناس عن موالاته كأبي جهل وغيره وألصقهم به رحماً كانوا أقسى قلوباً عليه؛ ومع ذلك فلم يكله الله إلى نفسه ولا سلطهم على النيل من أذاه إلا نيل المصلوفين، بل حفظه الله وعصمه وتولاه بالرعاية والكلاءة حتى بلّغ دعوة ربه، ثم ما زالت الشريعة في أثناء نزولها وعلى توالي تقريرها تبعد بين أهلها وبين غيرهم وتضع الحدود بين حقها وبين ما ابتدعوا لكن على وجه من الحكمة عجيب وهو التأليف بين أحكامها وبين أكابرهم في أصل الدين الأول الأصيل. ففي العرب نسبتهم إلى أبيهم إبراهيم عليه السلام وفي غيرهم لأنبيائهم المبعوثين فيهم كقوله تعالى بعد ذكر كثير من الأنبياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90] وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الشورى: 13] وما زال عليه الصلاة والسلام يدعو إليها فينوب إليه الواحد بعد الواحد على حكم الاختفاء خوفاً من عادية الكفار زمان ظهورهم على دعوة الإسلام فلما اطلعوا على المخالفة أنفوا وقاموا وقعدوا فمن أهل الإسلام من لجأ إلى قبيلة فحموه على إغماض أو على دفع العار في الإخفار ومنهم مَن فرّ من الإذاية وخوف الغرة هجرة إلى الله وحباً في الإسلام ومنهم من لم يكن له وزر يحميه ولا ملجأ يركن إليه فلقي منهم من الشدة والغلظة والعذاب أو القتل ما هو معلوم ثم لما وقعت المؤامرة على قتله وأعلمه الله بذلك وأمره بالخروج لدار هجرته وهي المدينة المنورة هاجر إليها ﷺ واستمر تزيد الإسلام واستقام طريقه مدة حياة النبي ﷺ ومن بعد موته اهـ اعتصام.

وزبدة القول إن رسول الله ﷺ مكث في مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر إلى المدينة اثني عشر سنة وخمسة أشهر وأياماً إذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول إلى قباء أنزل عليه في أثنائها معظم القرآن والذي نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقي وهو اثنان وعشرون سورة نزلت بالمدينة ويمتاز المدني من القرآن عن المكي بأمرين الأول ما فيه من قصص الغزوات وأسبابها وما كان فيها مما يصح درساً نافعاً للمسلمين والثاني ما تناول من الشرائع الاجتماعية والدينية والمراد بالدينية ما شرعه لإصلاح النفوس وتهذيبها وهي التي يطلق عليها المسلمون العبادات. والاجتماعية ما شرعه ليكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض وأهم ما جاءت به الآيات المكية التوحيد ورفض الأوثان والأصنام فلا يكون بين العبد وربه واسطة وإثبات يوم آخر يجازى فيه كل امرىء بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر وبيان الخصال التي تقرب إلى الله ولا تبعد منه وعبادات عملية تربطهم بالله وتوجههم إلى نحو الخير وفي آخر أيامه بمكة أذن له بالقتال والإذن به لم يشرع إلا دفعاً عن أنفسهم وتأميناً للدعوة من أن تقف الفتنة في طريقها اهـ باختصار من محاضرات الخضري.

وقوله إذا اعتبرنا كان وصوله ﷺ إلى قباء يوم الاثنين وأقام بها إلى يوم الجمعة ثاني عشر ربيع. واعلم أن من المقرر أن وظيفة الرسل تبليغ الشرائع وتقريرها على وجه يجمع إليها شملهم ويتكفل بسعادتهم وبعد هذا لا يبقى من وظيفة الرسل لمن يخلفه إلا حماية هذه الشرائع والحكم بينهم بما أنزل الله وسنّة الرسل. ومن المعلوم أن مؤازرة القوة للشرائع قاعدة كلية لا تتخلف سواء عن الشرائع الإلهية أو الأوضاع البشرية وقد ترتب عليها قيام الدول في كل ملة من الملل لضرورة وجود الوازع الذي يزع الناس بالكتاب والميزان ويردهم ولو بالقوة إلى حدود الشرع وذلك بدليل قوله تعالى فيمن سبق عن الرسل أولي الشرائع: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: 25] وفي ذلك من الإشارة إلى ملازمة القوة للدين ما لا يخفى إرهاباً للناس وكبحاً للنفوس التي يقودها مجرد الإرشاد واللين وهاته القوة إنما تقوم بالوازع وأعوانه ومنهم تتألف الدولة. قال الزهري: أول آية نزلت في الإذن بالقتال قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: 39] فشرع ﷺ حينئذ في تهيئة الجيوش وبعث البعوث والسرايا فغزا بنفسه الكريمة هو وأصحابه حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً وكان عدد مغازيه عليه الصلاة والسلام ثمانياً وعشرين، قاتل في ثمان أو تسع منها بنفسه بدر وأحد والمريسيع والخندق وقريظة وحنين وفتح مكة الذي هو الفتح الأعظم وخيبر والطائف

وغزوة بدر الكبرى وهو يوم الفرقان الذي أعزّ الله فيه الإسلام وأهله وأذل فيه الشرك وأهله. ومغازيه وسراياه مذكورة في كتب السير وغيرها، غزوة غزوة، وسرية سرية، آخرها سرية أسامة بن زيد التي جهزها ﷺ في مرضه الذي توفي فيه ونفذها بعده أبو بكر رضي الله عنه وسيأتي خبرها. وما أشير إليه من الغزوات والسرايا وتبليغ الدعوة وأسباب النزول ومعجزاته وفضائله وشمائله وسيرته وغير ذلك مما شرفه الله به وما حصل له من نشأته إلى وفاته مذكور على وجه التفصيل في كتب السنة والسير المختصة لهذا الشأن بأبين بيان وأفصح لسان.

خطبته عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع

في التاسع من ذي الحجة من السنة العاشرة توجه ﷺ إلى عرفة وهناك خطب خطبته الشريفة. وإليك نصها:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت اللهم اشهد فمَن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. إن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحرقون بل تحقرون من أعمالكم. أيها الناس، إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض منها أربعة حرم ثلاث متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت اللهم اشهد. أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع

وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً. ألا هل بلغت اللهم اشهد. أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت اللهم اشهد فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده كتاب الله ألا هل بلغت اللهم اشهد. أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب. أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية في أكثر الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى لغير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً. والسلام عليكم ورحمة الله.

وفي هذا اليوم امتن الله على المؤمنين بقوله في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ فلا غرابة إن اتخذه المسلمون عيداً ويوماً سعيداً يظهرون فيه شكر الله على هذه النعمة الكبرى. انتهى نور اليقين.

ذكر مرضه ووفاته ﷺ

روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: إن عبداً خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا. قال: فعجبنا له وقال الناس: انظروا لهذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيّره الله بين أن يؤتيه الله من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا؟ قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخير ـ وكان أبو بكر أعلمنا به ـ فقال النبي ﷺ: «إن من أمن علي بصحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخوة الإسلام لا يبقى في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر»[1] وكانت هذه الخطبة في ابتداء

(1) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ حديث (3904) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أبي بكر رضي الله عنه، حديث (2382).

مرضه الذي مات فيه ولما اشتد به وجعه ﷺ قال: «مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس، قالت عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء. قال: مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس. فعاودته مثل مقالتها، فقال: إنكن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»[1] رواه الشيخان وأبو حاتم واللفظ له. وعند سالم بن عبد الله الأشجعي قال: «لما مات رسول الله ﷺ كان أجزع الناس كلهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأخذ بقائم سيفه وقال: لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ إلا ضربته بسيفي هذا. قال: فقالت الناس: يا سالم اطلب لنا صاحب رسول الله، قال: فخرجت إلى المسجد فإذا أنا بأبي بكر رضي الله عنه فلما رأيته أجهشت البكاء أي تهيأت. فقال: يا سالم أمات رسول الله ﷺ؟ فقلت: إن هذا عمر بن الخطاب يقول: لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ إلا ضربته بسيفي هذا. قال: فأقبل أبو بكر حتى دخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى فرفع البرد عن وجهه ووضع فاه على فيه واستنشى الريح ثم سجاه، والتفت إلينا فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144] وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: 30] أيها الناس: مَن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومَن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال عمر: فوالله لكأني لم أتل هذه الآيات قط»[2] رواه الترمذي. قال الحافظ ابن رجب: كان ابتداء مرضه عليه الصلاة والسلام في أواخر صفر وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً في المشهور. وفي نور اليقين: لحق بربه يوم الاثنين 13 ربيع لأول سنة 11 الموافق ليونيه سنة 633 وعمره ثلاث وستون سنة وثلاثة أيام وتقدم في صدر المقصد ذكر نسبه وولادته كانت في يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول عام حادثة الفيل ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان ويوافق العشرين من شهر إبريل سنة 571 حسبما حققه العالم الفلكي محمود باشا في رسالة سماها نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام، وقيل: لاثنتي عشرة ليلة خلت منه، وقيل: لثمان وهو اختيار أكثر أهل الحديث.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، حديث (678)، ومسلم في كتاب الصلاة باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما. . . . حديث (420).

(2) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أُدرِجَ في أكفانه، حديث (1241) (1242)، وصحيح ابن حبان: 14/ 589.

الحالة الاجتماعية على عهده ﷺ

اعلم أن الإسلام جاء قاضياً بتوحيد الله وتوحيد الاجتماع وتوحيد الأفكار وتوحيد المقاصد في عصر غلبت فيه نزغات الأهواء البشرية على النفوس ونزع الأمم كافة منازع الوثنية، فشوّه مؤمنهم وجه الدين وانحرف عن وجهة الكتاب، وأوغل كافرهم في مناحي الخيال فخلق من ضعيف التصور أشكالاً من العبادة تختلف باختلاف المنازع والأقطار، فتشكلت بأشكالها الأخلاق وتنوعت المقاصد وتخالفت الوجهة وتناكرت النفوس وتجزأت الوحدة عند كل أمة في الاجتماع والسياسة والدين، فأصبح أهل الكتاب اليهود منهم بين قرائين وربانيين وسامريين وغيرهم، والنصارى بين يعاقبة وآريوسيين ونسطوريين وما لا يعد من الفرق وغير أهل الكتاب من الأمم الأخرى بين صابئة ومجوس وبراهمة وما لا يعد من الفرق أيضاً. فكان الانقسام والتجزؤ في الاجتماع والسياسة تبعاً للنحل قائماً مع الأهواء، فباتت الدول المجاورة للعربية وهي فارس والروم وما أدراك ما فارس والروم أعرق الدول في المدنية وأقصاها غاية في التاريخ وأرهبها قوة في الأرض وأمدها ظلاً عليها أشبه بشجرة تأصلت جذورها وتسامقت فروعها في الفضاء، فجاءتها ريح عاصف تعتعت أصلها وتلاعبت بأغصانها فقصفتها قصفاً وعصفت فيها عصفاً، فزوت أفنانها وتفرقت مع الريح أغصانها، فكانت دولة الروم غرضاً ترمي إليها الأهواء بسهامها وفريسة تتنازعها العناصر المنفردة منها والأقوام المنشقة عنها والشاغبة عليها كالعرب والأرمن واليونان والرومان والصقالبة وغيرهم، ودولة الفرس كذلك تفككت أعضاؤها وتجزأت وحدتها، فاستبد عمالها بالأطراف وتنازعوا سلطان الأكاسرة وتوثبوا على الملك وتعسفوا بالحكم وظلموا الرعية، ومن ثم انحلت من تلك الأمم عرى وحدتها وتفرقت أهواء أهلها وتباينت مقاصد قادتها وزعمائها، فانزوت شموس مدنيتها وكادت تندثر من الوجود آثار الحضارة والعلم التي انتهت إلى دولتي الفرس والروم وتعود حالة البشر إلى أقبح ما كانت عليه قبل تاريخ الحضارة وبعثة الأنبياء هداة الأمم من فوضى الاجتماع وتفرق الأهواء وانحطاط المدارك والعقول ويأبى الله إلا أن يتم كلمته في خلقه ويجعل الإنسان مظهر قدرته ويديم عليه سوابغ رحمته، لهذا أرسل الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وأنزل عليه القرآن فيه هدى ونور ورحمة للعالمين لينذر به من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فامتثل محمد ﷺ أمر ربه ودعا الناس إلى دينه، دعاهم إلى توحيد الله فلا يشركون به شيئاً وإلى توحيد الاجتماع فلا يتفرقون

شيعاً ينابذ بعضهم بعضاً وإلى توحيد الأفكار فلا يجادلون في الحق وإلى توحيد المقصد فلا يتخبطهم شيطان الأهواء وتفرقهم عن الحق نزغات النفوس وإلى توحيد اللغة فلا يتناكرون وبلسان واحد يتفاهمون.

دعا أولاً أهله وعشيرته ثم قومه ثم سائر العرب ثم عامة الناس بما كتب لملوكهم الذين ينتهي إليهم أمر الهمم بل الأمم وبهم تقوم الدعوة حتى قامت لله على الناس الحجة ولله الحجة البالغة على الناس أجمعين وأجاب دعوة نبيه من أجاب وأقبل عليها من أقبل وكان جلهم من العرب الذين لم يلبثوا أن تلقوا هذا الدين حتى ظهر أثره فيهم ظهوراً يبشر بمصير السيادة على الأمم إليهم لما أصبحوا عليه من الإخاء بعد التنافر والاجتماع بعد التفرق والتوحيد بعد الشرك والتنبه بعد الغفلة والإيمان بعد الكفر والتحابب بعد التناكر يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون في الله وينصرون دينه ويقيمون حدوده ويواسون الفقير ويؤدون الحق ويرغبون في القناعة بالكفاف عما بأيدي الناس ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

على هذا الأساس قامت حياة المسلمين الاجتماعية وبتلك الأخلاق وصف الله أتباع النبي محمد ﷺ في كتابه العزيز: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110] وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: 29] وقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تمثل حالة المسلمين يومئذ تمثيلاً وتدل على مبلغ تأثير الإسلام في نفوس تلك الأمة البدوية التي أخرجها القرآن من ظلمات الفوضى والجهل إلى نور العلم والاجتماع.

الطبقة الثانية

طبقة الصحابة رضي الله عنهم

في البخاري باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ومن صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه قال الحافظ ابن حجر العسقلاني قوله أصحاب أي بطريق الإجمال ثم التفصيل أما الإجمال فيشمل جميعهم وأما التفصيل فلمن ورد فيه شيء بخصوصه وقوله أو رآه هو الراجح اهـ وقال الأبي في شرح صحيح مسلم: الصحابة كلهم عدول لظاهر الكتاب والسنة وإجماع مَن يقتدي بإجماعه. القرطبي لم يختلف السلف في أن أفضلهم أبو بكر ثم عمر. أبو منصور البغدادي أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة على ترتيبهم في الخلافة ثم تمام العشرة ثم أهل بدر ثم أهل أحد ثم بيعة الرضوان ومعنى التفضيل كثرة الثواب ورفع الدرجة وذلك لا يدرك بالقياس وإنما يدرك بالنقل اهـ باختصار ولشدة اعتناء الله تعالى بنبيه ﷺ وخصوصيته إليه وصف أتباعه في كتابه العزيز فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي القرن الذين يلوني ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»[1] وفي البخاري عن أبي سعيد قال: قال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[2] قال البيضاوي: ومعنى الحديث لا ينال أحدكم بإنفاق مثل أحد ذهباً من الفضل والأجر ما ينال أحدهم بإنفاق مد طعام أو نصيفه اهـ.

واعلم أن فضل الصحابة لا مطمع فيه لمن جاء بعدهم لأنهم حازوا قصبة

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، حديث (2532).

(2) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» حديث (3673) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، حديث (2531).

السبق بصحبته ﷺ قال ابن حجر الهيتمي في شرح الهمزية أفضلية الصحابة لا يعادلها عمل انظره عند قوله:

ليته خصني برؤية وجه زال عن كل من رآه الشقاء

وفي الاعتصام أن أصحابه ﷺ كانوا مقتدين به مهتدين بهديه وقد جاء مدحهم في القرآن العظيم وأثنى على متبوعهم ﷺ الذي كان خلقه القرآن العظيم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 4] فالقرآن إنما هو المتبوع في الحقيقة وجاءت السنة مبينة له فالمتبع للسنة متبع للقرآن، والصحابة كانوا أولى الناس بذلك فكل من اقتدى بهم فهو من الفرقة الناجية الداخلة للجنة بفضل الله وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أنا عليه وأصحابي» فالكتاب والسنة هو الطريق المستقيم وما سواهما من الإجماع وغيره فناشيء عنهما هذا هو الوصف الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وهو معنى ما جاء في الرواية الأخرى من قوله «وهي الجماعة» لأن الجماعة في وقت الاخبار كانوا على ذلك الوصف إلا أن في لفظ الجماعة معنى ستراه بعد إن شاء الله. وفي الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة ويد الله مع الجماعة ومَن شذّ شذّ إلى النار»[1] وأخرج أبو داود عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»[2] وعن عرجفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في أمتي هنات وهنات[3]، فمَن أراد أن يفرق أمر المسلمين وهم جمع فاضربوه بالسيف كائناً من كان»[3] واختلف الناس في معنى الجماعة المرادة في هذه الأحاديث على خمسة أقوال:

الأول: إنها السواد الأعظم من أهل الإسلام وهو الذي يدل عليه كلام أبي غالب أن السواد الأعظم هم الناجون من الفرق بما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق ومن خالفهم مات موتة جاهلية سواء خالفهم في شيء من الشريعة أو في

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن باب ما جاء في لزوم الجماعة حديث (2173) من رواية ابن عمر. وقال الترمذي: هذا الحديث غريب من هذا الوجه وفي سنده سليمان المدني، قال ابن المديني: روى أحاديث منكرة وقال النسائي: ليس بثقة. انظر عنه تهذيب التهذيب: 4/ 170.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب في قتل الخوارج حديث (4758).

(3) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، حديث (1852) المراد بهنات وهنات: الفتن والأمور الحادثة، وأبو داود في كتاب السنة باب في قتل الخوارج حديث (4762).

إمامهم وسلطانهم فهو مخالف للحق قال بهذا أبو مسعود الأنصاري وابن مسعود فروي أنه لما قتل عثمان سئل أبو مسعود الأنصاري عن الفتنة فقال: عليك بالجماعة فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة واصبر حتى تستريح أو يستراح من جائر، وقال: وإياك والفرقة فإن الفرقة هي الضلالة. وقال ابن مسعود: عليكم بالسمع والطاعة فإنها الحبل الذي أمر به ثم قبض يده وقال: إن الذي تكرهون في الجماعة خير من الذين تحبون في الفرقة. وعن الحسين قيل له: أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ فقال: أي والذي لا إله إلا هو ما كان ليجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة. فعلى هذا القول يدخل في الجماعة مجتهدو الأمة وعلماؤها وأهل الشريعة العاملون بها ومَن سواهم داخلون في حكمهم لأنهم تابعون لهم ومقتدون بهم فكل مَن خرج عن جماعتهم فهم الذين شذوا وهم نهبة الشيطان ويدخل في هؤلاء جميع أهل البدع لأنهم مخالفون لمن تقدم من الأمة لم يدخلوا في سوادهم بحال.

الثاني: إنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين فمن خرج عما عليه علماء الأمة مات ميتة جاهلية لأن جماعة الله العلماء جعلهم الله حجة على العالمين وهم المعنيون بقوله ﷺ: «لن تجتمع أمتي على ضلالة» وذلك أن العامة عنها تأخذ دينها وإليها تفزع في النوازل وهي تبع لها فمعنى قوله «لن تجتمع أمتي»[1] لن يجمع علماء أمتي على ضلالة وممن قال بهذا عبد الله بن المبارك وإسحاق بن راهويه وجماعة ممن سلف وهو رأي الأصوليين، قيل لعبد الله بن المبارك: مَن الجماعة الذين ينبغي أن يقتدى بهم؟ فقال: أبو بكر وعمر، ولم يزل يحسب حتى انتهى إلى محمد بن ثابت الحسين بن واقد فقيل: هؤلاء ماتوا فمن الأحياء؟ فقال: حمزة العسكري، فعلى هذا القول لا مدخل في النوازل بل في السؤال عمن ليس بعالم مجتهد لأنه داخل في أهل التقليد فمَن عمل منهم بما يخالفهم فهو صاحب الميتة الجاهلية ولا يدخل أيضاً أحد من المبتدعين لأن العالم لا يبتدع وإنما يبتدع مَن ادعى لنفسه العلم وليس كذلك ولأن البدعة قد أخرجته عن نمط من يعتمد بأقواله وهذا بناء على القول بأن المبتدع لا يقتدى به في الإجماع وإن قال بالاقتداء به ففي غير المسألة التي ابتدع لأنهم في نفس البدعة مخالفون للإجماع فعلى كل تقدير لا يدخلون في السواد الأعظم رأساً.

---

(1) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير من رواية ابن عمر (13623) 12/ 447 مكتبة العلوم والحكم، ط2 ص1983.

الثالث: إن الجماعة هي الصحابة على الخصوص فإنهم الذين أقاموا عماد الدين وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أصلاً وقد يمكن فيمن سواهم. ألم تر قوله عليه السلام: «ولا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله»[1] وقوله: «ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»[2] فقد أخبر عليه السلام أن من الأزمان زماناً يجتمعون فيه على ضلالة وكفر قالوا: وممن قال بهذا عمر بن عبد العزيز فروى ابن وهب عن مالك قال: كان عمر بن عبد العزيز يقول: سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر فيما خالفها من اهتدى بها مهتد ومن انتصر بها منصور ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً. قال مالك: فأعجبني عزم عمر. فعلى هذا القول فلفظ الجماعة مطابق للرواية الأخرى في قوله عليه السلام: «ما أنا عليه وأصحابي»[3] فكأنه راجع لما قالوه وما سنوه وما اجتهدوا فيه حجة على الإطلاق وبشهادة رسول الله ﷺ بذلك خصوصاً في قوله: «فعلكيم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين» وأشباهه أو لأنهم المتلقون لكلام النبوة المهتدون للشريعة الذين فهموا أمر دين الله بالتلقي من نبيه مشافهة على علم وبصيرة بمواطن التشريع وقرائن الأحوال بخلاف غيرهم فإذا كل ما سنوه فهو سنة من غير نظر فيه بخلاف غيرهم فإن فيه لأهل الاجتهاد مجالاً للنظر رداً وقبولاً فأهل البدع إذاً غير داخلين في الجماعة قطعاً على هذا القول.

الرابع: إن الجماعة هي جماعة الإسلام إذا أجمعوا على أمر فواجب على غيرهم من أهل الملل اتباعهم وهم الذين ضمن الله لنبيه عليه السلام أن لا يجمعهم على ضلالة فإن وقع بينهم اختلاف فواجب تعرف الصواب فيما اختلفوا فيه. قال الشافعي: الجماعة لا تكون فيها غفلة عن معنى كتاب الله ولا عن سنّة ولا قياس وإنما تكون الغفلة في الفرقة وهذا القول يرجع إلى الثاني وهو يقتضي أيضاً ما يقتضيه أو يرجع للقول الأول وهو الأظهر وفيه من المعنى ما في الأول من أنه لا بد

(1) أخرجه الحاكم في مستدركه بلفظ آخر، حديث (8535) 4/ 548، دار الكتب العلمية 1990.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الفتن باب قرب الساعة حديث (2949) من رواية عبد الله بن عمر، وابن حبان في صحيحه حديث (6850) 15/ 264 مؤسسة الرسالة، ط2 س1993م.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، حديث (2650) من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديث مُفَسَّرٌ غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه. والحديث طويل ذكر منه هنا جزءاً صغيراً ومختصراً.

من كون المجتهدين فيهم وعند ذلك لا يكون مع اجتماعهم على هذا القول بدعة أصلاً فهم إذاً الفرقة الناجية.

الخامس: ما اختاره الإمام الطبري من أن الجماعة جماعة المسلمين إذا أجمعوا على أمير فأمر عليه السلام بلزومه ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم ثم نقل ما يؤيد ما ذهب إليه وحاصله أن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة. ثم قال: فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع وأنهم المرادون بالحديث فلتأخذ ذلك أصلاً. اهـ اعتصام ببعض اختصار.

فصل
في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ونبذة من فضائله

تقدم ذكر نسبه في أول المقصد وسماه رسول الله ﷺ عبد الله وصديقاً لأنه بادر بتصديق النبي ﷺ ولقبه عتيقاً لجمال وجهه أو لأن رسول الله ﷺ قال له: «أنت عتيق من النار» كما في حديث رواه الترمذي، فهو الصاحب في الغار وفي السر والجهار في الليل والنهار والسابق الأول في الإسلام لم يعبد صنماً قط توفيقاً من الله وفطرة فطره الله عليها ولا شرب الخمر قط، والمقدم للصلاة في الحياة النبوية والذي قدّم نفسه وماله كله لله، والخليفة الأول بعده بإجماع مَن يعتد به، والذي أنقذ الإسلام بعد الوفاة النبوية بعلمه وتوفيقه وعدله وصرامته في الحق أنفذ وصايا رسول الله ﷺ كان قوّالاً بالحق صادعاً بالأمر سالكاً سبيل الصدق غير مائل ولا متجاف قائماً بالعدل لا تأخذه في الله لومة لائم عفيفاً لم يستأثر بحال ولا مال قط عن سنن الرسول، وكان يوليه الرسول إمرة الجيوش موصوفاً بأصالة الرأي خطيباً مصقعاً، وقد وجهه عليه السلام أمير الحاج سنة تسع ولا يوجه إلى هذه الوظيفة إلا من كان بالمكانة العليا فقهاً وإفتاء ليعلمهم مناسكهم ويفتيهم فيما لم يعلموا. قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذي عن حذيفة «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر» الحديث. قال أبو سعيد الخدري: كان أبو بكر أعلمنا. وقال الأبي في شرح مسلم: هو أول من أسلم من الرجال ثم أسلم على يديه من العشرة المشهود لهم بالجنة عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمٰن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وجملة ما حفظ عنه من الأحاديث مائة واثنان وأربعون حديثاً في الصحيحين منها ثمانية عشر القرطبي ومن المقطوع به أنه حفظ من الأحاديث ما لم يحفظ غيره وحصل له من العلم ما لم يحصل لغيره لأنه الصفي والملازم في الحضر والسفر والليل والنهار

وإنما لم يتفرغ للحديث والرواية لاشتغاله بالأهم ولأن غيره قام عنه بذلك اهـ أجمعت الأمة أنه هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الليل: 17] قال الفخر الرازي: إذا ضمت هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13] أنتج لنا أنه أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ. وقد ذكر البخاري واحداً وعشرين حديثاً في فضائله منها: «ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»[1] وتقدم نصه قريباً. وأخرج عبد الرحمٰن بن حميد في مسنده وأبو نعيم وغيرهما «ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر إلا أن يكون نبياً».

قد علم مما تقدم قريباً أنه اقتضت حكمة هذا الدين أن يكون الخليفة رئيسه الديني والسياسي لذا كان أول مقاصد المسلمين وأهل السابقة والمهاجرين بعد وفاة النبي ﷺ واجتماع المسلمين على كلمة التوحيد متوجهاً إلى وجوب نصب خليفة يجمع الأمة الإسلامية على كتاب الله وسنة رسوله ويأخذ بالقوة على ذوي العبث بالنظام لأنهم اختلفوا فيمن يولونه هذا الأمر اختلافاً ليس فيه ما ينافي المصلحة الإسلامية بل غايتها تمحيص الفكر ومحض النصيحة فيمن تجتمع على تأميره كلمة الجمهور الأعظم من المسلمين ليكون أثبت قدماً في الخلافة وأشد حجة على المخالفين فاختاروا لهذا المنصب الرفيع أبا بكر رضي الله عنه وقالوا: نرضى لدنيانا ما رضيه ﷺ لديننا حيث قال: «مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس» وخلاصة القول في انعقاد البيعة له رضي الله عنه أنه بينما كان الناس مشتغلين بوفاة النبي ﷺ وتجهيزه ودفنه جاء مخبر فأخبر باجتماع الأنصار بسقيفة بني ساعدة بقصد المفاوضة في شأن الخلافة وأسرع إليهم أبو بكر وعمر وجماعة من المهاجرين ليتداركوا هذا الأمر قبل افتراق الكلمة، فأتوا الأنصار وقد اجتمعوا بالسقيفة لمبايعة سعد بن عبادة فأعجلهم المهاجرون عن أمرهم وغلبوهم عليه وتكلم يومئذ أبو بكر فأدلى بالحجة. وكان مما قاله: «يا معشر الأنصار إنكم لا تذكرون فضلاً وإلا وأنتم له أهل وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لقريش هم أوسط العرب داراً ونسباً وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين» وأخذ بيد عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح. فكثر حينئذ اللغط بين الأنصار ومنهم بشير بن سعد يرون رأي المهاجرين بجعل الخلافة في قريش وأن

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب الخوخة والممر في المسجد، حديث (467) رواه المصنف هنا مختصراً من رواية ابن عباس. ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، حديث (532) من رواية جندب رضي الله عنه.

الأمر إذا أجل النظر فيه ربما صعب حله، فقام إلى أبي بكر وقال: ابسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعه وبايعه عمر وسائر الناس.

في البخاري عن إسماعيل بن عبد الله مرفوعاً إلى عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح ـ قال إسماعيل: تعني بالعالية ـ فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ. قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم. فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبّله، فقال: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً، والله الذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً، ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك. فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا مَن كان يعبد محمداً فإن محمداً ﷺ قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ قال: فنشج الناس يبكون. قال: واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منا أمير ومنكم أمير. فذهب إليهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أنني قد هيأت كلاماً قد أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر. ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حباب بن المنذر: ألا والله لا نفعل منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء هم أوسط العرب داراً وأعرفهم أحساباً، فبايعوا عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح. فقال عمر: بل نبايعك أنت فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس. فقال قائل: قتلتم سعد بن عبادة. فقال عمر: قتله الله».

البيعة هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه سلم له النظر في أمر نفسه وفي أمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره. في صحيح مسلم «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره على أن لا أثرة علينا وعلى أن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم».

خطبة أبي بكر[1] رضي الله عنه

لما استقرت الخلافة لأبي بكر صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوِّموني، الصدق أمانة والكذب خيانة والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق إن شاء الله، لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله.

هذا كلام صدر من أول خليفة في الإسلام يمثل معنى الرئاسة العامة في الإسلام تمثيلاً تستكن أمامه القلوب التي اشرأبت إلى حب العدل.

الكلام على جيش أسامة[2] رضي الله عنه

أول جيش بعثه أبو بكر رضي الله عنه جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما الذي كان جهزه رسول الله ﷺ وتوفي قبل بعثه وارتدّت العرب حول المدينة بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وقبل بعثه اجتمع أصحاب النبي ﷺ وقالوا لأبي بكر رضي الله عنه رد هذا الجيش كيف توجه هؤلاء وقد ارتدت العرب حول المدينة فأجابهم بقوله: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تخطفني ما رددت جيشاً جهزه رسول الله ﷺ ولا حللت له لواء. وكأن بعض الصحابة استصغر أسامة أمير الجيش وقالوا لعمر رضي الله عنه: امض إلى أبي بكر وأبلغه عنا واطلب منه أن يولي أمرنا أقدم سناً من أسامة. فلما بلغه عمر ذلك قال له: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله؟ ثم خرج أبو بكر للجيش وأشخصهم وشيّعهم وهو ماش وأسامة راكب. فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله لا نزلتَ ولا ركبتُ وما عليّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله. فلما أراد أن يرجع أوصى أسامة ومَن معه فقال: لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا

---

(1) ترجم له في صفة الصفوة: 1/ 97 ـ 110، أسد الغابة 5/ 37 رقم 5730، الإصابة: 4/ 101 ـ 104، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص21 ـ 85.

(2) ترجم له في صفة الصفوة لابن الجوزي: 1/ 227، تهذيب التهذيب لابن حجر: 1/ 208.

لأكله. فسار أسامة فجعل لا يمر بقبيلة يريدون الارتداد إلا قالوا لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوهم فهزموهم وأغار أسامة على ابني موضع في الجنوب الغربي من الشام وغنم وعاد بعد أربعين يوماف وقيل بعد سبعين يوماً. وهذا يدل على علو كعب أبي بكر رضي الله عنه في السياسة وبعد نظره في مهمات الأمور فإنه ظهر به للعرب بمظهر القوة واستهان بإنفاذه بخطب الردة فنفث في روع العرب روح الرهبة فكانوا بين مقبل على الردة ومدبر عنها ومتردد بين الأمرين.

فصل
الكلام على أهل الردة وقتالهم

اعلم أن من أعظم فضائل أبي بكر رضي الله عنه قتال العرب الذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ والذين منعوا الزكاة وقال والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف بيدي وإن منعوني عقالاً أو عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ. فقال له عمر رضي الله عنه: وكيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمَن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله تعالى» فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله لأقاتلن مَن فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال وقد قال «إلا بحقها» قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق[1]. قال الشيخ محيي الدين بن العربي في المسامرة: لما توفي رسول الله ﷺ وطلب أبو بكر رضي الله عنه الزكاة كفر بها قوم وقالوا: قد كنا ندفع أموالنا إلى محمد فما بال ابن أبي قحافة يسألنا! والله لا نعطيه منها شيئاً أبداً. فاستشار أبو بكر أصحاب رسول الله ﷺ فأجمع القوم على التمسك بدينهم في أنفسهم وأن يتركوا الناس مع ما اختاروه لأنفسهم، وتخيلوا أنهم لا يقدرون على من ارتد من المسلمين فقال أبو بكر رضي الله عنه: لو لم أجد أحداً يؤازرني لجاهدتهم بنفسي وحدي حتى أموت أو يرجعوا إلى الإسلام، ولو منعوني عقالاً مما كانوا يعطونه رسول الله ﷺ لجاهدتهم حتى ألحق بالله تعالى. فلم يزل أبو بكر رضي الله عنه يجاهد بأصحاب رسول الله ﷺ حتى عاد الناس جميعاً إلى الإسلام ودخلوا فيه كما خرجوا منه.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نُسبوا إلى الردّة، حديث (6924) (2625)، وابن حبان في صحيحه حديث (217) 1/ 450 مؤسسة الرسالة 1993 بيروت ط2.

نهض رضي الله عنه بعزيمة ماضية، وحكمة سامية، ونهض لنهضته رجال قريش فاستقبلت بصدورها حوادث الردة المريعة ونيرانها المتأججة، وأخذت على عاتقها استخضاع العرب وقد ارتدت قبائلها عامة وخاصة إلا ثقيفاً وقريشاً فاقتحمت رجالات قريش بالمهاجرين والأنصار وثقيف وبعض الأحلاف ذلك العجاج الذي يرتج بأهل الردة ارتجاجاً وخاضت بخيلها ورجلها حروب القوم بحراً أجاجاً. ولم يلبث أبو بكر رضي الله عنه أن أطفأ نيران الردة برجال قريش وأمثالهم حتى رمى بهم جيوش القياصرة وجنود الأكاسرة وتابعه على ذلك عمر رضي الله عنه فكان من قوادهما في استخضاع تلك الجيوش الجرارة وتدويخ تلك الممالك العظيمة الشاسعة التي شيدت فيها صروح الإسلام وذكر على منابرها اسم محمد عليه الصلاة والسلام منهم خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وأخوه معاوية وعياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهري وسعد بن أبي وقاص وأضرابهم من صناديد قريش ورؤسائها الذين ذللوا الصعاب وقطعوا من العقبات ولاقوا من الأهوال، ما لا يحلم بذكره إنسان، ولا يدانيهم فيه من مشاهير العالم مدان. كما سترى إن شاء الله.

بلغ بعزيمة أبي بكر رضي الله عنه وعظيم رأيه بعد إذ رأى ما أصاب المسلمين من الغم أن آلى على نفسه أن لا يدع العرب يقر لهم قرار إلا والسيف آخذ برقابهم والإسلام ضارب بينهم بجرانه. وبينما هو يطاول في الأمر انتظاراً لرجوع أسامة وجيشه أعجلته عبس وغطفان وأسد وطيىء، وكان بعضهم نازلاً بذي القصة وبعضهم بالأبرق فأرسلوا إليه وفداً يبذلون الصلاة ويمتعون الزكاة فردهم خائبين فرجعوا وأخبروا القوم بقلة المسلمين وضعفهم وقد غرتهم كثرتهم وأعماهم الجهل عن أن مع المسلمين قوة الإيمان واليقين وفيهم من الصناديد وليوث الحرب الشجعان مثل عمر وعلي وطلحة والزبير الذين لا يفل لهم حد ولا يدرك لهم جد خشي أبو بكر بعد مسير الوفد من البيات فجعل على أنصار المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود وأمرهم بملازمة المسجد خوف إغارة من العدو فما لبثوا ثلاثاً حتى طرق العدو المدينة غارة ليلاً وخلفوا بعضهم بذي حسى ليكونوا لهم ردءاً. فوافوا ليلاً الأنقاب وعليها المقاتلة فمنعوهم وأرسلوا إلى أبي بكر فخرج بالمسلمين على النواضح فردوا العدو واتبعوهم حتى بلغوا ذا حسى فخرج عليهم أهل الردة بأنحاء قد نفخوها وفيها الحبال ثم دهوها على الأرض فنفرت إبل المسلمين وهم عليها ورجعت بهم إلى المدينة ولم يصرع أحد منهم ثم خرج أبو بكر ليلاً على تعبئة فما طلع الفجر إلا وهم والعدو على صعيد واحد فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا

فيهم السيوف فولوا الأدبار واتبعهم أبو بكر رضي الله عنه حتى نزل بذي القصة وكان أول الفتح ووضع فيها النعمان بن مقرن في عدد ورجع للمدينة، وقدم في أثناء ذلك أسامة بن زيد بجيش المسلمين فاستخلفه أبو بكر على المدينة وجنده معه ليستريحوا ويريحوا ظهورهم ثم خرج فيمن كان معه فقام عليه علي والمسلمون وناشدوه الله ليقيم فأبى وقال: والله لأواسينكم بنفسي. وصار إلى ذي حسى وذي القصة حتى نزل بالأبرق فقاتل من به فهزمهم وغلب على بني ذبيان وبلادهم وحماها لدواب المسلمين ثم رجع للمدينة. فلما استراح أسامة وجنده بادر أبو بكر رضي الله عنه إلى تسيير الجيوش إلى أهل الردة فعقد أحد عشر لواء.

الأول: لخالد بن الوليد وأمره بطليحة الأسدي ومالك بن نويرة.

والثاني: لعكرمة بن أبي جهل وسيّره لمسيلمة.

والثالث: للمهاجر بن أبي أمية المخزومي القرشي وأمره بجنود العنسي في اليمن ومعونة الأبناء على قيس ثم يمضي إلى كندة بحضرموت.

الرابع: لخالد بن سعيد بن العاص وبعثه إلى مشارف الشام.

الخامس: لعمرو بن العاص القرشي وأرسله إلى قضاعة.

السادس: لحذيفة بن محصن وأمره بأهل دبا.

السابع: لعرجفة بن هرثمة الأزدي وأمره بمهرة.

الثامن: لشرحبيل ابن حسنة حليف بني زهرة وأرسله في إثر عكرمة بن أبي جهل وإذا فرغ يلحق بقضاعة.

التاسع: لمعن بن جابر السلمي وأمره ببني سليم وهوازن.

العاشر: لسويد بن مقرن وأمره بتهامة.

الحادي عشر: للعلاء بن الحضرمي حليف بني أمية ووجهه إلى البحرين.

سيّر أبو بكر رضي الله عنه هؤلاء الأمراء وكتب لهم عهداً كما كتب للمرتدين تركنا ذكرهما اختصاراً. ثم انتهت حروب الردة بعد تذليل عقبات وأهوال في أخبار طوال بانتصار جيوش المسلمين في كل الوقائع انتصاراً باهراً وذهبت دعوة النبوة التي ظهرت بين العرب كأمس الدابر وهي التي ادعاها أربعة رجال وامرأة على عهد الرسالة إلى نهاية أيام الردة وهم: الأسود العنسي في اليمن، وطلحة في أسد وغطفان، ومسيلمة في بني حنيفة، ولقيط بن زرارة في عمان، وسجاح في أخوالها من بني بكر ورهطها من بني تميم. ورجع العرب للركون بعد أن علموا أن الإسلام

يعلو ولا يعلى عليه وأن المسلمين قوم نصروا الله فنصرهم على أعدائهم ومكن لهم السلطان في الأرض وحصل لهم بذلك سعادة الدنيا والآخرة.

لا ينكر ما لأبي بكر رضي الله عنه من حسن الاختيار بمن ولاهم حروب الردة من القواد العظام الذين أمعنوا بجيوش المسلمين القليلة في أحشاء بلاد العرب وجابوا أنحاءها القاصية حتى بلغوا مشارف الشام والجزيرة شمالاً وشطوط البحر الهندي جنوباً والعراق العربي وخليج فارس شرقاً وشطوط البحر الأحمر ومضيق باب المندب غرباً. ولم تكن غيبتهم إلا كما يغيب المرتاد للمناجع ثم انقلبوا ظافرين وقد عمموا في جزيرة العرب دعوة القرآن وجمعوا سكانها على كلمة الإيمان ونتج عن ذلك أن وقعت هيبة الإسلام في قلوب العرب وأيقنوا أنه الدين الحق الذي لا يفلح مناوئه ولا ينجح شانئه. فأقبلوا بأجمعهم إليه، وجمعوا كلمتهم المتفرقة عليه.

ثم التفت أبو بكر رضي الله عنه للفتوحات ورأى أن لا يدع لبعض المنافقين الذين لا يروق لهم سمو شأن الإسلام وقتاً لدس سموم الفتنة في جسم تلك الأمة العظيمة التي جمعتها كلمة الإسلام وأن يشغلهم مع الجيوش الإسلامية بالفتح تعميماً للدعوة الإسلامية وبثاً لروح العدل والحرية بين الأمم، فما هو إلا أن ولج بالعرب هذا الباب حتى انكفؤوا على الأمم التي مزقت أحشاءها سيوف الأهواء والأوهام وقضى على مجدها القديم ظلم أرباب السيطرة على النفوس والأجسام فلم يلبث أن وافاها المسلمون يحملون لفريق أهل الكتاب منها ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ولفريق الصابئة ومَن على نحلتهم من المشركين الإسلام أو الجزية أو السيف حتى اشرأبت لعدل سلطانهم أعناق الناس ودانت لدينهم الشعوب وخضعت لسلطانهم فعمروا المسالك وشادوا الممالك ومصروا الأمصار وكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون القسطاس ويأخذون من أنفسهم للمظلوم حتى يرضى كما يأخذون على الظالم متى يتعدى.

أول ما التفت إليه أبو بكر رضي الله عنه فتح العراق والذي حركه لذلك هو البطل الجليل المثنى بن حارثة بن ضمضم الشيباني بن بكر بن وائل وهو ممن لم يتابع بكراً على ردتها وبقي وقومه على الإسلام وسهل إليه الأمر ورغّبه بغزوهم فكتب إليه أبو بكر رضي الله عنه عهداً وسار إلى بلاده ثم إن أبا بكر رضي الله عنه استدعى خالد بن الوليد في اليمامة سنة 12 وأمره بالمسير إلى العراق وأن يبدأه من أسفله وكتب إلى عياض بن غنم الفاتح الشهير الذي كان على يده فتح الجزيرة

وأرمينيا أن يأتي العراق من أعلاه ويسير حتى يلقى خالداً وأوصى أبو بكر خالداً وعياضاً رضي الله عنهم أن لا يضرا بفلاحي العراق وأهل السواد حرصاً منه على منابع الثروة وعلماً بأن العمران لا تقوم بدونه الدولة والفلاحة كما لا يخفى مصدر حياة الناس وتقدمها أساس عمران الممالك. لما سار خالد إلى العراق كان معه من الجند عشرة آلاف واستقبله المثنى بثمانية آلاف ثم أمدّ أبو بكر خالداً بالقعقاع بن عمرو بطل المسلمين المغوار فقيل له أتمده برجل واحد فقال: لا يهزم جيش فيه مثل هذا. وأمدّ عياضاً بعبد يغوث الحميري وكتب إلى المثنى يأمره بالسمع والطاعة لخالد وأمر مذعوراً بن عدي العجلي أن ينضم مع قومه إلى خالد وكذلك سويد بن قطبة الذهلي من بكر وائل واستنفر رضي الله عنه العرب وأذن لعامتهم بالانضمام إلى جيوش الفتح، وكان لزعماء الردة منهم ـ كطليحة الأسدي وعمرو بن معدي كرب والسمط بن الأسود الكندي والأشعث بن قيس وأمثالهم ـ البلاء الحسن في فتوح العراق والشام والإخلاص العظيم في إعلاء كلمة الإسلام ومعظمهم استشهد في أيام الفتوح.

واختلف المؤرخون في أول بلد قصده خالد فقيل الأبلة وقيل الحيرة وإن الأبلة كان على عهد عمر رضي الله عنه وعليه فالحيرة هي أول فتح بعد وفاة النبي ﷺ ثم إن خالداً بعد أن استخضع أهل الحيرة وقضى على دولة المناذرة التي كانت تحكم العراق من قبل الأكاسرة وقاعدتها الحيرة وأتم فتح العراق العربي بلداً بلداً وكان كلما فتح فتحاً وتوفرت لديه الغنائم يبعث بالخمس إلى أبي بكر مع خبر الفتح. ثم انصرف خالد بعد هذا الفتح إلى الشام واستخلف المثنى بن حارثة على جند العراق.

لما انتهى فتح العراق العربي وجاس المسلمون خلال ديار الفرس واستقر لهم في تخوم فارس الملك والسلطان واتخذوا بها الثغور يدخرون بها معدات القوة للإجهاز على ممالك الفرس انصرفت همة أبي بكر رضي الله عنه إلى الشام التي هي مركز التجارة بين الشرق والغرب ومدخر الخيرات، وكانت الشام يومئذ تابعة لمملكة الروم وكان سلطانهم في تقلص ونفوذهم في اضمحلال ولما توجهت أنظاره إلى فتحها استنفر المسلمين من أطراف البلاد العربية وأخذوا يفدون عليه من كل فج ويعسكرون بالجرف قرب المدينة، وفي مستهل صفر سنة 13 عقد ألوية فلواء ليزيد بن أبي سفيان ووجهه إلى البلقاء ولواء لعمرو بن العاص ووجهه لفلسطين ولواء لشرحبيل ابن حسنة ووجهه إلى الأردن ولواء لأبي عبيدة بن الجراح ووجهه إلى حمص وكان العقد في بدء الأمر لكل أمير على ثلاثة آلاف فلم يزل أبو بكر يتبعهم

الإمداد حتى صار مجموعهم أربعة وعشرين ألفاً ساروا ولهم قوة العزيمة والصبر والاعتماد على الله في السر والجهر وعدم المبالاة بالحياة في سبيل إعلاء كلمة الدين ونصرة الإسلام والتعفف عما بأيدي الناس وحماية المال والنفس وإطلاق الحرية في العوائد والدين وأضف إلى هذا ما يصاحب أولئك المجاهدين من حسن الرأي بمَن يصاحبهم من رجال الإسلام وأقطاب السياسة والحرب يومئذ كعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح ومعاوية ويزيد ابني أبي سفيان رضي الله عنهم ومن ورائهم مثل أبي بكر رضي الله عنه يمدهم بالرأي ويتابع النصائح وحسبهم من وصاياه وصيته ليزيد المذكور التي تعجز أقطاب السياسة وتنفع قادة الجيوش وساسة الأمم في كل عصر، أوصاه بها لما شايعه ماشياً كما أوصى سائر الأمراء، ونصها:

«إني قد وليتك لأبلوك وأجربك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإن أسأت عزلتك فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي يرى من ظاهرك وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله وقد وليتك عمل خالد بن سعيد فإياك وعبية الجاهلية فإن الله يبغضها ويبغض أهلها وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً وأصلح نفسك يصلح لك الناس وصل الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ولا تريثهم فيروا خللك ويعلموا عملك وأنزلهم في ثروة عسكرك وامنع من قبلك من يحادثهم وكن أنت المتولي لكلامهم ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك واسهر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عنك الأستار وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك وأكثر مفاجآتهم في محارسهم بغير علم منهم بك فمَن وجدته غفل عن حرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط واعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسر لهما لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجن فيها ولا تسرع إليها ولا تخذلها مدفعاً، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ولا تجسس عليهم فتفضحهم: ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتفِ بعلانيتهم، ولا تجالس العبّاثين وجالس أهل الصدق والوفاء وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له اهـ.

لما سار أمراء الأجناد المتقدم ذكرهم وكتبوا إلى هرقل عظيم الروم يدعونه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب ـ وهو يومئذ بالقدس ـ جمع له البطارقة وكبار القواد وشاورهم في أمر المسلمين وأشار عليهم بصلحهم فأبوا عليه إلا الحرب، ولما لم يوافقوه على رأيه أخذ في إعداد الجنود والعدة وأرسل لكل أمير جيشاً ليشغل كل طائفة من المسلمين بطائفة من قومه. أما أمراء المسلمين فإنهم أوغلوا بجيوشهم في أحشاء البلاد ولهم وقائع كثيرة قبل وقعة اليرموك كوقعة مرج الصفر على وزن سكر ووقعة أجنادين التي بشر أبو بكر بظفر المسلمين فيها وهو بآخر رمق ووقعة العربة من فلسطين وبصرى وحوران وغيرها.

اقتحم المسلمون بجيوشهم البلاد اقتحام المجربين في الحرب العارفين بمواقع الخطر الواقفين على عورات العدو الخبيرين بطرق البلاد، فإنهم أوغلوا في جنوب الشام على شكل مثلث متقارب الخطوط رأسه في البلقاء مع يزيد بن أبي سفيان مما يلي الحجاز وطرفا الواحد في الجنوب الغربي في فلسطين وهو مع عمرو بن العاص والآخر في الجنوب الشرقي في حوران وهو مع أبي عبيدة بن الجراح وفي الوسط بميلة إلى الغرب وهو مع شرحبيل وهو في الأردن بحيث يمد بعضهم من بعض بقرب ومن ورائهم يزيد يحفظ خط الرجوع ويديم النظر في طرق المواصلات على هاته الصفة افتتح كل أمير ما مر عليه من البلاد صلحاً أو حرباً حتى أخذت الصيحة الروم من كل مكان فانتبهوا من غفلتهم فضرب هرقل البعث على العرب الذين هم تحت حمايته والروم فاجتمع لديه منهم زهاء مائة وخمسين ألفاً ولما تفرق المجاهدون في البلاد وراعهم ما جمعه هرقل من الجموع استشاروا عمرو بن العاص فأشار عليهم بالاجتماع فاجتمع الأمراء والجيوش باليرموك وكتبوا إلى أبي بكر رضي الله عنه فأمدهم بخالد بن الوليد ولما وصل تأمر عليهم ورتب الجيوش ترتيباً على غاية من النظام وتعبئة يعجز عنها حذّاق الأمراء ثم نشب القتال بين الفريقين وكانت حركة عظيمة انجلت عن انكسار الروم وانهزامهم شر هزيمة بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة وأصيب من المسلمين بين قتيل وجريح زهاء الثلاثة آلاف فيهم من وجوه المهاجرين وجلة قريش عدد كبير منهم عكرمة بن أبي جهل وابنه وسعيد بن الحارث بن قيس بن عدي وخالد بن سعيد وهم ممن أبلى بهذه الحرب ومنهم أبو سفيان بن حرب ذهبت فيها عينه وبينما هم في اليرموك في أشد حالات الحرب قدم البريد بخبر وفاة أبي بكر وتولية عمر رضي الله عنهما ومعه أمر بعزل خالد وتأمير أبي عبيدة فكتم هذا الخبر على المسلمين ريثما تضع الحرب أوزارها وتولى الروم أدبارها. وقد اختلف المؤرخون هل جاء الخبر بموت أبي بكر

والمسلمون في اليرموك أو على دمشق كما اختلفوا هل فتح شيء من الشام قبل اليرموك في خلافة أبي بكر رضي الله عنه أو لا. ومما لا ريب فيه أن جيوش المسلمين لما أوغلت في القسم الجنوبي من الشام افتتحت كل ما مرت عليه من البلاد وربما بلغت حمص شمالاً، إلا أن انجلاءهم بعد عن البلاد وتقهقرهم لليرموك جعل ذلك الفتح الأول كأن لم يكن لانتقاض البلاد بعد خروج المسلمين عنها وعدم استطاعتهم ترك الحامية فيها لقلة عددهم وكثرة جنود عدوهم، لهذا عوّل المؤرخون في سياق أخبار الفتح على ما كان منه بعد اليرموك في خلافة عمر رضي الله عنه. وفي كلا الحالين فإن الفتح الحقيقي للديار الشامية تم في زمن عمر. ولأبي بكر الفضل العظيم في سبقه إليه وإعداده مثل جيش اليرموك له، وأما عزل خالد بن الوليد فالأصح أنه جاء وهم على دمشق كما سترى بعد إن شاء الله. واختلف في اليرموك هل كانت قبل وقعة أجنادين أو بعدها واليرموك من عمل الأردن وهو واد بناحية الشام وأجنادين من عمل فلسطين.

فصل

كان أبو بكر رضي الله عنه كثيراً ما يعمل بما يشير به علي رضي الله عنه عند بعث الجنود ولا يأذن له في الخروج مع المجاهدين حرصاً على بقائه معه للانتفاع برأيه ومشورته، وكذلك لم يأذن في الخروج لعمر وعثمان رضي الله عنهما للاستعانة بكل منهما على تدبير أمور المسلمين ولا يفعل شيئاً إلا بعد مشورتهم مع غيرهم من وجوه أصحاب النبي ﷺ.

وكان رضي الله عنه من العلم بقوانين الشريعة والخبرة بوجوه السياسة في منزلة لا يطاولها سماء ومع هذا لا يبرم أمراً في حادثة إلا بعد أن تتداولها آراء الجماعة من الصحابة. أخرج البغوي عن ميمون بن مهران قال: كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر سنة قضى بها فإن أعياه خرج يسأل المسلمين وقال أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى في ذلك بقضاء فربما اجتمع إليه النفر كلهم يذكر من رسول الله ﷺ فيه قضاء فيقول أبو بكر: الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا، فإن أعياه أن يجد في سنة رسول الله ﷺ جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم فإن أجمع رأيهم على أمر قضى به. وكان عمر رضي الله عنه يفعل ذلك فإن أعياه أن يجد في القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبي بكر قضاء فإن وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به وإلا دعا رؤوس المسلمين فإذا أجمعوا على أمر قضى به.

أولياته

من مناقبه الكريمة ومآثره العظيمة جمعه القرآن ولا يعلم قدر فضله بهذا العمل الجليل إلا من عانى أمر الحديث وعرف مقدار ما اجترىء فيه على الكذب على رسول الله ﷺ وهم جماعة القصاص والوعاظين الذين شوّشوا على الأمة في الدين والسياسة والأخلاق تشويشاً الله أعلم بما جر على الأمة من البلاء ولو لم ينهض أئمة الحديث وحفاظه أواخر القرن الثاني وما بعده إلى تلافي هذا الخطب وتتبع الأسانيد الصحيحة وترتيب درجات الحديث وتفريق الموضوع من الصحيح لكان الخطب أعظم والمصيبة أشد. أما القرآن فللّه الحمد والمنة على أنه سبحانه تكفل بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: 9]، وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: 42] لهذا كان أول ما ألهم إليه أبو بكر النهوض إلى جمعه من صدور الرجال وبعض الصحف فجمع وكتب بين الدفتين دون أن يلحق حرفاً واحداً منه تغيير أو تبديل وقد تقدم شرح ما ذكر في المقدمة، وهو أيضاً أول مَن سمي خليفة وأول من أسلم من الرجال وأول من وضع بيت المال.

ولما مرض رضي الله عنه مرضه الذي توفي فيه عهد بالخلافة لعمر رضي الله عنه. وكتب له عهداً في ذلك ونصه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم «هذا ما عهد أبو بكر خليفة محمد ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن بر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت فلا علم لي بالغيب ولكل امرىء ما اكتسب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

توفي رضي الله عنه في مرضه المذكور. روى الحاكم أن سبب موته وفاة رسول الله ﷺ كمداً بما يجري ـ أي ينقص ـ حتى مات. قال الحافظ ابن حجر: وهو مرض السل. وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها «أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم الاثنين. قال: فإن مت في ليلتي فلا تنظروا في الغد فإن أحب الأيام والليالي إلي أقربها من رسول الله ﷺ، وتوفي من ليلته تلك وهي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة في السنة الثالثة عشر من الهجرة وله من العمر ثلاث وستون سنة وغسلته امرأته أسماء كما أوصى وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر وكبر أربعاً ودفن إلى جنب رسول الله ﷺ». وأخرج ابن هشام عن ابن عروة عن أبيه: أن أبا بكر صلّى عليه ليلاً ودفن ليلاً وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وبضعة أيام، وكان نقش خاتمه: نعم القادر الله.

وكان فصيح اللسان قوي الحجة إذا خطب كثير التذكير بالله والتخويف منه والترغيب فيه روي عن الزبير بن بكار أنه قال: سمعت بعض أهل العلم يقول: أفصح خطباء رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب.

خطبة علي في تأبين أبي بكر رضي الله عنهما

أجمع الرواة أن أبا بكر لما قبض ارتجت المدينة ودهش القوم كيوم قبض رسول الله ﷺ وجاء علي مسرعاً باكياً مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول: رحمك الله يا أبا بكر كنت والله أول القوم إسلاماً وأخلصهم إيماناً وأشدهم يقيناً وأعظمهم غنى وأحفظهم على رسول الله ﷺ وأحدبهم على الإسلام وأحماهم عن أهله وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلاً وهدياً وصمتاً فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله ﷺ صدقت رسول الله حين كذبه الناس وواسيته حين بخلوا وقمت معه حين قعدوا وسماك الله في كتابه صديقاً فقال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ يريد محمداً ويريدك، كنت والله للإسلام حصناً وللكافرين ناكياً، لم تضلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك، كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف، كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً في بدنك قوياً في دينك متواضعاً في نفسك عظيماً عند الله جليلاً في الأرض كبيراً عند المؤمنين، لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى، فالضعيف عندك قوي والقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق من القوي وتأخذ للضعيف، فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك.

تنبيه: اعلم أن الأخبار عن علي رضي الله عنه بصحة خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وكونهما خيري الأمة بعد النبي ﷺ ثبتت عنه من طرق كثيرة بروايات كثيرة من الثقات العدول منهم: ابنه محمد ابن الحنفية بحيث يجزم من يتتبعها بصدور ذلك القول من عليك رضي الله عنه جزماً قاطعاً ليس فيه شك ولا ريب. قال الحافظ الذهبي: تواتر ذلك عن علي رضي الله عنه ورواه عنه نيف وثمانون من أصحابه وصرح بذلك في الخلوة والملأ وخطب بذلك على منبر الكوفة زمن خلافته مع حضور الجمع العظيم، ولهذا اتفق الأئمة الأربعة وأئمة الحديث مثل البخاري ومسلم وبقية أصحاب الكتب الستة وغيرهم وأئمة السلف وبقية أهل السنة والجماعة على اعتقاد صحة خلافته. قال سفيان الثوري: من قال إن علياً رضي الله عنه كان أحق بالخلافة من أبي بكر فقد خطأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار وما أراه يرتفع له مع هذا الاعتقاد عمل إلى السماء. وأخرج الدارقطني عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما مثل ذلك.

الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر

اعلم أن الحالة الاجتماعية التي كانت على عهد الرسالة كانت كذلك في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وقد نهض أبو بكر بعد الرسول ﷺ بإتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة الشعوب نهوضاً يعلم من سيرته. فرمى رضي الله عنه بالجيوش الإسلامية فارس والروم ليكونوا حماة الدعوة بعد إذ لم تنجح فيهم الدعوة مجردة على القوة في عهد رسول الله ﷺ. فخالط المسلمون تلك الأمم البالغة منتهى درجات الرفاهة والتنعم المنغمسة في حمأ الشهوات النفسية ودوّخوا بلادهم واستفتحوا كنوزهم ومع هذا فلم يؤثر ذلك في أخلاقهم ولم تدعهم تلك الزخارف إلى تنكب المحجة الواضحة التي تركهم عليها نبيهم لا سيما وأن القرآن بين أيديهم يهتدون بهديه وأبو بكر من ورائهم يحملهم على طريقته ويؤدبهم بأدب نفسه، وكان جل أمره منصرفاً إلى إقامة شعائر الدين، والتأدب بآداب النبي ﷺ خصوصاً في خشونة العيش وكبح جماح النفوس والقناعة بالكفاف، هذا مع علمه بأن الله سبحانه وتعالى أحلّ الطيبات للمؤمنين، وإنما هو كان حريصاً على تأدب المسلمين بآداب النبوة وآدابه كي لا يشغلهم عن بث الدعوة والجهاد في الله وتوحيد كلمة الشعوب شاغل الإخلاد إلى الراحة والرغبة بنعيم الحياة الفانية وأنى يشغلهم شيء عن أمر الله وهم خير أمة أخرجت للناس وعصرهم خير العصور.

وكيف لا يكون خير العصور وقد كان فيه المؤمنون على جانب من سلامة الفطرة وطهارة الأخلاق وتآلف القلوب، ونصرة العدل والحق، ومواساة الضعيف والقيام بواجب الإخاء وتبادل الثقة والحب لم تبلغ مبلغهم في أمة حديثة عهد في الدين من قبل ولن يأتي أمة سواهم من بعد.

روى الغزالي في الأحياء: أن تبادل الثقة والحب بين المسلمين يومئذ بلغ بهم أن كانوا خلطاء بالمال يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

كان أبو بكر رضي الله عنه خير قدوة للمسلمين وكان على جانب من التواضع وشظف العيش وخشونة الملبس مع غناه ووفرة دخلهِ من أملاكه فقد اقتدى به المسلمون وتخوشنوا في مأكلهم وملبسهم وتعفف كبارهم حتى عن التنعم بدخلهم. في تاريخ المسعودي: لما قدم على أبي بكر زعماء العرب وأشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل وبرد الوشي المثقل بالذهب والتيجان والحبرة وشاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك وما هو عليه من الوقار والهيبة، ذهبوا مذهبه

ونزعوا ما كان عليهم. وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ومعه ألف عبد دون ما كان معه من عشيرته وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلي فلما شاهد من أبي بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه وتزيا بزيه حتى إنه رؤي يوماً في سوق من أسواق المدينة وعلى كتفيه جلد شاة ففزعت عشيرته وقالوا له فضحتنا بين المهاجرين والأنصار قال: أفأردتم أن أكون ملكاً جباراً في الإسلام لا والله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد. قال المسعودي: وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر وذلوا بعد التجبر لا جرم أن قدوة الأمم رؤساؤها، وقادتها إلى الخير والشر ملوكها ولم يرنا التاريخ مصارع قوم هلكى بشقاء الحياة إلا بملوكهم كما لم يرنا تسود قوم وتمتعهم بسعادة الحياة إلا إذا استقام ملوكهم.

هذه كانت الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر رضي الله عنه على وجه الإجمال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

خلافة سيدنا عمر[1] رضي الله عنه ونبذة من سيرته

الخليفة الثاني الفاروق الأعظم أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه تقدم ذكر نسبه في صدر المقصد. شبّ على الشجاعة والنجدة. كان المسلمون في أوائله في حاجة إلى ذوي العصبية والإقدام من رجالات قريش ليستطيعوا إعلان دينهم والذب عن نبيهم وكان ممن عرف في قريش بنفوذ الكلمة والبطش وسمو المكانة عمر بن الخطاب وأبو جهل وكان النبي ﷺ يتوقع خيراً للمسلمين بإسلام أحد هذين الرجلين لهذا قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمر بن هشام»[2] يعني أبا جهل. فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه ﷺ بأحب الرجلين إليه عمر بن الخطاب فأسلم في ذي الحجة لمضي

(1) ترجم لعمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر: 3/ 1144 ـ 1159 مطبعة القاهرة بدون سنة، أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير: 3/ 642 ـ 678 دار الفكر بدون ذكر سنة الطبع، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر: 4/ 279 دار الكتب العلمية بيروت، طبعة مصورة.

(2) أخرجه الحاكم في مستدركه (6129) 3/ 574 وأخرجه الترمذي في سننه من كتاب المناقب باب في مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب حديث (3701) من رواية ابن عمر. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر.

ست سنين من البعثة. أخرج الحافظ ابن الجزري في أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أنه قال: قال لنا عمر بن الخطاب: أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي؟ قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ فبينا أنا في يوم شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة إذ لقيني رجل من قريش فقال: أين تذهب يا ابن الخطاب أنت تزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك قال: قلت: وما ذاك؟ قال: أختك قد صبأت، قال: فرجعت مغضباً وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان في طعامه وقد كان ضم إلى زوج أختي رجلين قال: فجئت حتى قرعت الباب فقيل مَن هذا؟ فقلت: ابن الخطاب، قال: وكان القوم جلوساً يقرؤون القرآن في صحيفة معهم فلما سمعوا صوتي اختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم، قال: فقامت المرأة ففتحت لي الباب فقلت: يا عدوة نفسها قد بلغني أنك صبأت، وضربتها بشيء كان في يدي فسال الدم، فلما رأت المرأة الدم بكت ثم قالت: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل قد أسلمت، قال: فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير فنظرت فإذا بكتاب في ناحية البيت فقلت: ما هذا الكتاب أعطينيه، فقالت: لا لستَ من أهله أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر وهذا لا يمسه إلا المطهرون، قال: فلم أزل بها حتى أعطتنيه فإذا فيه بسم الله الرحمٰن الرحيم فلما مررت بالرحمٰن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي، قال: ثم رجعت إلى نفسي فإذا فيها ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ قال: فكلما مررت باسم من أسماء الله عزّ وجل ذعرت ثم ترجع إليّ نفسي حتى بلغت ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ حتى بلغت إلى قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال: فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني وحمدوا الله عزّ وجل، ثم قالوا: يا ابن الخطاب أبشر فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال: «اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين إما عمر بن الخطاب وإما عمر بن هشام» قالت: فقلت لهم: أخبروني بمكان رسول الله ﷺ. فقالوا: هو ببيت أسفل الصفا وصفوه. قال: فخرجت حتى قرعت الباب قيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب. قال: وقد عرفوا شدتي على رسول الله ﷺ ولم يعلموا بإسلامي، قال: فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب. قال: فقال رسول الله ﷺ: افتحوا له الباب فإنه إن يرد الله به خيراً يهده، قال: ففتحوا لي وأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من رسول الله ﷺ، فقال: أرسلوه، فأرسلوني فجلست بين يديه فأخذ بجميع قميصي فجذبني إليه ثم قال: أسلم يا ابن الخطاب اللهم اهده. قال:

فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. فكبّر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة اهـ. وروي أن عمر لما أسلم قال: يا رسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل؟ فقال رسول الله ﷺ: إنا قليل وقد رأيت ما لقينا. فقال عمر: والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان. ثم خرج رسول الله ﷺ في صفين من المسلمين حمزة في أحدهما وعمر في الآخر حتى دخلوا المسجد فنظرت قريش إلى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة، ومن يومئذ سماه رسول الله ﷺ الفاروق لأنه أظهر الإسلام وفرق بين الحق والباطل.

أخرج الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم اليوم، وأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: 64]. روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «كان إسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت إمارته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي في البيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا». أخرجه في أسد الغابة. وأخرج البخاري عن ابن مسعود أيضاً «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر» كان قواماً على الحق منافحاً عن رسول الله ﷺ مراقباً لأعدائه حريصاً عليه من وصول أذاهم إليه مبغضاً لمن أبغضه، وكان النبي ﷺ يستشير أصحابه في بعض الأمور فكان أبو بكر وعمر أفضلهم عنده رأياً لصدق لهجتهما وعظيم إخلاصهما ولهذا قال النبي ﷺ: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»[1] رواه الترمذي. وفي رواية لأبي داود عن أبي ذر قال: «إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به»[2] وكان رضي الله عنه يرى الرأي فينزل به القرآن حتى بلغت موافقاته نيفاً وعشرين، منها آية تحريم الخمر فإنه لما قال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً نزلت آية التحريم. ومنها آية الحجاب، ومنها آية الاستئذان في الدخول وذلك أنه دخل عليه غلامه

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه من كتاب المناقب باب في مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب حديث (3702) من رواية ابن عمر، وابن حبان في صحيحه حديث (6895) 15/ 318 والحاكم في مستدركه وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة: (4501) 3/ 93.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تدوين العطاء، حديث (2962) من رواية أبي ذر، وابن ماجه في سننه من كتاب المقدمة باب فضل عمر رضي الله عنه، حديث (108): 1/ 40.

وكان نائماً فقال: اللهم حرم الدخول، فنزلت آية الاستئذان. وفي البخاري خمسة عشر حديثاً في فضائله. وأخرج أبو يعلى عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: أتاني جبريل آنفاً فقلت: يا جبريل حدثني بفضائل عمر بن الخطاب، فقال: «لو حدثتك بفضائل عمر منذ لبث نوح في قومه ما نفذت فضائل عمر وإن عمر حسنة من حسنات أبي بكر رضي الله عنهما»[1] وقال الأبي: سمي الفاروق لأنه فرق بإسلامه بين الحق والباطل ونزل جبريل فقال: يا محمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر. حفظ له من الحديث خمسمائة وسبعة وثلاثون حديثاً في الصحيحين منها واحد وثلاثون. قال الشعبي: إذا اختلف الناس فخذوا بما قال عمر وقال: قضاة هاته الأمة عمر وعلي وزيد بن ثابت وأبو موسى.

تقدم أن أبا بكر رضي الله عنه عهد إليه بالخلافة فوليها يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة. ولما تلا كتاب العهد على المسلمين بايعوه جميعاً ولم ينكل عن بيعته أحد من المهاجرين والأنصار. وقد قام رضي الله عنه بهذه الوظيفة السامية قياماً محموداً لا يجاريه فيه أحد من قادة الأمم وساسة الحكومات بل كان من عظيم أثره وأثر أبي بكر في الخلافة الإسلامية أن كانا مثلاً لمن بعدهما يضرب بالعدل وحسن السياسة وحجة على من تنكب طريقهما من الخلفاء وخالف سيرتهما من الأمراء. في أسد الغابة عن علي رضي الله عنه قال: إن الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة إلى يوم القيامة فسبقا والله سبقاً بعيداً وأتعبا والله من بعدهما إتعاباً شديداً فذكرهما حزن للأمة وطعن على الأئمة اهـ. وحسب عمر رضي الله عنه من خلافته أن يكون مثلاً في العدل وحجة على الخلفاء والولاة من بعده بل حسبه من سيرته فخراً وذكراً أن كل المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو المنصفين من غير المسلمين أجمعوا على أنه أعدل مَن ساس الأمم وأعظم رجل في الإسلام. روي أن معاوية رضي الله عنه قال لصعصعة بن صوحان: صف لي عمر. فقال: كان عالماً برعيته عادلاً في قضيته عارياً عن الكبر قابلاً للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحرياً للصواب رفيقاً بالضعيف غير محاب للقوي وغير جاف للغريب والحاصل أن فضائله رضي الله عنه كثيرة جداً شهيرة خصت بالتأليف وسنقص عليك بعضها.

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، حديث (1570) 2/ 159 دار الحرمين، القاهرة 1415.

فتوح الشام

قد علم مما تقدم أن أول عمل قام به عمر رضي الله عنه عزل خالد بن الوليد عن الإمارة العامة وتوسيدها لأبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه وعلم أن المسلمين انتصروا في وقعة اليرموك ولما هزم الله جند العدو وفرغ من المقاسم والأنفال وبعث بالأخماس وسرحت الوفود استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أبي الحميري وخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفر وهو يريد اتباع الفالة ولا يدري يجتمعون أو يتفرقون فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل وأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أو بفحل من بلاد الأردن فكتب في ذلك إلى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصفر فلما جاء عمرَ فتح اليرموك أقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فإنه ضمّ خالداً إلى أبي عبيدة وأمر عمراً بمعونة الناس حتى يصير الحرب إلى فلسطين ثم يتولى حربها وكان هرقل قبل انكسار جيشه باليرموك بأورشليم ولما جاء خبر انكسار جيشه رحل إلى حمص.

لما بلغ أبا عبيدة رضي الله عنه كتاب الخليفة بالذي ينبغي أن يبدأ به وهو دمشق امتثل وسرح عشرة قواد وبعث ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين دمشق وفلسطين والأمير يومئذ يزيد بن أبي سفيان فقدم خالد بن الوليد وعلى مجنبتيه عمرو وأبو عبيدة وعلى الخيل عياض بن أبي غنم وعلى الرجل شرحبيل ابن حسنة فقدموا دمشق ونزلوا حواليها فكان أبو عبيدة على ناحية وعمرو على ناحية وخالد على ناحية ويزيد على ناحية فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً حتى تم فتحها والفضل في ذلك لأولئك الأمراء وبالخصوص خالد. واتفق كثير من الرواة والمؤرخين على أن الذي تولى عقد الصلح مع الدمشقيين هو خالد وأمضاه أبو عبيدة بعد أن أطلعه على كتاب الخليفة بعزله على إمارته وهذا يدل على أن خبر عزل خالد لم يأت وهم على اليرموك بل أتى وهم على دمشق وكتمه أبو عبيدة ريثما تم الصلح.

تنبيه: ومن جميل سياسة عمر أنه كان يعلم من نفسه الشدة فلا يرضى لعماله أن يكونوا مثله لهذا عزل خالد بن الوليد عن الإمارة وجعل بدله أبا عبيدة وكان عماله جميعهم عرفوا باللين كأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان وحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وأضرابهم ومع شدته رضي الله عنه فقد كان يوصي عماله بالرفق والعدل وعدم الإيغال في العقوبة وبلغ به كره الإيغال في العقوبة

أن أرسل إلى أبي موسى الأشعري وقد شدد في العقوبة على بعضهم يهدده بالعقاب إذا عاد إلى مثلها.

لما انتهى فتح دمشق أخذ أمراء الأجناد في فتح بقية الشام قرية قرية ومدينة مدينة كعجلون وبيسان وطبرية ومرج الروم وحمص وبعلبك وبيروت وأجنادين وغزة ونابلس وبيت جبرين وإيليا ـ أي بيت المقدس ـ. والذي عقد الصلح مع أهل بيت المقدس الخليفة عمر رضي الله عنه قدم بطلب من الأهالي وصلّى الصبح ببيت المقدس وعقد الصلح بنفسه إجابة لمطلبهم ثم وقع فتح حماه واللاذقية وقنسرين وأنطاكية وغيرها من البلاد السورية وتم هذا الفتح بعد حروب طويلة استمرت ثلاث سنين ولاقى جند المسلمين في غضونها من العناء أشده وبذلوا من الدماء ما جعل ثمن هذه البلاد غالياً ومقامها في نظرهم عالياً وكان لرجالات قريش وأشرافها في حرب الشام خاصة من الأثر العظيم والبلاء الجسيم ما لم يكن لقوم غيرهم في الفتوحات الأخرى وقتل منهم عدد كثير لا سيما في وقعة اليرموك وممن قتل منهم عكرمة بن أبي جهل وابنه وخالد بن سعيد وهشام بن العاص وسهيل بن عمرو وأبان بن سعيد وأضرابهم من صناديد قريش وأشرافها وكان للنساء القرشيات من البلاء ما كان للرجال. روى الطبراني أن النساء المسلمات قاتلن يوم اليرموك وخرجت جويرية ابنة أبي سفيان وهند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان وبالجملة فقد لاقى المسلمون أشد الأهوال وصادموا عدواً استمات في حوزة الدفاع عن حوزته والذب عن سلطانه.

القواد الذين حضروا هاته الفتوحات وهم من أنجاد قريش وسادتها وممن كان له البلاء الحسن خالد بن الوليد وأبو عبيدة وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص ويزيد ومعاوية ووالدهما أبو سفيان وحبيب بن مسلمة وعياض بن غنم وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وأبان بن سعيد والذين هم من غير قريش فذو الكلاع الحميري وشرحبيل ابن حسنة والقعقاع بن عمرو والسمط بن الأسود الكندي وعلقمة بن مجزز وعلقمة بن حكيم وعبادة بن الصامت ومالك بن الأشتر النخعي وأبو أيوب المالكي ومعاذ بن جبل وغيرهم وقد كان لهم حسن ترتيب للجيوش وإلمام بطرق البلاد وتفنن بأساليب الحرب وكان الخليفة وهو بالمدينة يصدر أوامره للأمراء كيف يسيرون وأي المسالك يسلكون وأي البلاد يقصدون كأنما ينظر إلى القطر على خريطة مصورة بين يديه.

جغرافية سوريا

يحد سوريا شمالاً ولاية أدنه ـ أي كيليكيا ـ من آسيا الصغرى وشرقاً الفرات والبادية وجنوباً جزء من بلاد العرب ويقال له تيه بني إسرائيل وغرباً البحر المتوسط وقد قام في هذا القطر حكومات كثيرة تعددت بتعدد الأقوام القاطنين فيه كالفينيقيين والحثيين والآشوريين والكنعانيين وغيرهم من الشعوب ثم رحل إليه بنو إسرائيل من مصر وزاحموا سكان البلاد وأخذوا قسماً عظيماً منه وغزاه كثير من الدول القديمة كدولة الفراعنة المصريين والماديين والفرس والرومانيين واليونانيين وعرب الإسلام ولم تثبت فيه قدم دولة من الدول الفاتحة كما ثبتت دولة الرومانيين ودولة الإسلام فقد كان ابتداء دولة الرومان من سنة 65 قبل المسيح إلى سنة 633م حيث ابتدأ الفتح الإسلامي في البلاد السورية وكانت نهايته سنة 638م أو سنة 17هـ وفيها تقلص ظل الروم عن هذا القطر وكان على عهد الرومانيين مقسوماً إلى ثلاثة أقسام كبيرة وهي: فلسطين وتوابعها، وأنطاكية وتوابعها، ودمشق وتوابعها، وكان القسم الشمالي منه يسمى سورية والجنوبي يسمى فلسطين فأطلق عليه اسم سورية منذ تملكه الرومان ولما تملكه الإسلام أطلقوا عليه اسم الشام وقسمه عمر إلى أربعة أقسام:

الأول: قسم الثغور وهي حمص وقنسرين وحلب وأنطاكية وقاعدته حمص.

والثاني: دمشق.

والثالث: الأردن وحاضرته طبرية.

والرابع: فلسطين، وهذا ينقسم إلى قسمين قسم حاضرته الرملة وقسم حاضرته إيليا ـ أي القدس ـ.

انتداب عمر رضي الله عنه لفتح العراق وفارس

اعلم أن عمر أول عمل قام به أيضاً انتداب الناس لحرب الفرس وذلك أن المثنى بن حارثة رضي الله عنه كان منذ وفوده على أبي بكر رضي الله عنه في أول خلافته يهون عليه أمر الفرس حتى ولاه قتالهم ثم ولى خالداً فقاتل تحت رايته ثم لما سافر خالد إلى الشام وبقي المثنى أميراً على ما وقع فتحه من العراق دفعه الإقدام إلى أن يتوسع في الفتح ويرمي بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ويدوخ ذلك الملك العريض فوفد على أبي بكر رضي الله عنه في حال مرضه ففاوضه في أمر الهجوم على فارس إلا أن أبا بكر رضي الله عنه لم يسعه إجابة مطلبه لمرضه وأوصى عمر أن يندب الناس بعد توليته الخلافة مع المثنى، وفي صبيحة الليلة التي

دفن فيها أبو بكر قام عمر فانتدب الناس وأول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي انتدبه رضي الله عنه أميراً على الجيش وخرج في أوائل جمادى الآخرة سنة 13 ومعه سعيد بن عبيد وسليط بن قيس والمثنى بن حارثة فتقدمهم للحيرة ووقع القتال بين المسلمين والعدو بالقمارق وكان النصر حليف المسلمين، ولما انهزم العدو أخذ في أثره إلى كسكر ثم إلى الحيرة ووقعت مقاتلة على جسر الفرات انهزم فيها المسلمون وقتل فيها أبو عبيد وسليط وجرح المثنى، ولما انتهى خبر الهزيمة إلى عمر رضي الله عنه اشتد عليه الأمر، ثم إن المثنى جمع القبائل التي حوله وبعث عمر رضي الله عنه البعوث وأمر عليهم أمراء كعرجفة بن هرثمة من زعماء العرب. أما الفرس فإنهم لما أحسوا باجتماع العرب جمعوا كلمتهم بعد أن كانت في حال ارتباك وجمعوا جيشاً كثيفاً بالبويب أميره مهران ثم التحم القتال بين الفريقين واشتد الحال إلى أن آل الأمر إلى اضطراب جيش العدو وقتل مهران وتم ذلك بحسن قيادة البطل الجليل المثنى بن حارثة ومات من أعلام المسلمين في هاته الوقعة ناس منهم: خالد بن هلال ومسعود بن حارثة أخو المثنى، ولما فرغ المثنى من أمر البويب وتشتت أمور الفرس وعاد جرير بن عبد الله البجلي من غزاته فرق المثنى جنوده في السواد وأخذ يستخضع البلاد التي عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة مع العرب ظفر بها المسلمون ما شاؤوا من متاع ومال وبلغت غارتهم شرقاً قرب مدائن فارس وشمالاً إلى الجزيرة فأوقعوا الرعب في قلوب الأعداء حتى قام لذلك الفرس وقعدوا وأجمعوا على تأمير يزدجرد والتجهيز لحرب المسلمين، ولما بلغ المثنى ذلك كتب للخليفة بذلك ولما وصل إليه الخبر كتب إلى عماله على العرب والكور يستحثهم على الاستنفار ووافاه بعض القبائل إلى المدينة وبعض القبائل انضموا إلى المثنى ورأى من السداد أن لا يفوته أمر خاصة المسلمين وعامتهم فيمن يوليه أمر هذه الحرب فاستشار العامة فأشاروا عليه بالمسير بنفسه والخاصة فأشاروا عليه بتسليم القيادة لغيره وبقائه بالمدينة وبعد استشارتهم قام خطيباً فقال:

«أما بعد فإن الله عزّ وجل جمع على الإسلام أهله فألّف بين القلوب وجعلهم فيه إخواناً والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما أجمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومَن قام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم. أيها الناس، إني كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت لهذا الأمر من قدمت ومن خلفت» اهـ. ويعني بمن خلف

علياً وطلحة لأنهما لم يحضرا الرأي الأول، ولما انتهى من خطبته أشار عليه طلحة وعلي بما أشار إليه العامة ونهاه العباس وعبد الرحمٰن بن عوف عن هذا الرأي وقال له الثاني: أقم وابعث جنداً فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد فإنه إن يُهزم جيشك ليس كهزيمتك وإنك أن تقتل أو تهزم في آنف الأمر خشيت أن لا يكبر المسلمون وأن لا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً اهـ. فأخذ رضي الله عنه برأي عبد الرحمٰن رضي الله عنه وأمر على الجند سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عامله على هوازن ودعاه وأوصاه بوصية ثم خرج سعد ومعه أربعة آلاف من اليمن وغيرهم وفيهم من السراة وزعماء العرب عدد وافر منهم خميصة بن النعمان البارقي وشداد بن ضمضج الحضرمي وعمرو بن معدي كرب وشرحبيل بن السمط الكندي وأضرابهم من صناديد العرب وقادتها وخطب خطبة عند مشايعتهم وسار الجند حتى انضم إلى جند العراق الذين كانوا مع المثنى فكان عدد الجند الذي شاهد وقعة القادسية ثلاثين ألفاً وفي أثناء ذلك توفي المثنى بن حارثة الشيباني أمير جيش العراق من أثر انتقاض جراحة أصابته في وقعة الجسر المتقدم ذكرها وكان رضي الله عنه على جانب عظيم من الشجاعة والإقدام والنظر البعيد في شؤون الحرب لا يدانيه إلا خالد بن الوليد، ولما تم لسعد الاستعداد انتشب القتال بينه وبين عدوه وانتهى بفل جموع الفرس وفتح القادسية وأقام فيها بعد الفتح شهرين وكتب للخليفة فيما يفعل فكتب إليه يأمره بالمسير إلى المدائن فسار إليها لأيام بقين من شوال سنة 15 أو سنة 16 وفتح في طريقه بابل ثم دخل المدائن وهي عاصمة الأكاسرة بعد حصار شهرين وهرب منها كسرى لحلوان فغنم المسلمون من ذخائر كسرى وأموال الفرس ما لا يعد وجعل سعد إيوان كسرى مسجداً. وموقع المدائن على دجلة من الجنوب الغربي من بغداد ولم يبقَ غربي دجلة إلا أرض العرب وكلهم آمنوا واغتبطوا بملك الإسلام ثم أرسل جيشاً بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى حلوان وفتحها بعد أن فر كسرى منها إلى الري وفي أثناء إقامة سعد بالمدائن وقع فتح تكريت والموصل ثم تحول للكوفة بعد أن اختطها بأمر من الخليفة وسنشرح الكلام على تكريت عند التعرض لفتح الجزيرة ثم وقع فتح الأهواز وسوس وتُسْتَر. والأهواز اسم ولاية واقعة بين ولاية البصرة وولاية فارس وكان بها الهرمزان وهو أحد البيوتات السبعة في أهل فارس وكن شهد القادسية مع الفرس فانهزم بهزيمتهم فجاء إلى الأهواء فتولى أمرها وكانت وقعت منه عهود أثناء وقائع تقدمت فنقضها ولما وقع فتح الأهواز طلب الهرمزان الأمان على أن ينزل من القلعة التي اعتصم بها على حكم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فنزل على حكم ذلك واقتسموا ما أفاء الله عليهم

فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف وقتل في وقعة الأهواز جمع من المسلمين فيهم البراء بن مالك ومجزاة بن ثور قتلهما الهرمزان بيده وسنذكر ما آل إليه أمر الهرمزان إن شاء الله بعد. ثم وقع فتح جندي سابور بعد أن حاصرها زرّ بن عبد الله بن كليب.

ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اهتم بفتح بقية ممالك الفرس فأعد لذلك العدة وقسم الجيوش والأمراء، فأمر أبا موسى الأشعري أن يسير من البصرة وبعث ألوية مع سهيل بن عدي فقدم بها، ودفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس، ولواء سابور إلى مجاشع بن مسعود السلمي، ولواء إصطخر إلى عثمان بن العاص الثقفي، ولواء نهاوند إلى سارية بن زنيم الكناني، ولواء كرمان إلى الحكم بن عمير التغلبي، وسارت هاته الجيوش كل جيش إلى وجهته بعد أن أمدهم بإمدادات. وفي غضون خمس سنين تم الفتح الأعظم من بلاد فارس الشرقية والغربية صلحاً وحرباً فبلغت ولاية أذربيجان شمالاً وسجستان من ولاية أفغانستان ومكران من ولاية السند شرقاً وبحراً الهند وخليج فارس جنوباً وكردستان والجزيرة غرباً، واختلف في فتح خراسان هل كان في خلافة عمر أو عثمان رضي الله عنهما، وكانت وقعة نهاوند أعظم الوقائع وأحسن فتح وفيها من القواد العظام وزعماء العرب جماعة منهم حذيفة بن اليمان وأميرهم البطل الجليل النعمان بن مقرن المزني، وكان فتحها بعد حصار طويل، وممن قتل في هاته الوقعة طليحة الأسدي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، ودخل الجيش المدينة بعد هزيمة الفرس واحتووا على ما فيها وجمعوا الأسلاب إلى أمين المال السائب بن الأقرع وجاءهم الهربذ صاحب بيت النار مستأمناً ودلهم على ذخيرة لكسرى كانت عنده على شرط أن يعطوه الأمان على نفسه وعلى مَن شاء فأعطاه حذيفة بن اليمان فأخرج له تلك الذخيرة التي كان أعدها لنوائب الزمان، فأجمع رأي المسلمين على رفعها لعمر رضي الله عنه. ولما تم الفتح طلب الفرس الأمان وأجيبوا لذلك على شروط منها: إرشاد ابن السبيل وإصلاح الطرق، وقسم حذيفة الغنائم فكان سهم الفارس ستة آلاف وسهم الرجل ألفين ورفع ما بقي من الأخماس إلى السائب بن الأقرع وهو خرج بها إلى عمر رضي الله عنه مع ذخيرة كسرى، وتقدم الرسول بخبر الفتح وهو طريف بن سهم أخو بني ربيعة وكان عمر ينتظر أخبار نهاوند فلما جاء وأخبره خبر الفتح واستشهاد النعمان رضي الله عنه بكى حتى اخضلت لحيته وترحّم على النعمان وكان رضي الله عنه رقيق القلب محباً للمسلمين حريصاً على حياة القواد ويحزن حزناً شديداً إذا أصيب أحد منهم، ثم وصل السائب بالأخماس فوضعت بالمسجد وأمر

عمر نفراً من أصحابه منهم عبد الرحمٰن بن عوف بالمبيت فيه ودخل منزله فاتبعه السائب بالسفطين وهي جوهر ثمين وأخبره خبرهما وأن الناس رضوا بأن يكونا له. فقال له عمر: يا مُليكة والله ما دروا هذا ولا أنت معهم فالنجاء النجاء عودك على بدئك حتى تأتي حذيفة فيقسمهما على من أفاءهما الله عليه. فأقبل راجعاً حتى انتهى إلى حذيفة فباعهما فأصاب أربعة آلاف ألف (أربعة ملايين) وذلك غاية في عفة عمر رضي الله عنه.

قلت: وأخلاقه رضي الله عنه كأخلاق الأنبياء عليهم السلام الذين استهانوا بالدنيا ومتاعها وفي قصة الهرمزان الآتية قريباً ما يصدق ذلك، فإنه لما رأى عمر رضي الله عنه ورأى ما رأى من أخلاقه قال: إن عمر ينبغي أن يكون نبياً. فقالوا: ليس بنبي ولكنه يعمل عمل الأنبياء. فقد بان لك من تلك المقالة أخلاق هذا الخليفة العظيم الذي دوّخ ملك فارس والروم وأرهبت سطوته الأمم وامتد ظل سلطانه إلى حدود الهند شرقاً وإفريقية الشمالية غرباً ومنحه الله هذا الملك العريض والسلطان ومع هذا فإنه لا يرضى لنفسه منزلة فوق منزلة الناس حتى من أدنى رعاياه وإن هذا لهو العدل الذي ليس فوقه عدل، فبمثل ذلك عظم قدره وشاع ذكره وملأ الأذهان خبره حتى عده المؤرخون من أعظم رجال الإسلام وحتى أننا لنفخر به على ملوك الأرض رضي الله عنه وأرضاه.

رجوع إلى خبر الهرمزان

تقدم أن الهرمزان نزل من القلعة التي تحصن بها بامان على حكم أمير المؤمنين وبعد نزوله أوفد أبو سبرة إلى المدينة وفداً فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فلما اقتربوا من المدينة ألبسوه حلته الملوكية وتاجه، ودخلوا به المدينة ليراه المسلمون على هاته الصفة وانطلقوا إلى المسجد يطلبون أمير المؤمنين فوجدوه نائماً في ميمنة المسجد متوسداً برنسه فجلسوا دونه وليس في المسجد غيره فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذا. فقال: أين حرسه وحجابه؟ فقالوا: ليس له حارس ولا حاجب ولا ديوان، فقال: ينبغي أن يكون نبياً، فقالوا: يعمل عمل الأنبياء، وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالساً ثم نظر إلى الهرمزان فقال: الهرمزان؟ فقال: نعم، فتأمله وتأمل ما عليه وقال: الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدي نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرّارة. هيه يا هرمزان كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله. فقال: يا عمر، إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلّى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم

يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا. فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا.

وحاصله أن استقلال الأمم وتفرقها تابع لاجتماع الكلمة وتفرقها.

فتح الجزيرة

وهي القسم الشمالي من الأرض الواقعة بين الفرات ودجلة والجنوبي منها هو العراق العربي وكلاهما كان من منازل العرب من بكر وربيعة ومضر وكان رحيل العرب لهذه البلاد من أزمنة متطاولة قيل إنها تمتد إلى ما بعد سيل العرم وقاعدة الجزيرة الموصل وكان فتحها وفتح تكريت على يد عبد الله بن المعتم وربعي بن الأفكل وكان بعثهما سعد بن أبي وقاص من العراق وقيل بل كان فتح الموصل على يد عياض بن غنم الفهري القرشي لما فتح الجزيرة سنة 18 وهو من أكبر الفاتحين وأبو عبيدة بن الجراح بن عمه وهو أمير الجيوش ولما توفي أبو عبيدة في طاعون عمواس في السنة 18 تولى عياض عمل أبي عبيدة وهو حمص وقنسرين وأضاف إليه عمر الجزيرة وأمره بفتحها ففتحها. والحاصل أن فتحها قيل كان من قبل سعد وهو بالعراق وقيل من قبل أبي عبيدة وبلغ عياض في الفتح بادية الشام غرباً وأرمينيا وكردستان شرقاً وتوفي سنة 20. ولما تم الفتح صلحاً كتب لأهل الرها بذلك ونصه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب عياض بن غنم لأسقف الرها أنكم إن فتحتم لي باب المدينة على أن تؤدوا إلي على كل رجل ديناراً ومدي قمح فأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم وعليكم إرشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلم. شهد الله وكفى بالله شهيداً.

فتح مصر وبرقة

كان عمرو بن العاص رضي الله عنه شديد التطلع إلى مصر راغباً فتحها لأنه جاءها مرة في الجاهلية ورأى من ثروة أهلها وسهولة أمرها ما أطمعه في فتحها فلما قدم الخليفة عمر رضي الله عنه الجابية في سنة 18 اختلى به وفاتحه بما في نفسه وهوّن عليه أمر مصر ورغب إليه أن يوليه فتحها فتردد عمر رضي الله عنه في الأمر لأن جيوشه متفرقة في الشام والجزيرة وفارس تكافح دولة الفرس والروم فما زال به عمرو حتى استرضاه وأذن له بقصدها وجهز معه أربعة آلاف فارس كلهم من عك وقال له سر وأنا مستخير الله في مسيرك ثم أمده بأربعة آلاف ثم بأربعة آلاف آخرين وكتب إليه إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الألف الزبير بن العوام

والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وإن معك اثني عشر ألفاً ولا تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة وكان القبط في مصر يكرهون سيادة الروم ويودون التخلص منها ولو بسيادة المسلمين فلما بلغ عمرو مصر وظفر بجنود الروم تواطأ على صلحه المقوقس مع قومه وصالحوه على شيء معلوم وبعد أن تم الصلح شخص عمرو بجنده إلى الإسكندرية وكان فيها جمع كثيف من الروم فحاصرها مدة طويلة ثم أخذها عنوة وكتب بالفتح إلى عمر واستقرت قدمه في البلاد فأخذ في تنظيم شؤونها وترتيب خراجها وتقرير أسباب الراحة والأمان بين أهلها وما زال والياً عليها حتى عزله عثمان بن عفان رضي الله عنه وستأتي ترجمة هذا الفاتح العظيم.

وزبدة القول في هذا الفتح أن المقوقس لما أحس بالغلبة فرّ بجنده من حصنه بعد حصار شديد إلى منف وبعث لعمرو كتاباً طالباً فيه توجيه رجال ليكون الاتفاق على يدهم فأرسل عمرو كتاباً مع عشرة نفر رئيسهم عبادة بن الصامت وكان هائل المنظر أسود اللون طوله عشرة أشبار فتقدم إليه عبادة في صدر أصحابه فهابه المقوقس وطلب تقديم غيره فأجابوا أن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا ونرجع جميعاً إلى قوله ورأيه وقد أمر الأمير أن لا نخالف له فقال المقوقس لعبادة تقدم وتكلم برفق فألقى عبادة خطبة أتى فيها على المراد بأفصح عبارة وألطف إشارة ولما انتهى كلامه قال المقوقس لمن حوله بلغتهم ما سمعت مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وإن قوله لأهيب. ثم قال له عبادة: بيننا وبينك خصلة من ثلاث خصال فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل، بذلك أمرني الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله من قبل إلينا: أما الإسلام الذي هو الدين القيم الذي لا يقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته، أمر الله أن نقاتل من غالبه ورغب عنه حتى يدخل فيه فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان أخانا في دين الله فإن قبلت أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم وإن أبيتم إلا الجزية فأدوها إلينا وأن نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم وأن نقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم إن كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم هذا ديننا ولا يجوز لنا غيره فانظروا لأنفسكم. وبعد محاورات دارت في النازلة تركنا ذكرها اختصاراً، قال المقوقس: أعلم أميرك أني لا أزال حريصاً على إجابتكم إلى خصلة من تلك الخصال وإني أريد أن نجتمع به مع جماعة من أصحابي فإن استقام الأمر بيننا تمّ

وإلا رجعنا إلى ما كنا عليه. ثم اجتمع عمرو بالمقوقس وكتبوا الصلح بأن يعطوا الأمان للمصريين وهم يدفعون الجزية. ولما استتب لعمرو الأمر بمصر صار إلى برقة وتسمى قديماً أنطابلس وهي واقعة بين مصر وطرابلس الغرب ومن فرضها الشهيرة بنغازي فصالحه أهلها على الجزية وصار إلى طرابلس الغرب ففتحها وكتب إلى الخليفة عمر رضي الله عنه: أما بعد، إنا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين إفريقية تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل. فنهاه عمر وولى على برقة عقبة بن نافع الفهري. هاته خلاصة أخبار هذا الفتح في خلافة عمر رضي الله عنه.

تنبيه: اعلم أن العرب أمة حربية قل أن يماثلها في ذلك العصر شعب من الشعوب في الشجاعة والإقدام والتعود على أساليب القتال لدأب أفرادها منذ نعومة الأظفار على الفروسية وتعلم فنون الحرب وائتلافهم للقتال وحبهم للغارة التي تقتضيها حالتهم الاجتماعية وعوائدهم البدوية إلا أنه كانت تنقصهم الجامعة والعدة أي آلات الحرب فكانوا مع كونهم أمة واحدة من جنس واحد قبائل متفرقة الأهواء والمنازع يقاتل بعضهم بعضاً ويثب بعضهم على بعض ولم يكن عندهم من آلات الحرب والقتال وأنواع السلاح إلا الرمح والسيف والدرع والسهم ولم يكن لعامتهم حظ بالجيد من أنواع هذا السلاح لفقرهم وربما كان أجودهم سلاحاً أهل اليمن لخصب أرضهم وتقدم بلادهم في الحضارة وعراقتهم في الملك من عصور التبابعة ولذلك كان الفرس في واقعة القادسية يشبهون سهام العرب بالمغازل لدقتها وسذاجة صنعها، ولما جاء الإسلام جمع هذه الأمة على كلمته وضم قبائلها إلى رايته فلم يلبثوا أن دبّ فيهم روح الاجتماع وشعروا بالحاجة إلى الطاعة والانقياد والتكاتف والاتحاد وكان من ذلك أن خضدوا شوكة الدولتين فارس والروم لما دفعهم أبو بكر وعمر إلى قتال الأمم وفتح الممالك وأظهروا في قتال جنود الدولتين من التفنن في أساليب الحرب والتعود على الطعن والضرب ما رأيت فيما تقدم مما جعل النصر حليفهم والقوة رائدهم في كل مكان.

فمن ذلك أنهم كانوا لا يقتحمون جنداً ولا يمعنون في داخل البلاد ما لم يجعلوا وراءهم ردءاً أي مدداً يحمي ظهورهم ويؤمن طريق الرجعة ولا يمكن العدو من أن يقطع على موادهم.

ومنها أنهم كانوا لا يحاصرون مدينة ما لم يقطعوا عنها طرق المواصلة مع جيش العدو.

ومنها أنهم كانوا يبدأون العدو بالقتال في أطراف بلاده التي تلي البادية حتى إذا أصابتهم هزيمة تكون جزيرة العرب من ورائهم فلا يسع جيش العدو تتبع أثرهم واقتحام صحارى بلادهم.

ومنها براعتهم في إقامة خطوط الدفاع على طول البلاد إذا أراد مهاجمتها العدو.

ومنها اليقظة الدائمة لحركات العدو والاستعداد لصد غاراته.

ومنها توهينهم قوة العدو بإشغال جيوشه بالحرب عن أن يمد بعضها بعضاً عند الحاجة.

هذا وأشباهه من مكائد الحرب التي مرّ ذكرها في غضون أخبار الفتح كما تدل على براعة القواد المسلمين يومئذ، وتفوقهم في أساليب الحرب وأصول القيادة على قواد جيوش الروم والفرس لا سيما الخليفة عمر رضي الله عنه الذي كان مع بعده عن مواقف القتال يصدر أوامره إلى القواد في الأعمال الحربية وكيفية الهجوم والدفاع على وجه يدل على أنه من أعاظم قواد الجيوش في العالم، هذا فضلاً عما كان يوصي به القواد من الرفق وحسن المعاملة مع المغلوبين وعدم التسلط بالإيذاء عليهم وبدوام اليقظة والسهر والرفق بجيوش المسلمين وعدم إلقائهم في المهالك والترتيب في الحرب والتبصر في أمور القتال إلى غير ذلك.

وأما تعبية العرب للجيوش في إبان الفتح الذي مر ذكره في هذا الكتاب فقد بلغ الغاية في الترتيب وحسن النظام والانتظام، ولنذكر لك كيفية تعبيتهم للجيوش في وقائعهم الشهيرة وهي وقعة اليرموك ووقعة القادسية ومنهما تظهر لك مرتبتهم في فنون الحرب ومكانهم من البصيرة في تعبئة الجيوش التي تشبهها من كل الوجوه تعبئة الجيوش في هذا العصر كالطلائع والمجردات (الكشاف) والميمنة والميسرة (الجناحين) والقلب والساقة والردء والمدد والرجل (المشاة) والركبان (الفرسان) وكان الغالب على العرب قبل الإسلام حب المبارزة والمهاجمة عند الالتقاء مع العدو وصاروا في الإسلام يفضلون الزحف صفوفاً (كراديس) لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ وكـــان الأمــــراء والقواد يتفاوتون في المراتب فمنهم الأمير العام (المشير الآن) ويليه خليفته (الفريق الآن) ويليهما أمراء التعبئة كأمير الميمنة والميسرة والقلب وغيره (وهم الألوية الآن) ويليهم خلفاؤهم (الأمير الآيات الآن) ويليهم أمراء الكراديس (الصفوف) ويليهم العرفاء وأمراء الأعشار (الجاويش والنقباء) ولعلهم رؤساء المائة. وفضلاً عن هذا

فقد كان يكون مع الجيش الرائد يرتاد المواضع الموافقة لنزول الجيش والقاضي وأمير الأقباض الذي ينتهي إليه حفظ الغنائم وقسمة الفيء والترجمان والكاتب والأطباء لمداواة الجرحى.

روى الطبري في تاريخه أن خالد بن الوليد عبى جيش المسلمين يوم اليرموك تعبئة لم تعب العرب مثلها فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وجعل عليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل ابن حسنة وجعل الميسرة كراديس وجعل عليها يزيد بن أبي سفيان وجعل على كل كردوس من هذه الكراديس قائداً فجعل القعقاع بن عمرو على كردوس من كراديس أهل العراق ومذعوراً بن عدي على كردوس وجعل غير هذين بضعة وثلاثين قائداً كل قائد على كردوس منهم عياض بن غنم القرشي وحبيب بن مسلمة القرشي وسهيل بن عمرو القرشي وعكرمة بن أبي جهل القرشي في عدة مثلهم من قريش، وأما من كان من غير قريش فمنهم ذو الكلاع الحميري والسمط بن الأسود الكندي وضرار بن الأزور الأسدي وأضرابهم من صناديد العرب وكان القاضي أبو الدرداء وابن مسعود على الاقباض وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ويحرض المسلمين على القتال. هكذا كانت تعبئة جيش اليرموك.

وأما القادسية فكانت أحسن من ذلك وأرقى نظاماً وترتيباً فقد ذكر الطبري أن سعد بن أبي وقاص قدر الناس وعبأهم كما أمره عمر رضي الله عنه فأمّر أمراء الأجناد وعرّف العرفاء على كل عشرة رجلاً كما كانت العرافات أزمان النبي ﷺ. قال الطبري: وكذلك كانت إلى أن فرض العطاء وأمر على الرايات رجالاً من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الأعشار رجالاً من الناس لهم وسائل في الإسلام وولى الحرب رجالاً فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها فلم يفصل (أي من شراف) إلا بتعبئة فأما أمراء التعبئة فاستعمل زهرة بن عبد الله بن قتادة الحوية من ملوك هجر فقدمه ففصل بالمقدمات من شراف حتى انتهى إلى العذيب واستعمل على الميمنة عبد الله بن المعتم واستعمل على الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي وكان غلاماً شاباً وكان قاتل أهل الردة فعرف ذلك له وجعل خليفته خالد بن عُرْفُطة وجعل عاصم بن عامر التميمي على الساقة وسواد بن مالك التميمي على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة وعلى الرجل حمال بن مالك الأسدي وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمين الخثعمي فكان أمراء التعبئة يلون الأمير - أي بعده في المرتبة - والذين يلون أمراء التعبئة أمراء الأعشار والذين يلون أمراء الأعشار أصحاب الرايات والذين يلون أصحاب الرايات

والقواد رؤوس القبائل. قال الطبري: وبعث عمر رضي الله عنه الأطباء وجعل على قضاء الناس عبد الرحمٰن بن ربيعة الباهلي ذا النور وجعل إليه الاقباض وقسمة الفيء وجعل داعيتهم ورائدهم سلمان الفارسي والترجمان هلال الهجري والكاتب زياد بن أبي سفيان.

وبالجملة فإن تعبئة الجيش على عهد عمر رضي الله عنه كانت وافية بالغرض من كل الوجوه وصرف العناية في كل ما يعود بالقوة والعز على المسلمين، ويرفع شأن الخلافة ويضاف إليه براعة القواد المسلمين وتفوقهم في أساليب الحرب واعتقاد المسلمين بالنعيم الأخروي الذي كان يحبب إليهم الموت في ميادين الحرب ونيل الشهادة بين صفوف الأعداء وصبرهم على المكاره وتحملهم لشظف العيش، ورضاهم بالكفاف من القوت، واستخفافهم بجنود الأعداء قلوا أو كثروا واعتقادهم بالحصول على النصر الذي وعدهم الله به إذا نصروا الحق وعدلوا بين الناس.

وهذا من أهم الأسباب التي رجحت جانب المسلمين على جانب الأعداء، ومهدت طرق الغلبة بجيوش من العرب والذي وفر هذه الأسباب إنما هو اجتماع العرب بعد التفرق واتحادهم على كلمة الإسلام بعد التخاذل والانقسام.

أولياته ـ فمنها كتابة التاريخ الهجري

لم يكن للعرب قبل الإسلام تاريخ يؤرخون به إلا الحوادث الشهيرة عندهم فإنها كانت بمثابة التاريخ فكانوا يقولون حدث ذلك في عام الفيل مثلاً وولد فلان بعد عام الفجار بكذا وهلم جراً واستمر ذلك في الإسلام إلى مضي سنتين ونصف من خلافة عمر رضي الله عنه فرأى لزوم وضع التاريخ لضبط الحوادث حيث انتشر الإسلام وكثر الفتح ومست الحاجة لضبط الشؤون والأعمال في الحكومة الإسلامية، فجمع الصحابة واستشارهم في ذلك وسألهم من أي يوم نكتب التاريخ؟ فأشار عليه علي رضي الله عنه بأن يجعل التاريخ من السنة التي هاجر فيها رسول الله ﷺ إلى المدينة ففعل.

ومنها: تدوين الدواوين وفرض العطاء

من البديهي أن حاجات الدولة تترقى بترقي العمران وامتداد السلطان وقد كانت دولة الإسلام في خلافة أبي بكر وصدراً من خلافة عمر في مبادىء الظهور وعدم اتساع السلطان ولم يكن لها من الدخل والخرج إلا الصدقة التي كانت تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء، وأما المغانم والفيء فكانت قليلة لم تحوج أخماسها

التي يبعث بها إلى المدينة إلى صرف العناية في ترتيب الشؤون الإدارية على أصول الدول المترقية يومئذ كفارس والروم. وإنما كانت العناية منصرفة إلى الشؤون الحربية والفنون العسكرية، ولما توسع المسلمون في الفتح انتشروا في الممالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت في مناحي العمران وأخذ يزداد الفيء من الخراج والجزية زيادة لا طاقة للخليفة وأمرائه بضبطها، ولا قبل لهم بإحصاء مستحقيها، وتوزيع الأعطيات (المرتبات) على أربابها بالعدل إلا بضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وقيدها في قيود خاصة. دعا عمر رضي الله عنه الصحابة واستشارهم في تدوين الديوان، وحيث كانت النتيجة الموافقة على رأيه دعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا. والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما في القاموس، وتوسعوا بمسماه فأطلقوه على كل دفاتر الحكومة الإدارية وغيرها ثم على المكان الذي يكون فيه الديوان فسموه ديواناً.

ومنها ترتيب العمال وتقسيم الولايات، ومنها اتخاذ دار الدقيق يعين به المنقطع، ومنها توسعة المسجد النبوي، ومنها ضرب النقود. كان العرب قبل الإسلام تتعامل بالنقود الفارسية والرومية من الدراهم واستمر ذلك إلى صدر من خلافة عمر فلما كانت سنة 15 هجرية ضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها، غير أنه زاد في بعضها الحمد لله. وفي بعضها محمد رسول الله وجعلها كل عشرة دراهم بزنة سبعة مثاقيل ذكر ذلك المقريزي في النقود الإسلامية، ولم يضرب رضي الله عنه الدينار وضربُه إنما كان على عهد عبد الملك بن مروان. ومنها اتخاذ بيت المال، ومنها قيام شهر رمضان، ومنها العقاب على الهجاء، ومنها الجلد في الخمر ثمانين، ومنها وضع البريد وهو اسم للمسافة التي بين كل محطة من محطات البريد وهي أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلاً ثم أطلق على حامل الرسائل وتوسعوا فيه الآن فأطلقوه على أكياس البريد وأصله من وضع الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد ثم استعمله الرومان وغيرهم من الأمم ثم استعمل في الإسلام وأول من استعمله عمر رضي الله عنه، ثم إن معاوية بن أبي سفيان رتبه على أصول مرعوفة ووضع له الخيل وأقام له المحطات، ومنها جمع الناس في صلاة الجنائز، ومنها تمصير الأمصار، ومنها التسمية بأمير المؤمنين، ومنها إقامة الجسور والطرق وحفر الترع وإرشاد الضال. في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له» أي رضي فعله وقبله منه وأثنى عليه. وفي صحيح مسلم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا نبي الله علمني شيئاً أنتفع به، قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين» الأبيّ: عزل الأذى عن الطريق من شعب الإيمان، ويلحق بالشوك كل مؤذ من حجر يعثر به أو جيفة أو قذر أو غير ذلك ويدخل فيه كل من أدخل نفعاً على المسلمين أو أزال عنهم ضرراً لأن ذلك من النصيحة الواجبة للمسلمين بعضهم على بعض التي بايع النبي ﷺ أصحابه على النصح لكل مسلم في حضرته وغيبته فيما يرجع لدينه ودنياه اهـ ومنها إقامته والياً للحسبة ومنها استقضاء القضاة في الأمصار.

قضاؤه

كان رضي الله عنه يتولى القضاء بنفسه وينيب غيره لما هو معروف من أن القضاء في الإسلام وظيفة من وظائف الإمام له أن يتولاها بنفسه وأن ينيب بها عند الحاجة غيره؛ وكان تحريه للعدالة في انتخاب القضاة كتحريه في انتخاب الولاة لا يراعي في كليهما إلا الأهلية والاستعداد والتقوى والعدل ويعلم أن إثم الظالم إذا ظلم على موليه، فقد أخرج ابن الجوزي في المناقب عن عبد الملك بن عمير قال: قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه: من استعمل رجلاً لمودة أو لقرابة لا يستعمله إلا لذلك فقد خن الله ورسوله والمؤمنين.

وكما كان يتحرى في انتقاء العمال والقضاة التقوى والعدالة يتحرى العلم والمعرفة والذكاء وكان لا يحب تعجيل الفصل في الخصومة رجاء أن يصطلح الخصمان وتمحى آثار الضغائن من النفوس. ففي كنز العمال عنه رضي الله عنه أنه قال: رددوا الخصوم حتى يصطلحوا فإن فصل الخصومة يورث الضغائن بين الناس.

كتابه في القضاء إلى أبي موسى الأشعري

اعلم أن الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا. فصاحب الشرع يتصرف في الأمرين: أما في الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية التي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها؛ وأما في سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشرى وهو ضروري للبشر وأن رعايته مصالحه كذلك لئلا يفسد إن أهملت. وتصرفه الديني يختص بخطط ومراتب لا تعرف إلا للخلفاء الإسلاميين، منها: الصلاة والقضاء والجهاد والحسبة. وأول خليفة دفع القضاء لغيره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحاً بالبصرة وكتب إليه كتاباً تركنا إيراده هنا اختصاراً وولى أبا موسى الأشعري بالكوفة وكتب له الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاء ونصه:

أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك، وانفذ إذا تبين لك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وسوّ بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس وراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه إلى الحق فإن الحق قائم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم الفهم عند ما يتلجلج في صدرك ما ليس في كتاب ولا سنة اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ للعذر، المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو قرابة فإن الله سبحانه قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات، وإياك القلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر فإنه مَن يخلص نيته فيما بينه وبين الله تعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ومَن تزين للناس بما يعلم الله خلافه هتك الله ستره وأبدى فعله. اهـ بعد التحري.

وقد نقل هذا الكتاب غير واحد منهم ابن خلدون والتسولي والبيان والتبيين.

وله رضي الله عنه كتب كثيرة بارعة وخطب عزيزة غزيرة نافعة تركنا ذكرها اختصاراً.

إلى هنا انتهى ما أردت إيراده من أخبار عمر رضي الله عنه. ومنها تعلم كيف كان هذا الرجل العظيم والشهم الهمام الفخيم فيتمثل لك في صورة من النور وجسم من الفضيلة والكمال وعلم من أعلام الرجال الذين تفتخر بحياتهم الأمم ويقتدي بسيرتهم أرباب الهمم، فالجد والصبر والثبات والجلد والقوة والعدل والتقوى والتواضع والرفق والحلم والبصيرة والرأي كلها أخلاق قلّ أن تجتمع في عدد عديد من الرجال وقد اجتمعت في عمر بن الخطاب وكل أخلاقه تكاد تكون فطرية لا يظهر عليها شيء من التصنع والتكلف وأخباره كثيرة لا يمكن استقصاؤها.

وكانت فيه خلال رضي الله عنه جعلت الأمة تحبه فقد عرفوا منه قبل كل شيء أنه فنى في مصلحة أمته لا يهمه في أمر نفسه شيء إلا أن يكون مع الله في جميع أمره لا يرى لنفسه حقاً أن يتمتع في هذه الدنيا بأكثر مما يتمتع به أفقر رجل من

أمته، تجد ذلك في مأكله وملبسه ومشربه، ثم عرفوا منه أنه للعامة قبل الخاصة يكل هؤلاء إلى ما لهم من الحول والحيلة في الحياة الدنيا ويقبل على عامة الناس وضعفتهم فيقويهم ويسودهم وينظر في صغار أمورهم وكبارها، لا يبالي بما يصيبه من تعب الجسم فيما هو بسببه، لذلك كانت قوة الأمة معه، وعرفوا منه أيضاً خلالاً أدّبه فيها القرآن وهي: الحق والعدل والصدق والصبر على البأساء والضراء والوفاء بالعهد وهي صفات تحلّى بها عمر رضي الله عنه فأتعب من بعده، وكان من أخص صفاته الجد المصحوب بالحزم مع التأني في الأمور والاستشارة في جليلها وصغيرها، لهذا من تتبع سيرته لا يراه فشل في أمر من الأمور، من ذلك الفتح العظيم الذي كان على عهده الذي توفق إليه صاحبه من أول عهده بالخلافة إلى وفاته. وسبب هذا التوفيق هو الجد والحزم وعدم التردد في الأمر وتمحيص الأشياء، شأن كل رجل عظيم يريد ما يقول وينال ما يريد، ولو بحثنا في التواريخ القديمة والحديثة لوجدنا في كل أمة رجلاً أو رجالاً من رجال السياسة والحرب تفتخر بهم لكن ليس من هؤلاء الرجال من اجتمعت فيهم الخصال السامية والأخلاق الحميدة التي اجتمعت في عمر رضي الله عنه.

نعم إن من مشهوري الرجال رجالاً أسسوا ملكاً عظيماً أوسع من ملك عمر وافتتحوا من الممالك ما لم يفتحه ونالوا من السيادة على الشعوب الكثير فوق ما نال، لكن هل كان منهم مَن كان كعمر جباراً غير ظالم كريماً غير مسرف عادلاً لا عن ضعف شجاعاً غير متهور قنوعاً غير شره زاهداً بغير تصنع حليماً من غير جبن تقياً غير متنطع؟ كلا لا سيما إذا نشأ بين قوم كقومه حالهم من البداوة معروف. والحاصل أن التاريخ حكم عدل وقد جاء تاريخ عمر حافلاً بالخصال الحميدة والأمور الجسام التي جعلته سابقاً على كل من أتى بعده وجعلت كبار أصحاب رسول الله ﷺ يشعرون بأن الإسلام فقد بفقده أثبت أركانه.

وفاته رضي الله عنه

استشهد رضي الله عنه من طعنة بخنجر من أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة وقت صلاة الغداة روى المؤرخون أنه شكا إلى عمر ارتفاع الخراج الذي ضربه عليه مولاه المغيرة ورجاه في تخفيفه واختلف المؤرخون في جواب عمر رضي الله عنه فقال بعضهم إنه وعده خيراً وعزم أن يذاكر المغيرة في تخفيف الخراج عنه. وهناك روايات أخرى تختلف في جوهرها عن هذه، ويؤخذ من أقوال المؤرخين أن قتل عمر لم يكن نتيجة حقد الغلام عليه وعدم تخفيف الخراج عليه ولكنه كان نتيجة

مؤامرة سياسية كان أكبر العاملين فيها الهرمزان وجفينة وكعب الأحبار الذين حقدوا على عمر تدويخه لبلادهم مما هو مفصل في التاريخ وقد اصطنعوا أبا لؤلؤة لتنفيذ غرضهم.

في العقد الفريد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخلت على عمر في أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدم وعنده جماعة من أصحاب النبي ﷺ فقال له رجل: ليس عليك بأس، قال: لئن لم يكن على اليوم ليكونن بعد اليوم، وإن للحياة نصيباً من القلب وإن للموت لكربة وقد كنت أحب أن أنجي نفسي وأنجو منكم وما كنت من أمركم إلا كالغريق يرى الحياة فيرجوها ويخشى أن يموت دونها فهو يركض بيديه ورجليه وأشد من الغريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول ولقد تركت زهرتكم كما هي ما لبستها فأخلقتها وثمرتكم يانعة في أكمامها ما أكلتها وما جنيت ما جنيت إلا لكم وما تركت ورائي درهماً ما عدا ثلاثين أو أربعين درهماً ثم بكى وبكى الناس معه فقلت: أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد مات رسول الله ﷺ وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وإن المسلمين راضون عنك، قال رضي الله عنه: المغرور والله مَن غررتموه أما والله لو أن لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطمع.

وفيه عن هشام بن عروة عن أبيه قال: لما طعن عمر قيل له: أمير المؤمنين لو استخلف قال إن تركتكم فقد ترككم من هو خير مني وإن استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته فإن سألني ربي أقلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ولو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول إن سالماً يحب الله حباً لو لم يخفه ما عصاه قيل له لو أنك عهدت إلى عبد الله فإنه أهل في دينه وفضله وقديم إسلامه قال: فحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ولوددت أني نجوت من هذا الأمر كفافاً لا لي ولا علي ثم قالوا: يا أمير المؤمنين لو عهدت فقال: كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أولي رجلاً أمركم أرجو أن يحملكم على الحق وأشار إلى علي بن أبي طالب ثم رأيت أن لا أتحملها حياً ولا ميتاً فعليكم بهؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي ﷺ أنهم من أهل الجنة وذكر السبعة واستثنى من الشورى سعيد بن زيد وقال عن الستة فليختاروا منهم رجلاً فإذا ولوكم والياً فأحسنوا مؤازرته ـ أي معاونته ـ.

وروي أنه لما ثقل قال لابنه عبد الله: ضع خدي على الأرض، فوضعه على الأرض فجعل يقول: ويلي وويل أمي أن لا يغفر لي ربي، ثم مات، ولما توفي صلي عليه في المسجد وحمل على سرير رسول الله ﷺ ودفن بجنب أبي بكر وغسله ابنه عبد الرحمٰن وصلّى عليه صهيب وكان تقدم قبل ذلك علي وعثمان للصلاة عليه فقال عبد الرحمٰن: لا إله إلا الله ما أحرصكما على الإمرة أما علمتما أن أمير المؤمنين قال: ليصلِّ بالناس صهيب.

وفي أسد الغابة روى أبو بكر بن إسماعيل بن محمد بن سعد قال: طعن عمر يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة 23 ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة 24 وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وواحداً وعشرين يوماً وقال غيره: هذا وهم، توفي لأربع ليال بقيت من ذي الحجة وبويع عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة وكانت ولادته بمكة سنة 37 قبل الهجرة.

وصيته لمن يخلفه

أخرج ابن الجوزي وغيره من الحفاظ والمحدثين عن ابن عمر أنه قال: دفع إليّ عمر كتاباً فقال: إذا اجتمع الناس على رجل فادفع إليه هذا الكتاب واقرأه مني السلام فإذا فيه أوصى الخليفة من بعدي بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين الأولين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أن يعرف حقهم ويحفظ لهم كرامتهم وأوصيه بالأنصار خيراً ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وأن يشركوا في الأمر وأوصيه بذمة الله وذمة محمد ﷺ «وهم أهل الذمة» أن يوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم يقاتل من وراءهم «أي يحميهم» اهـ.

هكذا كانت حياة هذا الرجل العظيم الطاهر السريرة الذي فتح الممالك ورفع منار الإسلام وبسط العدل وبثّ روح الجد والنشاط في العرب وأسس لهم ذلك الملك العريض وفلّ بهم جيوش فارس والروم ورباهم على العفاف وكف يد الظلم واحترام العهود والوفاء بالذمة كما أمر به الإسلام وقررته شريعة محمد عليه الصلاة والسلام سعدت بحياته الرعية ودخل الأمم في طور جديد من الحرية والعدل والأمن والراحة وبلغ به الحرص على ذلك البذار الطيب الذي بذره في المسلمين الذي يدل على الهمة العالية والشيم الطاهرة والأخلاق البارة التي اكتسبها من النبي عليه الصلاة والسلام فكان خير قدوة للمسلمين وذكرى الفخر الخالد لهم بين الناس أجمعين.

الحالة الاجتماعية على عهده

كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر غيرها على عهد أبي بكر رضي الله عنهما إذ توطد على عهد الثاني للمسلمين الملك وشيدت دعائم الدولة وصارت تلك الأمة العربية المشهورة بالانقسام والتفرق والجهل بأمور الدولة والانغماس في الجهالة وسذاجة الفطرة سائسة ملك وربة سطوة ومجد ومقننة قانون وصاحبة دين جعلها أمة تذكر في التاريخ بأنها أعظم الأمم وكانت تلك الحياة العربية والجامعة الملية مع أنها بادية الظهور تنمو بسرعة وتؤذن بانقلاب عظيم يحدث في أنحاء العالم وتهتز له أركان الدول العظمى يومئذ حيث اندفعت هذه الأمة بقوة الجامعة الإسلامية والاتحاد القومي على أطراف الممالك المجاورة لها وهي فارس والروم على نحو ما تقدم ذكره.

ثم خالط العرب تلك الأمم ودال إليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة الحضارة واستشعروا بلزوم الحالة المدنية للأمم الغالبة وليس لديهم من ذلك إلا الاستعداد الفطري لقبول الخير والشر والشرع الإلهي الذي دعاهم إلى الخروج من ظلمات البداوة فأخذوا بحكم الضرورة يقلدون مجاوريهم في العادات وبدأوا يبارزونهم في مضمار الحياة وكان مطمح نظرهم وأول عملهم بالطبع تقليد مجاوريهم في الأمور الحربية واستعمال آلات القتال الفارسية والرومية ليقابلوا القوة بمثلها ويعدوا لهذه الفتوح عدتها ثم تطرقوا من ذلك إلى الأمور السياسية والإدارية فوضع الخليفة التاريخ ودوّن الدواوين ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الأعمال وانتقاء العمال ثم فرض الأعطيات وقرر مصروف الفيء في غير سرف ولا تقتير ونشر جناح الأمن وأقام ميزان العدل وقرر أصول الجباية بلا إجحاف في حقوق الرعية ولا غبن للدولة فعمّ الرخاء وبدت مظاهر العمران تتجلى في أنحاء المملكة وانهال الغنى والثروة على الفاتحين وخطوا خطى خفيفة إلى ميدان الراحة والنعيم مع الأخذ على الشكائم والتخوشن في المأكل والملبس والتوسط في العيش والقصد في الإنفاق والإمساك عن البذل خوف الأخذ على أيديهم من عمر رضي الله عنه كما أخذ على يد خالد بن الوليد إذ وصل بعشرة آلاف من الدراهم شريفاً من أشراف العرب هذا من وجه ومن وجه آخر فإن عمر رضي الله عنه لم يدع للعرب بعد إذ دفع بهم في غمار الحضارة وقذف بهم في مضمار الحروب وقتاً للإخلاد إلى الراحة والإيواء إلى ظل التنعم والسكون تحت كنف الأمصار بل شغلهم عن ذلك بالفتح وألهاهم بادخار الغنائم عن التمتع بها ريثما يأمن غائلة الأمم المغلوبة وله بهذا مآرب أخرى وهي

إشغال العرب بالحرب وزجهم في مضمار الفتح ليأنسوا بأصول الاجتماع والحضارة وتتبدل أخلاقهم الجافية وتزول من نفوسهم أسباب التنافر والانتماء إلى العصبية الداعية إلى الشقاق والفرقة.

بسط المسلمون على عهده يد السلطة على الشرق واستفتحوا أغلاق الكنوز وملكوا ما ملكوا من البلاد ومع هذا فلم تأخذهم الدنيا بزخارفها ولم يغرهم الغنى والسلطان بالنعيم ولم يبطرهم المال ولم تخط بهم الحضارة إلا خطى قليلة إلى الأمام فكانوا وسطاً في المعيشة في كل الأمور لأن عمر رضي الله عنه يريدهم على البطء في السير في طريق الترقي ويحملهم على التوسط في العيش فلا يمنعهم منعاً ولا يدفعهم دفعاً اللهم إلا الأمراء والعمال فإنه كان يحملهم على طريقته في التقشف وشظف العيش. وبالجملة فإن الحالة الاجتماعية على عهد عمر رضي الله عنه على حداثة عهد أهلها في تسنم ذرى الارتقاء تمثلها سيرته في قالب الجد والاستقامة والعزيمة وتظهرها لديك في مظهر النهوض إلى ارتقاء قمم المجد التي انتهى إليها المسلمون فيما بعد بسيرهم سيراً حثيثاً مدة تزيد عن جيلين وقفوا بعدها وقفة المستريح من وعثاء السفر الشاق المتلذذ بجني ثمرات الجد والنشاط والعمل وهكذا حتى تغير الحال وانقلب الجد والنشاط إلى فتور وإهمال.

فضائل عثمان[1] رضي الله عنه

هو الخليفة الثالث أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان القرشي الأموي. تقدم ذكر نسبه في صدر المقصد يكنى أبا عمرو وأبا عبد الله لم يختلف في صحة خلافته وكان من حديثها ما هو مسطر في كتب السنة وغيرها في البخاري في باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان عن عمرو بن ميمون ونص محل الحاجة منه قال: قال عمر رضي الله عنه لابنه عبد الله: انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي ولأؤثرنه به اليوم على نفسي. فلما أقفل قيل:

(1) ترجم لعثمان بن عفان رضي الله عنه في تاريخ الطبري: 2/ 589 ـ 696، صفة الصفوة: 1/ 123 ـ 129، تذكرة الحفاظ للذهبي: 1/ 8 ـ 10، الإصابة: 4/ 223 ـ 224، تهذيب التهذيب: 7/ 139.

هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك؟ فقال: الذي تحب يا أمير المؤمنين أذنت، قال: الحمد لله ما كان شيء أهم إلي من ذلك فإذا أنا قُبضت فاحملوني ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين، وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجل فولجت داخلاً لهم «أي مدخلاً كان في الدار» فسمعنا بكاءها من الداخل فقالوا: أوصِ يا أمير المؤمنين استخلف، قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمٰن وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له فإن أصابت الإمرة سعداً فهْو ذلك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة. وقال: أوصى الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يأخذ من حواشي أموالهم وترد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم. فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلّم عبد الله بن عمر قال: يستأذن عمر بن الخطاب، قالت: أدخلوه، فوضع هناك مع صاحبيه فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمٰن: اجعلوا إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمٰن بن عوف فقال عبد الرحمٰن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه ـ أي رقيب ـ وكذا الإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه فسكت الشيخان فقال عبد الرحمٰن: أتجعلونه إلي والله على أن لا آلو عن أفضلكم قالا نعم فأخذ بيد أحدهما فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت بالله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن. ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك. فلما أخذ الميثاق فقال: ارفع يدك يا عثمان فبايعه وبايع له عليّ وولج أهل الدار فبايعوه.

كان رضي الله عنه من السابقين للإسلام هاجر الهجرتين وصلّى القبلتين يقال له ذو النورين لأنه تزوج ابنتي رسول الله ﷺ رقية فلما ماتت زوّجه أم كلثوم فلما ماتت قال: لو كان عندي ثالثة لزوجتكها وهو أحد العشرين المبشَّرين بالجنة ومن أصحاب

النبي ﷺ الذين توفي وهو عنهم راض وكان في قريش يوصون إليه ويعظمونه وكانت المرأة في العرب لترفع صبيها وهي تقول:

أحـبـك والـرحـمٰـن   حـب قـريـش عـثـمـان

وكان عادلاً في بيت المال لا يأخذ لنفسه منه شيئاً لأنه كان غنياً وغناه مشهور في حياة النبي ﷺ وبعده كثير الإنفاق في نهاية الجود والسماحة والبذل في القريب والبعيد وكان من أكبر المساعدين للنبي ﷺ بكثير من ماله عند شدة احتياج الإسلام إليه ومآثره في ذلك مشهورة جهز في جيش العسرة ثلاثمائة بعير بأسلاحها وأقتابها وأنـزل الله فيـه ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: 262] روى الحكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: اشترى عثمان الجنة من النبي ﷺ مرتين حين حفر بئر رومة وحين جهز جيش العسرة ولما قدم النبي ﷺ المدينة لم يكن بها ماء مستعذب غير بئر رومة فقال ﷺ: مَن يشتر بئر رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة؟ فاشتراها عثمان رضي الله عنه بخمسة وثلاثين ألف درهم وجعلها للمسلمين وكانت بقعة إلى جنب المسجد فقال النبي ﷺ: مَن يشترها ويوسعها في المسجد فله مثلها في الجنة. فاشتراها عثمان رضي الله عنه بعد ذلك فوسعها في المسجد وقال ﷺ: رحم الله عثمان تستحيه الملائكة وكان كثير العتق للرقاب وجملة ما أعتقه ألفان وأربعمائة وكان يطعم طعام الإمارة ويدخل بيته ويأكل الخل والزيت وينام في المسجد ورداؤه تحت رأسه ويخطب الناس وعليه رداء غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة يصوم النهار ويقوم الليل ويختم القرآن في ليلة. كان ذا عقل رصين وشرف أثيل وعلم غزير ولم ينقل عنه الكثير منها لاشتغاله بغير ذلك شديد الحياء والحلم مائلاً إلى السلم زاهداً في الدنيا فقد صحّ عنه ﷺ أنه قال: «رحمك الله يا عثمان ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك»[1].

ومن أعظم آثاره جمعه الناس على مصحف واحد بعد أن تعددت القراءات واختلف فيها أهل الأمصار. وفضله في ذلك كفضل أبي بكر رضي الله عنه في جمع القرآن وقد مرّ بيان ذلك في مقدمة هذا المؤلف وكثرت الفتوحات في مدته فقد فتح إفريقية وسواحل الأردن وسواحل الروم وإصطخر وطبرستان وسجستان والقوقاز وغير

---

(1) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في كتاب حلية الأولياء: 1/ 105 دار الكتاب العربي 1405 ط الرابعة، لكن هذه الرواية قيلت في عثمان بن مظعون وليس عثمان بن عفان. انظر الحلية.

ذلك من الأقطار والأمصار وكثرت أموال الصحابة في خلافته حتى بيعت جارية بوزنها وفرس بمائة ألف ونخلة بألف. قال الحسن البصري: كانت الأرزاق في زمن عثمان وافرة وكان الخير كثيراً وظهر الرفه الكثير في الأمة بما لم ير مثله، لم يحضر بدراً بإذن من النبي ﷺ ولا بيعة الرضوان وذلك لما أرسله رسول الله ﷺ إلى أهل مكة رسولاً ليخلوا بينه وبين العمرة وجاءه الخبر الكاذب بأن عثمان قتل فجمع أصحابه فدعاهم إلى البيعة فبايعوه على قتال أهل مكة يومئذ ثم جاءه الخبر بأن عثمان لم يقتل وهذا يدل على مكانته عنده وحبه له. أخرج الترمذي عن أنس قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسولَ رسول الله ﷺ إلى أهل مكة فبايع الناس. فقال النبي ﷺ: «إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله»[1] فضرب بإحدى يديه على الأخرى فكانت يد رسول الله ﷺ خيراً من أيديهم لأنفسهم.

إلا أنه رضي الله عنه كبر سنه وضعف جسمه وكان له ثقة في قرابته بني أمية فتغلبوا على أمره وتولوا أعظم الولايات وانتفعوا وراء ذلك بسعة العيش ووجاهة في الدولة حسدها عليهم غيرهم، فوجدت الجمعيات السرية التي كانت تكيد الإسلام بالطعن فيه مع استغنائه ببني أمية عن مشاورة أكابر المهاجرين والأنصار ونقم الطاعنون عليه أشياء بعضها لها مخرج وبعضها مكذوب عليه ذكرها الأبي في شرح مسلم؛ ولجماعة من العلماء كلام طويل الذيل في الاعتذار عن عثمان منهم حافظ الحجاز المحب الطبري في كتباه الرياض النضرة في فضائل العشرة ومنهم محمد بن يحيى الأشعري المعروف بابن بكر في كتابه التمهيد والبيان في مقتل عثمان استوفى فيه الكلام على ما نسب لعثمان من الأحداث وبين كل ما يمكن الاعتذار عنه من تلك الأحداث التي تسبب عنها حصره في داره وطلبوا منه التخلي عن الخلافة فامتنع واستشهد رضي الله عنه لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وكانت خلافته ثنتي عشر سنة إلا اثني عشر يوماً وكان عمره اثنين وثمانين على أحد الأقوال. أخرج الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة يقتل فيها هذا مظلوماً لعثمان رضي الله عنه[2]. وأخرج أيضاً: أن النبي ﷺ قال

(1) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه حديث (3722) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من رواية أنس بن مالك، والحاكم في مستدركه حديث (4538) 3/ 104.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب في باب مناقب عثمان حديث (3728).

لعثمان: «إن الله مقمصك قميصاً فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني»[1] فلما حصره المنافقون وأرادوا منه أن يخلع نفسه امتنع لهذا الحديث وقال إن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهداً فأنا صابر عليه. قال الأبي نقلاً عن ابن العربي: كانت قتلة عمر مصيبة في الإسلام خاصة وقتلة عثمان مصيبة في الإسلام عامة عزاؤها المصيب برسول الله ﷺ. قتل رضي الله عنه ورحمه وطالبوه أربعة آلاف وفي المدينة أربعون ألفاً كلهم لا يريد قتله ويريد نصره لكن منع الكل واستسلم الأمر للعهد الذي كان من رسول الله ﷺ ولم يرض أن يراق بسببه دم ورضي أن يكون عند الله المظلوم ولا يكون عنده الظالم وكل من في المدينة بريء من دمه إلا أربعة آلاف المكاشفين بالحصار والإنكار وما أنكروا إلا معروفاً. وقد وصف المؤرخون في كتبهم أخبارهم فحذاراً أيها الرهط المتطلبون العلم أن تعولوا على تاريخ فإنكم تلاقون الله متقدمين في الجهل متأخرين في العلم.

الحالة الاجتماعية على عهده

لما استكمل الفتح على عهده ونزع الناس بالضرورة على طلب الراحة وأخذوا بقسطهم من السيادة على الشعوب وجاوروا المترفين من أهل المدن واستخشنوا عيش البداوة واستغلوا ثمرة الضرع دون الحرث والزرع، وكان عثمان رضي الله عنه ليس من الشدة عليهم والأخذ على شكائمهم بالمكانة التي كانت لعمر قبله طمحت إلى ذلك نفوسهم واتجهت بمجاورة الشعوب الأخرى رغائبهم فاستقطعوا من عثمان القطائع واستأذنوه في استثمار الأرضين التي جلا عنها أصحابها فأقطعهم إياها فقاموا على حرثها وأخذوا باستثمارها. روي أن عثمان لما ولى معاوية على الشام والجزيرة أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعتمال الأرضين التي لا حق فيها لأحد، فأنزل بني تميم الرابية وأنزل المازحين والمديبر أخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم وفعل ذلك في جميع ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك وألزم المدن والقرى والمصالح مَن يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم مع عماله، وفي ذلك دليل على تدرج القوم في مدارج الرقي وجنوحهم إلى الكسب من طرق التجارة والفلاحة وميلهم إلى الاستعمار، وكان عثمان غنياً جداً محباً للعمران ميّالاً إلى التأنق في المعيشة والتداول في البنيان وإنفاق المال في وجوه البذل ليوسع على الناس وخصوصاً على أهله وقرابته فقد

---

(1) أخرجه الترمذي في المرجع السابق حديث (3725) وقال: هذا حديث حسن غريب.

ماشاه الناس في ذلك وساروا سيرته فيه، وكانوا في عصر عمر لا يجرأون على اقتناء الضياع والدور والإكثار من مظاهر الثروة والغنى مع إقبال الدنيا عليهم كما هي في عهد عثمان فقد بنى لنفسه ولنسائه وأولاده بضع دور بالمدينة وشيّد داره بالحجارة والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر وبنى مسجد رسول الله ﷺ بالعمد المرفوعة وتأنق في بنائه واقتنى الدور والضياع والجنات والعيون بالمدينة وأظهر بهذا أثر النعمة التي أنعمها الله على العرب وتبعه الناس في ذلك وتظاهروا بمظهر الغنى وجنحوا إلى الحصول على المال والتنعم في المعيشة، فاقتنى سعيد بن العاص ومروان بن الحكم القصور خارج المدينة وأخذ كبار الصحابة في ذلك بمذهبه، ذكر المسعودي منهم جماعة اقتنوا الضياع والدور وماتوا على مال كثير ونعم وفيرة، منهم الزبير بن العوام بنى داراً بالبصرة وداراً بمصر ومثلها بالإسكندرية والكوفة واقتنى كثيراً من المال والضياع حتى ضرب المثل بغناه وأكثرها كانت من التجارة لأنه كان تاجراً محظوظاً، وكذلك طلحة بن عبيد الله وكانت ثروته من التجارة أيضاً، وكذلك عبد الرحمٰن بن عوف وزيد بن ثابت ويعلى بن أمية، وأنهم بنوا الدور وشيّدوا القصور وتركوا أموالاً وضياعاً كثيرة وأن سعد بن أبي وقاص ابتنى داراً بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها ومثله فعل المقداد بداره بالجرف على أميال من المدينة وهذا دليل على سرعة انتقال القوم من حال إلى حال في عصر عثمان وجنوحهم إلى التنعم بنعيم الحضارة وهو أثر محمود من آثار الشكر للمنعم إذا لم يتجاوز حد القصد إلى السرف ولم يتناول كل الطبقات ولم يتدرج منه الناس إلى المنكرات. ومما لا ريب فيه أن عصر الصحابة مهما انطلق أهله في مجال السعة والنعيم لا يتجاوزون الحد الشرعي ولا يأخذون بغير المباح وقد فاضت عليهم الدنيا وكثر لديهم المال فلا بد من صرفه في وجوه التنعم بما أحله الله من الطيبات دون المنكر والشهوات. استكمل الفتح في عهد عثمان ودال للعرب ملك فارس وصارت إليهم سياسة الممالك فساروا في الناس سيرة جميلة أمر بها الإسلام وسلكوا من العدل والحق طريقاً توخاه الخلفاء وتبعهم فيها الولاة والأمراء، فازدهى أمر الدولة الجديدة وعمت كلمة العدل وكثر المال وامتد رواق العمران وراجت التجارة وتصاعدت أثمان السلع والعقار وكل ما يباع ويشترى بنسبة كثرة النقد، فبيعت جارية بوزنها وفرس بمائة ألف درهم ونخلة بألف درهم. نقل هذا المحب الطبري في الرياض النضرة عن ابن سيرين. هذا غاية ما تصل إليه الممالك في ترقي العمران وتوفي أسباب الكسب ونمو الثروة بين طبقات الناس فبينما العرب في مثل هذا الرخاء والرغد من العيش يتمتعون بما أفاء الله عليهم من تراث الأمم ويتسنمون ذرى الحضارة ويتبسطون في العيش ويسيرون سيرهم الحثيث في الفتح ويرفعون لأخلافهم بنيان المجد والدنيا مقبلة عليهم وملك الفرس والروم صار إليهم وعثمان

في مأمن من رأفته بهم ولينه عليهم إذ صاح بهم صائح الفتنة فاستوقفهم عن سيرهم ثم قذف بهم في لج من التخاصم ما بلغوا ساحله إلا وهم أحزاب متفرقة وشيع متباينة. فكان عصر عثمان بهذا عصراً جمع بين الأضداد من الرخاء والشدة والراحة والتعب والغنى وضده والقوة والضعف ومنها بدأت سلسلة الأحزاب السياسية والدينية والجمعيات السرية والجهرية وإليه ينتهي تاريخ الانقلاب العظيم الذي طرأ على الدول الإسلامية وحول مجرى السياسة عن وجهتها الأصلية. إن الدول إذا قامت في أول نشأتها بقوة الحياة الملية والتناصر القومي ونشأت على أساس الوحدة في الاعتقاد والفكر بين أصناف الأمة وأخذت عى نفسها إنصاف المغلوبين لها الخاضعين لسلطانها من الشعوب الأخرى قلّ أن تتعرض لخطر الضعف والانحلال العاجل بما يعرض لها من الفتن أو يظهر فيها من الأحزاب والشيع لهذا فإن اضطراب الدولة وتفرق أغراض الأمة في عهد عثمان لم يؤثر على مركز الدولة في أرجاء ممالكها القاصية والدانية ولم يقلل من سطوة الخلافة بين الدول المتاخمة والأمم المغلوبة بل كأن الأمم استشعرت من تلك الضوضاء القائمة أنها نتيجة حياة قومية ونشاط عظيم يراد بها تمحيص الحق وتدعيم أمر الخلافة فلبثت على الحياد تنتظر غاية الأمر ولا تمد إلى الدولة يد الغدر حتى انجلت الفتنة عن قتل عثمان وقيام علي والأحزاب الأخرى ثم مصير الخلافة إلى بني أمية ولولا ما حبب إلى الناس من خلافة الراشدين وما بهرهم من قوة أولئك الفاتحين لربما كانت اشتعلت المملكة يومئذ ناراً واستفز الطيش الأشرار، لكن الملك الذي ينهض بالعدل، والدولة التي تقوم على الأساس الذي ذكرنا لا يزعزعها تفرق المالكين إلى أحزاب وشيع ولا يطمع في جانبها الطامعون.

فضائل علي[1] القرشي الهاشمي رضي الله عنه

هو الخليفة الرابع أمير المؤمنين سيدنا أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً أصغر أولاد أبي طالب الثلاثة جعفر وعقيل وطالب. ولد قبل البعثة بعشر سنين على الراجح وأسلم وهو ابن عشر سنين على الراجح واتفق الجمهور على أنه أول مَن أسلم من الصبيان لحديث «أولكم وارداً على الحوض أولكم إسلاماً علي بن

(1) ترجم له في: الاستيعاب لابن عبد البر: 3/ 1089 ـ 1133، صفة الصفوة: 1/ 130 ـ 141، الإصابة: 4/ 269.

أبي طالب»[1] وعن علي قال: «عبدت الله تعالى قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة بخمس سنين» وعنه «ما كان يصلي مع رسول الله ﷺ غيره غيري خديجة».

بويع بالخلافة في اليوم الذي قتل فيه عثمان واجتمع على بيعته أهل الحل والعقد من المهاجرين والأنصار وتزاحم الناس عليه وتخلف عن بيعته معاوية في أهل الشام والتحمت بينهما حروب لم يسمع بمثلها في الإسلام ولم يزل له فيها الظهور على الفئة الباغية إلى أن وقع التحكيم وخدع فيه وحينئذ خرجت الخوارج فكفروه وكفروا من معه وقالوا: حكمت الرجال في دين الله والله يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ثم اجتمعوا وشقوا عصى المسلمين ونصبوا راية الخلاف فسفكوا الدماء فخرج إليهم بمن معه وطلبهم إلى الرجوع فأبوا إلا القتال فقاتلهم بالنهروان واستأصل جميعهم ولم ينج منهم إلا اليسير فانتدب إليه رجل من بقية الخوارج يقال له عبد الرحمٰن بن ملجم فدخل عليه فقتله في التاسع عشر من رمضان سنة أربعين وقصة استشهاده مشهورة فهو رضي الله عنه أحد العشرة المبشَّرين بالجنة وأحد ستة الشورى وأحد العلماء الربانيين والشجعان والزهاد والخطباء والشعراء، ومناقبه وما أوتيه من الاجتهاد والفهم معلوم. وكان صاحب شورى عمر في أقضيته وكذلك كان مع أبي بكر وعثمان وكان عمر يتعوّذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن وفي البخاري أحاديث سبعة في فضائله منها حديث عمر «عليّ أقضانا» ومنها حديث قتاله البغاة «تقتل عماراً الفئة الباغية» وكان عمار مع علي ومنها حديث قتاله الخوارج وهذان الحديثان من علامات النبوة. قال الحافظ ابن حجر بعد نقله ما ذكر وأوعب من جمع مناقبه من الأحاديث الجياد النسائي في كتاب الخصائص وأما حديث «من كنت مولاه فعلي مولاه»[2] فقد أخرجه الترمذي والنسائي وهو كثير الطرق جداً وقد روينا عن الإمام أحمد قال: ما بلغنا عن أحد من الصحابة ما بلغنا عن علي. ويروى من فضائله قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[3] قال مسروق: شافهت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم ينتهي إلى ستة علي وعبد الله بن

---

(1) أخرجه الحاكم في مستدركه حديث (4662) 3/ 147 من رواية سلمان رضي الله عنه، والتمهيد لابن عبد البر: 2/ 305 مطبعة وزارة الأوقاف، المغرب.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب مناقب علي رضي الله عنه، حديث (3733) والنسائي في السنن الكبرى باب 4 فضائل علي رضي الله عنه بإسناد مختلف: 9/ 8145.

(3) أخرجه الحاكم في مستدركه برواية ابن عباس حديث (4637) 3/ 137 وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (أي البخاري ومسلم) والطبراني في المعجم الكبير حديث (11061) 11/ 65 وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات: 1/ 350 وهذا الحديث تعقبه الذهبي فقال: موضوع.

مسعود وعمر وزيد بن ثابت وأبي الدرداء وأبي بن كعب، ثم شافهت الستة فوجدت علمهم ينتهي إلى علي وابن مسعود. شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ إلا تبوك فإنه استخلفه فيها على المدينة وقال له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[1] وفي البخاري «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى» وزوّجه ﷺ ابنته فاطمة سيدة أهل الجنة، ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 12] قال النبي ﷺ: «اللهم اجعلها أذن علي» قال علي رضي الله عنه: ما نسيت بعد ذلك شيئاً. وله من العلم والشجاعة والحلم والزهد والورع وكرم الأخلاق ما لا يسعه كتاب. وبالجملة فإن فضائله كثيرة قد جمعها الناس ودوّنوها وأجمعها لنعته ما وصفه به ضرار الصدائي إذ قال له معاوية: صف لي علياً، فقال: اعفني يا أمير المؤمنين، قال: لتصفنه، قال: أما إذا لا بد من وصفه: «فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يتوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، كان منبئاً كأحدنا يجيبنا إذا سألناه وفينا إذا استنبأناه، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له، يعظم الدين ويقرب المساكين، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله. وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ـ أي اللديغ ـ ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا غري غيري، إليّ تعرضت أم إلي تشوفت؛ هيهات هيهات قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير وحظك قليل، آه آه من قلة الزاد وبُعد السفر ووحشة الطريق». فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ فقال: حزن مَن ذبح ولدها في حجرها.

الكلام على الفتنة

اعلم أن الفتنة المذكورة هي فتنة عثمان وعلي وطلحة والزبير ومعاوية التي تحزّب فيها المسلمون أحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون وهي الفتنة التي يقف دونها عقل الحكيم حائراً بين الإقدام على خوض عبابها واستكناه كنه خباياها وبين الإحجام عنها وإلقاء أخبارها على علاتها وغض الطرف عما انطوى في ثناياها لا لأنها أول بادرة بدرت في الملك وفتنة ظهرت في الدول كلا إن قيام الدول واستصفاء الملك إنما يتم

(1) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل علي رضي الله عنه حديث (2404) والترمذي حديث (3752) كتاب المناقب، مناقب علي رضي الله عنه.

بوجود أحزاب ينصرون النازع إلى الملك وأعوان يتبعون القوة أو يناضلون عن صاحب الحق في كل قوم وعصر وإنما صبغ السلف لهذه الفتنة بصبغة دينية هو الذي يجعل الباحث بين إقدام وإحجام مع أنها فتنة سياسية تابعة لمجرى السنن الطبيعية في الدول إذ ما دامت شؤون البشر لا تستقيم إلا بالوازع، والمجتمعات لا تقوم إلا بحاكم يدير أمورها وينظم شؤونها وينفذ قوانينها. فالخلاف في رياسة الدول والنزاع على منصب الحكم متوقع بين الطامحين إليه القادرين عليه في كل أمة وجيل وتنازع البقاء في الملك أمر طبيعي كما هو في كل الأشياء.

خلاصة فيما عليه أهل السنة في هاته الفتنة

تقدم أن الطاعنين في عثمان رضي الله عنه نقموا عليه أشياء وعابوه، منها ثقته في قرابته بني أمية فتغلبوا عليه وتولوا أعظم الولايات وذلك لا يعاب عليه فيه لأنه كان باجتهاد منه وطلباً لإظهار العدل لأنه رأى أن أقاربه يعينونه على إظهار العدل وإقامة الحق وهكذا جميع الأشياء التي عابوه بها كلها كانت اجتهادية وله فيها أعذار ومخارج تدل على أنه إنما أراد بذلك العدل وإظهار الحق وكلها مبسوطة في كتب السنة، ولما حصره الناقمون وقتلوه بايع الناس بعده علي بن أبي طالب وبايعه أيضاً القوم الذين حصروا عثمان وقتلوه فوقعت الفتنة بين الصحابة رضي الله عنهم لذلك فقال الذين امتنعوا من بيعته: لا نبايعك حتى تعطينا قتلة عثمان نقتص منهم، فقال علي: بايعوني أولاً ثم بعد ذلك نتبع قتلة عثمان فمَن ثبت عليه شرعاً موجب القصاص نقتص منه وأما الاقتصاص منهم قبل دخولكم في البيعة فإنه عسير جداً لأن لهم قبائل وعشائر يتعصبون لهم فتنتشر الفتنة وتزداد. هذا هو السبب في الخلاف الذي وقع بينهم فنشأ عنه وقعة الجمل ووقعة صفين وتمسك كل من الفريقين لحجج وأدلة وتعارضت الأدلة عند بعضهم وهم نحو العشرة آلاف فاعتزلوا الفريقين منهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة والمغيرة بن شعبة وبقي الأمر مشتبهاً بين الناس إلى زمن الأئمة الأربعة فنظروا في الحجج والأدلة التي تمسك بها كل فريق فظهر لهم واتضح تصويب اجتهاد علي رضي الله عنه وتخطئة اجتهاد غيره لكن لما كان ذلك الخطأ ناشئاً عن اجتهاد لم يأثموا به لقول النبي ﷺ: «مَن اجتهد وأصاب فله أجران ومَن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد»[1] فلا سبيل إلى الحكم بتأثيم أحد منهم فلذلك كان مذهب أهل السنة السكوت عما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم وتأويله وحمله على أحسن المحامل تحسيناً للظن

(1) المنتقى لابن الجارود ص(249) باب ما جاء في الأحكام حديث 996، والنسائي في السنن الكبرى حديث (5918) 3/ 461 من رواية عمرو بن العاص.

بهم لأن الله تعالى أثنى عليهم وشهد لهم بالصدق وأخبر بأنه رضي عنهم ورضوا عنه وكذلك جاء عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة وزد على ذلك ما سبق لهم من الفضل على المسلمين في بث دعوة الإسلام وتدويخ الممالك والبلدان وتأسيس بنيان الدولة الذي نشر على معظم الأرض جناح السلطان ما يوجب على كل فرد من أفراد المسلمين عنده ذرة من العقل وقليل من الإنصاف أن يقدرهم قدرهم ولا يبخسهم من الثناء حقهم ويعترف على ملأ الشعوب بفضل كل فريق منهم والتنويه بكل خصلة حسنة لكبارهم وقادة الأمر منه إعلاء لشأنهم وتنويهاً بجميل عملهم وجميل صحبتهم وسداً لذرائع القدح فيهم ممن يحاول احتقار أعمالهم واستصغار أقدارهم وتكذيب الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والواجب أن يحمل ما صدر منهم على الاجتهاد الذي لا إثم فيه وإليه ذهب أهل السنة وهو المذهب الحق الذي مَن عدل عنه فقد زاغ وضلّ ومَن تمسك به فقد نجا.

وأول التشاجر الذي ورد إن خضت فيه واجتنب داء الحسد

فضائل الستة بقية العشرة المبشَّرين بالجنة

سيدنا أبو عبيدة[1] (رضي الله عنه)

هو أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري ـ كان إسلامه هو وعثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمٰن بن عوف وأبو سلمة الأسدي في ساعة واحدة ـ أحد العشرة المبشَّرين بالجنة هاجر الهجرتين وشهد بدراً وما بعدها. في الصحيح عن النبي ﷺ «لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[2] قال الأبي: أصحابه فضلاء مختارون وإنما أخبر عن كل واحد بما هو الأغلب فيه، ففي الترمذي «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في أمر الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ وأفرضهم زيد وأقرأهم أبيّ ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة»[3] قتل أباه يوم بدر ونزلت فيه ﴿لَّا تَجِدُ

---

(1) ترجم له في: صفة الصفوة: 1/ 154 ـ 156، المعارف لابن قتيبة ص247 ـ 248.

(2) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب قصة أهل نجران حديث (4382) من رواية أنس بن مالك، والترمذي في مناقب أبي عبيدة عقب حديث (3779).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب مناقب معاذ بن جبل حديث (3815) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث قتادة إلا من هذا الوجه، وأخرجه برواية أخرى حديث (3816) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في السنن المقدمة باب فضائل خباب الحديث (154).

﴿قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: 22] الآية، كانت له عند رسول الله ﷺ حظوة لصدقه وحبه واتباعه أمره وطاعته له، تقدم أنه تولى الإمارة العامة على جيوش فتح الشام وكان أكثر فتحه على يده، تولى تلك الإمارة لا لدنيا يصيبها ولا لجاه يرغب فيه ولا لمال يدخره بل لمطلق خدمة الأمة ورجاء رضا الله، مات على ولايته ولم يملك من حطام الدنيا إلا سيفه وترسه ورحله ولم يكن في بيته ما يأكل إلا كسيرات من خبز، وهو الذي قال لعمر: أتفر من قدر الله! فقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، ثم نفر من قدر الله تعالى إلى قدر الله تعالى، وذلك دال على جلالته عند عمر. وبالجملة فإنه من كبار الصحابة وممن لازم النبي ﷺ وتخلّق بأخلاقه متواضعاً زاهداً تقياً عاقلاً رزيناً لين الجانب عادلاً مخفوض الجناح عالماً بالشرع ذا دربة في أمور الحروب؛ أخرج الحاكم في المستدرك قال: لما طعن أبو عبيدة قال: يا معاذ صلِّ بالناس فصلّى ثم مات أبو عبيدة فخطب معاذ فقال: إنكم فجعتم برجل ما أزعم والله أني رأيت في عباد الله قط أقل حقداً ولا أبر صدراً ولا أبعد غائلة ولا أشد حياء للعاقبة ولا أنصح للعامة منه فترحموا عليه. مات في طاعون عمواس سنة 18 وسنه ثمان وخمسون على أحد الأقوال وأوصى أن يُدفن حيث مات.

عمواس: بين الرملة وبيت المقدس على أربعة فراسخ من الرملة وكان ظهوره سنة 18 وانتشر في البلاد فاجتاح السكان. وفي رواية ابن عساكر: كان أبو عبيدة في ستة وثلاثين ألفاً من المسلمين فلم يبقَ منهم إلا ستة آلاف رجل مات به كثير من الأعلام منهم أبو عبيدة ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان.

سيدنا عبد الرحمٰن[1] بن عوف (رضي الله عنه)

هو أبو محمد عبد الرحمٰن بن عوف بن عبد عوف القرشي الزهري كان اسمه عبد الكعبة ويقال عبد عمرو فغيّره النبي ﷺ، أحد العشرة وأحد ستة الشورى هاجر الهجرتين وشهد بدراً فما بعدها ولاه النبي ﷺ بعث دومة الجندل وهو الأمين على أزواج النبي ﷺ في حجهن، ولاه عمر ذلك وقال فيه: هو سيد من سادات المسلمين ذو رأي مسدد، وهو الذي رجع عمر بجيشه من سرغ ولم يدخل الشام من أجل الطاعون والحديث عن ذلك مذكور في الصحيحين، وهو أحد المشهورين

---

(1) ترجم له في: الطبقات الكبرى لابن سعد: 3/ 124 ـ 137، صفة الصفوة: 1/ 147 ـ 150، الإصابة في تمييز الصحابة: 4/ 176 ـ 178 رقم 5171، تهذيب التهذيب: 6/ 344.

بالثروة في الإسلام كان محظوظاً في التجارة والعقل والعلم، له إعانات مالية شهيرة وصدقات وأعمال بر كبرى. في الإصابة قال جعفر بن برقان: بلغني أن عبد الرحمٰن بن عوف أعتق ثلاثين ألف نسمة. أخرجه أبو نعيم في الحلية، وكان حرم الخمر في الجاهلية وذكر البخاري في تاريخه من طريق الزهري قال: أوصى عبد الرحمٰن بن عوف لكل من شهد بدراً بأربعمائة دينار فكانوا مائة رجل، وبالجملة فمناقبه جمة. مات سنة 32 على الأشهر وعاش 72 سنة على أحد الأقوال.

سيدنا طلحة[1] (رضي الله عنه)

هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان القرشي التيمي أحد العشرة وأحد الثمانية الذين سبقوا للإسلام وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر وأحد ستة الشورى، شهد المشاهد كلها إلا بدراً فإن رسول الله ﷺ كان بعثه هو وسعيد بن زيد يتجسسان على عير قريش ولقيا رسول الله ﷺ منصرفاً من بدر فضرب لهما بسهميهما وأجريهما فكانا كمن شهدها، سماه رسول الله ﷺ طلحة الخير ويوم ذات العسرة طلحة الفياض ويوم حنين طلحة الجود وثبت يوم أُحد مع رسول الله ﷺ ووقاه بيده فشلّت إصبعاه وجرح يومئذ أربعاً وعشرين جرحاً وأبلى فيها البلاء الحسن، قال فيه رسول الله ﷺ: «مَن سرّه أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة»[2]. قتل يوم الجمل في جمادى الأولى سنة 36 وهو ابن ستين سنة على أحد الأقوال.

---

(1) ترجم له في المعارف لابن قتيبة ص228 ـ 234، صفة الصفوة 1/ 141 ـ 143، الإصابة: 3/ 290 ـ 292 رقم 4259، تهذيب الكمال للمزي: 13/ 412، تهذيب التهذيب: 5/ 20.

(2) هذه الرواية مخرجة من طريقين:

الأولى من رواية جابر بن عبد الله أخرجه الترمذي في سننه من كتاب المناقب باب مناقب طلحة حديث (3760) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الصلت بن دينار. والحديث ضعيف الإسناد لأن الصلت بن دينار الأزدي قال فيه أحمد: متروك الحديث ترك الناس حديثه انظر عنه التهذيب: 4/ 381.

والرواية الثانية من رواية عائشة: أخرجها ابن سعد في الطبقات الكبرى: 3/ 218، وكنز العمال حديث (33372) 11/ 696 وإسناد الحديث ضعيف لوجود سويد بن سعيد وصالح بن موسى فيه، لكنه يتقوى برواية جابر.

سيدنا الزبير[1] (رضي الله عنه)

هو أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي وفيه يجتمع مع رسول الله ﷺ وهو ابن عمته ﷺ، أسلم وهو ابن ثمان سنين وعذّبه عمه بالدخان ليرجع فأبى وهاجر الهجرتين وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وهو أول مَن سلّ سيفاً في سبيل الله، وكان يوم بدر على الميمنة وعليه عمامة صفراء ونزلت الملائكة بعمائم صفر على سيماه، وهو أحد العشرة وأحد ستة الشورى ومن الشجعان المشهورين وكان له الفضل في فتح مصر مع عمرو بن العاص. وفي الصحيحين قال النبي ﷺ: «إن لكل نبي حواري وإن حواريَّ الزبير بن العوام» وقتل في جمادى الأولى سنة 36 حين انصرف من وقعة الجمل تاركاً القتال، قتله غدراً عمرو بن جرموز وله ست أو سبع وستون سنة.

سيدنا سعيد بن زيد[2] (رضي الله عنه)

هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى العدوي. كان والده زيد يقول: إلهي إله إبراهيم وديني دين إبراهيم، وكان ترك عبادة الأوثان وترك كل ما يذبح على النصب، وكان يقول: اللهم لو أعلم أحب الوجوه إليك لعبدتك به ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على الأرض براحته. وفي البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموؤودة ويقول الرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤونتها.

وابنه سعيد أحد السابقين المشهود لهم بالجنة شهد أُحداً والمشاهد بعدها ولم يشهد بدراً حيث كان غائباً بالشام وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه منها، شهد اليرموك وفتح دمشق. قال سعيد بن حبيب: كان مقام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وسعيد وطلحة والزبير وعبد الرحمٰن بن عوف مع النبي ﷺ واحداً كانوا أمامه في القتال وخلفه في الصلاة، وكان سعيد من فضلاء الصحابة مجاب الدعوة وقصته

---

(1) ترجم له في الطبقات الكبرى لابن سعد: 3/ 100 ـ 113، صفة الصفوة: 1/ 144 ـ 147، الإصابة: 3/ 5 ـ 7 رقم 2783.

(2) ترجم له في الطبقات الكبرى: 3/ 379 ـ 385، صفة الصفوة: 1/ 153 ـ 154، الإصابة: 3/ 96 ـ 97 رقم 3254.

مع أروى بنت أنيس مشهورة في إجابة دعائه عليها وهو ابن ابن عم عمر بن الخطاب وكان إسلامه عنده في بيته لأنه كان زوج أخته فاطمة. توفي بالعقيق وحمل إلى المدينة وذلك سنة 50 أو 52.

سيدنا سعد بن أبي[1] وقاص (رضي الله عنه)

هو أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص مالك القرشي الزهري أحد العشرة وآخرهم موتاً من السابقين الأولين، مكث ثلاثة أيام وهو ثالث الإسلام وأحد ستة الشورى وأول مَن رمى سهماً في سبيل الله ومن شجعان قريش وكماتهم من خيرة أصحاب النبي ﷺ مخلصاً في إيمانه. شهد المشاهد كلها وكان مجاب الدعوة حيث دعا له رسول الله ﷺ أن يسدد رميته ويجيب دعوته، وكان صادق الحديث والرواية لما فطر عليه من صدق اللهجة وقول الحق. روى ابن عساكر عن عبد الله بن عمر عن سعد بن أبي وقاص عن رسول الله ﷺ أنه مسح على الخفين وأن ابن عمر سأل عمر عن ذلك فقال: إذا حدثك سعد عن رسول الله ﷺ فلا تسألن عنه غيره. وروى الشيخان والترمذي والنسائي من حديث عائشة قالت: لما قدم النبي ﷺ المدينة أرق فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني، إذ سمعنا صوت السلاح فقال: مَن هذا؟ قال: أنا سعد فقام»[2] ولما قتل عثمان اعتزل الفتنة، وهو الذي كوّف الكوفة وأمره عمر عليها سنة 21 كانت له قيادة الجيوش في حرب الفرس وقد مر الخبر عن مسيره إلى القادسية والوقائع التي وقعت هناك وكانت من أعظم الوقائع التي دوّنها التاريخ، قتل فيها من المسلمين نحو السبعة آلاف وخمسمائة وأما من قتل من الفرس فعدد كثير بالغ فيه المؤرخون وكان النصر حليف المسلمين وحصل فيها وهن للفرس ووقع بها فتح المدائن عاصمة الأكاسرة فانحدرت تلك العاصمة من شاهق عزها إلى هاوية الخراب وقامت مقامها في تلك الأصقاع بغداد دار الخلافة العباسية وانبعثت منها أشعة التمدن الإسلامي العظيم.

وإذا نظرت إلى البلاد رأيتها تشقى كما تشقى العباد وتسعد

---

(1) ترجم له في الطبقات الكبرى: 3/ 137 ـ 149، صفة الصفوة: 1/ 150 ـ 153، الإصابة: 3/ 83 ـ 85 رقم 3187، تهذيب التهذيب: 3/ 483.

(2) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب الحراسة في الغزو حديث (2885) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب في فضل سعد، حديث (2410).

على أن ما ضمته بغداد تحت جناحي الخلافة الإسلامية من الممالك الشاسعة والأمصار النائية لم تضمه المدائن على عهد الأكاسرة والفضل في ذلك لسعد وأضرابه من أقيال الصحابة السابقين ورجال الخلافة الراشدين جزاهم الله خير الجزاء عن المسلمين. مات سنة56 على الأشهر بالعقيق وحمل إلى المدينة وصلى عليه مروان والي المدينة وأدخل للمسجد وصلى عليه أزواج النبي ﷺ وهن في حجرهن وأوصى أن يكفن في جبة صوف لقي المشركين بها يوم بدر ودفن بالبقيع.

ذكر بعض السادات من أعيان الصحابة وفضلائهم

سيدنا حمزة[1] (رضي الله عنه)

هو أبو عمارة حمزة بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة أرضعتهما ثويبة كما في الصحيحين، أسلم في السنة الثانية من البعثة، لازم نصر رسول الله ﷺ وهاجر معه وشهد بدراً وأبلى في ذلك وعقد له النبي ﷺ لواء وأرسله في سرية وذلك أول لواء عقد في الإسلام واستشهد بأحد وكان ذلك في النصف من شوال سنة 3 ولقبه رسول الله ﷺ أسد الله وسماه سيد الشهداء ودفن وعبد الله بن جحش في قبر واحد، ولما استشهد قال رسول الله ﷺ: رحمك الله أي عم، لقد كنت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات. ورثاه كعب بن مالك بأبيات منها:

بكت عيني وحق لها بكاها ... وما يغني البكاء ولا العويل
على أسد الإلّه غداة قالوا ... لحمزة ذاكم الرجل القتيل

أخوه سيدنا العباس[2] (رضي الله عنه)

هو أبو الفضل العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان العباس أسن من النبي ﷺ بسنتين أو ثلاث وكان إسلامه على المشهور قبل فتح مكة وضاع وهو صغير فنذرت أمه إن وجدته أن تكسو البيت الحرير فوجدته فكست البيت الحرير فهي أول من كساه ذلك، وكان إليه في الجاهلية السقاية والعمارة وشهد الفتح وثبت

(1) صفة الصفوة: 1/ 157 ـ 160، الإصابة: 2/ 37 ـ 38.

(2) صفة الصفوة: 1/ 220 ـ 222، الإصابة: 2/ 30 رقم (4498) تهذيب التهذيب: 5/ 122.

يوم حنين. وقال النبي ﷺ: «مَن آذى العباس فقد آذاني فإن عم الرجل صنو أبيه»[1] أخرجه الترمذي. وكان أعظم الناس عند رسول الله ﷺ والصحابة يعترفون له بالفضل ويشاورونه ويأخذون رأيه، وفي حديث أنس: إن عمر كان إذا قحطوا استسقى بالعباس. مات بالمدينة في رجب أو في رمضان سنة 32 وله بضع وثمانون سنة.

سيدنا جعفر[2] (رضي الله عنه)

هو أبو عبد الله جعفر بن أبي طالب وكان أكبر من شقيقه علي رضي الله عنه بعشرين سنة وهو من السابقين الأولين هاجر الهجرتين ونشر الدين بالحبشة وعلى يده كان إسلام النجاشي وقدم من الحبشة سنة سبع على رسول الله ﷺ وعانقه وقال: ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً بقدوم جعفر أم بفتح خيبر، وأسهم له ولأهل السفينة من فيء الفتح المذكور كما في الصحيحين واختط له رسول الله ﷺ إلى جنب المسجد وقال له: «أشبهت خلقي وخلقي»[3]. ثم غزا غزوة مؤتة بضم الميم وسكون الواو وبهمز وبدونه وهي بحدود الشام وكانت سنة ثمان وقتل فيها بعد أن قاتل حتى قطعت يداه معاً فقال رسول الله ﷺ: «إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء» فمن ثم قيل له ذو الجناحين. ولما بلغ النبي ﷺ نعي جعفر أتى امرأته أسماء بنت عميس فعزاها فيه، فدخلت فاطمة تبكي وتقول: واعماه، فقال رسول الله ﷺ: على مثل جعفر فلتبكِ البواكي. وجدت فيه نحو تسعين جراحة ليس فيها شيء في ظهره. وهاته الغزوة من أعجب ما سطره التاريخ للإسلام كان المسلمون ثلاثة آلاف خاضوا بحراً من جيش الروم يتجاوز مائة ألف وهي فاتحة المعارك بين الإسلام والروم وأول نصر عليهم. في البخاري أن رسول الله ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: أخذ الراية زيد فأصيب

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب أبي الفضل عم النبي ﷺ وهو العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه حديث (3783) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والحديث في سنده يزيد بن أبي زياد القرشي الهاشمي قال أبو زرعة لين يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي. وقال الحافظ: متروك. انظر عنه تهذيب التهذيب 11/ 329.

(2) ترجم له في: صفة الصفوة: 1/ 222 ـ 226، الإصابة: 1/ 248 ـ 249 رقم 1162.

(3) أخرجه البخاري في كتاب العمرة باب كم اعتمر النبي ﷺ وابن حبان في صحيحه (7046) والترمذي في المناقب مناقب جعفر بن أبي طالب حديث (3790) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان ثم أخذها سيف من سيوف الله تعالى حتى فتح الله عليهم. وفي رواية: ثم أخذها سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح عليهم[1].

سيدنا زيد[2] بن حارثة (رضي الله عنه)

هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي أصابه سبي في الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فوهبته للنبي ﷺ قبل أن يوحى إليه وزيد حينئذ ابن ثمان سنين فأعتقه ﷺ وكان من أحب الناس إليه وتبناه وكان يطوف به على حلق قريش ويقول: هذا ابني وارثاً وموروثاً. قال الزهري: لا أعلم أحداً أسلم قبله. وقال ابن عمر: ما كنا ندعو زيداً إلا زيداً بن محمد حتى نزلت ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: 5] كما في البخاري ولم يذكر أحد في القرآن باسمه من الصحابة سواه. هاجر وشهد بدراً وكان ﷺ يؤمره على الجيوش وأمره على جيش مؤتة فقاتل حتى قتل قبل جعفر فلما أتى النبي ﷺ موت جعفر وزيد بكى وقال: أخواي ومؤنساي ومحدثاي. استشهد وهو ابن خمس وخمسين سنة.

سيدنا عبد الله[3] بن رواحة (رضي الله عنه)

هو أبو عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي أحد قواد الإسلام في البعوث والسرايا وفي النقباء شهد بدراً وما بعدها وكان الخليفة بعد جعفر في غزوة مؤتة فاستشهد بعد الأميرين قبله وكان من شعراء الصحابة ينافح عن رسول الله ﷺ بسنانه ولسانه. ومن ذلك أنه أنشد بين يدي رسول الله ﷺ عند دخوله مكة:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

(1) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه حديث (1246) وفي كتاب المغازي باب غزوة مؤتة من أرض الشام حديث (4262).

(2) ترجم له في الصفوة: 1/ 160 ـ 162، الإصابة: 3/ 24 ـ 26 رقم (2884) تهذيب التهذيب: 3/ 401.

(3) ترجم له في صفة الصفوة: 1/ 207 ـ 208، الإصابة: 4/ 66 ـ 67، تهذيب التهذيب: 5/ 212.

فقال عمر: يا ابن رواحة أفي حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ تقول هذا الشعر؟ فقال: خلِّ عنه يا عمر فوالذي نفسي بيده لكلامه عليهم أشد من وقع النبل. وفي الزهد لأحمد أن النبي ﷺ قال: «رحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة».

سيدنا خالد[1] بن الوليد (رضي الله عنه)

هو أبو الوليد خالد بن الوليد بن المغيرة القرشي المخزومي يجتمع مع النبي ﷺ في مرة أسلم على الأصح سنة سبع لم يشهد مع النبي ﷺ إلا ما كان بعد الفتح، كان موصوفاً في قومه بالشجاعة محبباً فيهم مقدماً عندهم بالحروب موفقاً للنصر عارفاً بأحوال الحرب، شهد وقعة مؤتة المذكورة آنفاً وأخذ الراية بعدما استشهد أمراء ثلاثة قبله وأبلى فيها البلاء الحسن حتى اندق يومئذ في يده سبعة أسياف، ثم ما زال يدافع القوم حتى انحازوا عنه ثم عاد بجيشي المسلمين. وفي هذه الوقعة سماه رسول الله ﷺ سيفاً من سيوف الله. له رواية في الصحيحين وغيرهما، وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد ظهرت فيها نجابته، وهو الذي أخضع أهل الردة، وقتل مسيلمة الكذاب ومن أبى من دفع الزكاة وكان على يده فتوح الكثير من البلاد الكبار بالعراق والشام وكان له بعد من جميل الأثر ما رأيت في فضائل أبي بكر وكان فتحه للعراق تمهيداً إلى تدويخ فارس وإدالة دولة الأكاسرة، وقد كانت أعظم الدول حينئذ شأناً وأرقاها مكاناً إلا أنها بلغت من الكبر عتياً ومن فشل السياسة مكاناً قصياً فجاءها جند الإسلام بادي الشباب ناعم الأعصاب فأسس ملكه الجديد. وكانت حروب العراق أيام خالد أشد ما لقي المسلمون من حرب الفرس لاجتماع قبائل العرب بالعراق وجند فارس على حرب المسلمين، وبعدما تم له ذلك الفتح أمره أبو بكر بالمسير إلى الشام فسار وحصل له من الفتح هناك ما قد علم. قال بعض المؤرخين: قلّ أن يوجد فارس في العالم يوفق للنصر في كل واقعة كما وفق خالد رضي الله عنه فإن التاريخ لم ينبئن عن انخذاله ولا في وقعة واحدة من وقائعه مع أهل الردة أو في العراق أو في الشام وهذا إنما هو من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بأمور الحرب. وقد علمت كيف فلّ جموع الروم في اليرموك وكشف عن المسلمين سحب الضيق والحيرة منذ سلّموا قيادتهم له مع أن فيهم من

(1) ترجم له في صفة الصفوة: 1/ 289 ـ 291، الإصابة: 2/ 98 ـ 100، الرياض المستطابة ص70 ـ 71.

الصيد الصناديد وأهل البصيرة والرأي كعمرو بن العاص وأبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وأضرابهم من كماة الإسلام وقادة الجيوش العظام. اتخذ رضي الله عنه بعد تمام تلك الفتوحات مقراً له حمص وفيها توفي سنة 21 ومدفنه هناك لم يزل معروفاً يزار إلى الآن. ولما حضرته الوفاة قال: لقد شهدت مائة زحف وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت على فراشي كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء. وما من عمل أرجى من لا إله إلا الله وأنا مترس بها.

سيدنا خالد[1] بن سعيد (رضي الله عنه)

هو خالد بن سعيد بن العاص بن أمية الأموي من أشراف قريش وأعيانهم وهو أول مَن كتب بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ومن السابقين الأولين، أسلم بعد أربعة وهاجر الهجرتين وصلّى الركعتين ورجع من الحبشة هو وزوجه وأخوه وابنته مع جعفر بن أبي طالب وكان استعمله النبي ﷺ على صدقات مذحج وأمره أبو بكر على مشارف الشام في الردة، استشهد في أجنادين أو مرج الصفر.

سيدنا سالم[2] مولى أبي حذيفة (رضي الله عنهما)

هو أبو عبد الله سالم بن معقل كان من فضلاء الصحابة وخيارهم وكبرائهم من السابقين الأولين هاجر مع عمر ونفر مع الصحابة فكان يؤمهم لأنه أكثرهم قرآناً وكان يؤم المهاجرين وفيهم عمر شهد بدراً. روى البخاري ومسلم والنسائي والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رفعه «خذوا القرآن من أربعة: ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبيّ بن كعب بن معاذ بن جبل» وروي عن عائشة رضي الله عنها «احتبست على النبي ﷺ فقال: ما حبسك؟ قلت: سمعت قارئاً يقرأ فذكرت من حسن قراءته فأخذ رداءه وخرج فإذا هو سالم مولى أبي حذيفة فقال: الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك» شهد بدراً فما بعدها وكانت بيده راية المهاجرين اليمامة فقطعت يده اليمنى فأخذها باليسرى فقطعت أيضاً. مات فيها هو ومولاه حذيفة وجد رأس أحدهما عند رجلي الآخر وذلك سنة 12.

(1) ترجم له في الإصابة: 2/ 91 ـ 92، تهذيب التهذيب: 3/ 94.

(2) ترجم له في صفة الصفوة: 1/ 163، الإصابة: 3/ 56 ـ 57.

سيدنا معاذ[1] بن جبل الأنصاري الخزرجي (رضي الله عنه)

يكنى أبا عبد الرحمٰن إمام الفقهاء وسيد العلماء. شهد بدراً والعقبة وكان أميراً للنبي ﷺ على اليمن وخرج معه رسول الله ﷺ ماشياً ومعاذ راكباً منعه رسول الله ﷺ من أن ينزل. أخرج ابن حبان والترمذي من طريق أبي هريرة رفعه: نعم الرجل معاذ بن جبل[2]. كان عقبياً بدرياً من فقهاء الصحابة وأخرج الترمذي وابن ماجه «أرحم أمتي أبو بكر وفيه وأعلمهم بالحلال الحرام معاذ»[3] وفي الصحيح «استقرئوا القرآن من أربعة: ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل»[4] وصح عن عمر أنه قال: مَن أراد الفقه فليأت معاذاً، وقال أيضاً: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ولولا معاذ لهلك عمر، وقال: مَن أراد الفرائض فليأتِ زيد بن ثابت وكان من أجمل الرجال قانتاً عابداً مجتهداً ورعاً محققاً شهد اليرموك ومات شاباً عن نيف وثلاثين سنة في طاعون عمواس سنة 18هـ.

سيدنا يزيد[5] بن أبي سفيان (رضي الله عنه)

هو أبو خالد يزيد الخير بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي كان من فضلاء الصحابة من مسلمة الفتح استعمله النبي ﷺ على صدقات بني فراس وكانوا أخواله. أحد أمراء الأجناد بالشام وممن كان تحت رايته أبوه أبو سفيان وأخوه معاوية. وأمره عمر على فلسطين ثم على دمشق. مات في طاعون عمواس سنة 18 وقيل 19.

---

(1) ترجم له في صفة الصفوة: 1/ 210 ـ 217، تجريد أسماء الصحابي للذهبي: 2/ 80، الإصابة: 6/ 106 ـ 107.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب حديث (3820) وابن حبان في صحيحه (7129) وأحمد في مسنده 3/ 9431.

(3) أخرجه الترمذي في مناقب معاذ بن جبل حديث (3812) (3816) بإسناد صحيح.

(4) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حديث (3760) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل عبد الله بن مسعود، حديث (2464).

(5) ترجم له في الإصابة: 6/ 341، تهذيب التهذيب: 11/ 332.

سيدنا أبي[1] بن كعب (رضي الله عنه)

هو أبو المنذر أبيٌّ بن كعب بن قيس النجاري الخزرجي أسلم قديماً شهد العقبة الثانية وبايع فيها وشهد بدراً والمشاهد بعدها وهو أول من كتب الوحي لرسول الله ﷺ بعد الهجرة وكان من فقهاء الصحابة وقرائهم وحسبك أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ أن يقرأ عليه القرآن وقال فيه ﷺ: «أقرأكم أبي» وقال: «خذوا[2] القرآن عن أربعة» وعدّ منهم أبياً وهو أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ وكان عمر يسميه سيد المسلمين ويسأله عن المعضلات ويتحاكم إليه إذا وقع خلاف بين الصحابة وتوفي في خلافة عمر على الأكثر سنة 19 وقيل سنة 20.

تنبيه

تخصيص هذه الأربعة بالذكر دون غيرهم ممن حفظ القرآن وهم كثير لأنهم هم الذين تفرغوا لتعليمه دون غيرهم ممن اشتغل بغير ذلك من العلوم أو العبادات أو الجهاد. ويحتمل لأنه ﷺ علم أنهم هم الذين ينتصبون لتعليمه فأحال عليهم لعلمه بأن الأمة ترجع إليهم كما أظهر الوجود إذ هم أئمة القراء وإلى روايتهم ينتهي غالب أسانيد الأئمة الفضلاء. اهـ من الأبي.

سيدنا عبد الله[3] بن مسعود الهذلي (رضي الله عنه)

يكنى أبا عبد الرحمٰن هو سادس من أسلم، كان يلج على رسول الله ﷺ ويلبسه نعله ويمشي معه وأمامه ويستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام، وقال له: إذنك عليّ أن ترفع الحجاب وأن تسمع سوادي - بكسر السين أسراري - حتى أنهاك. وكان يشبه في هديه وسمته رسول الله ﷺ شهد له بالجنة. هاجر إلى الحبشة مرتين ثم إلى المدينة وصلّى القبلتين وشهد المشاهد كلها، شهد له كثير من الصحابة أنه

(1) ترجم له في صفة الصفوة: 1/ 203 - 205، الإصابة: 1/ 16 - 17 الرياض المستطابة ص29 - 31 تذكرة الحفاظ للذهبي: 1/ 16 - 17.

(2) أخرجه الترمذي والحاكم في مستدركه. انظر الجامع الصغير للسيوطي ص237 رقم (3889) عن ابن عمرو وهو صحيح.

(3) ترجم له في صفة الصفوة: 1/ 167 - 182، الإصابة: 4/ 129 - 130 رقم 4945، الرياض المستطابة ص187 - 190.

أعلمهم بكتاب الله تعالى قراءة وعلماً وكان من أعظم الأمور عليه أن الصحابة لما عزموا على كتب المصحف عيّنوا لذلك أربعة ولم يكن منهم ابن مسعود وكتبوه على لغة قريش ولم يعرجوا على ابن مسعود لأنه كان هذلياً وكانت قراءته على لغتهم وبينها وبين لغة قريش تباين عظيم فلذلك لم يدخلوه معهم. حدّث عن النبي ﷺ بالكثير وروى عنه الكثير من الصحابة والتابعين وكان يقول: أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة. أخرجه البخاري وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وفي البخاري خذوا القرآن عن أربعة: عن ابن أم عبد ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وسالم مولى أبي حذيفة. وشهد فتوح الشام وسيّره عمر إلى الكوفة ليعلمهم أمورهم وبعث عمار بن ياسر أميراً وقال إنهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ فاقتدوا بهما ثم أمره عثمان على الكوفة ثم عزله واستقدمه إلى المدينة، قال حذيفة: ما أعلم أحداً سواه أشبه دلاً وهدياً برسول الله ﷺ، وكان زاهداً صالحاً له مزايا كثيرة. وقد انتشر العلم والدين عن أصحاب أربعة من أعلام الصحابة ابن مسعود وأصحابه وهم أهل العراق وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وأصحابهما وهم أهل المدينة وابن عباس وأصحابه وهم أهل مكة. توفي بالمدينة سنة 32هـ.

سيدنا أبو ذر(1) (رضي الله عنه)

هو أبو ذر جندب بن عمرو الغفاري من كبار الصحابة أسلم بعد أربعة وقصة إسلامه في الصحيحين ثم انصرف إلى بلاد قومه فأقام بها حتى قدم عام الحديبية بعد أن مضت بدر وأحد والخندق. غلب عليه التعبد والتزهد فكان يعتقد أن جميع ما يفضل عن الحاجة كنز فإمساكه حرام، ودخل الشام بعد موت النبي ﷺ وهو ممن نشر العلم به والدين، وكان في رتبة ابن مسعود في العلم ووقع بينه وبين معاوية نزاع في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ الآية فشكاه معاوية إلى عثمان فأقدمه عثمان المدينة واستأذن عثمان في إقامته بالربذة موضع منقطع عن المدينة ومات هناك سنة 32هـ وهو أول من حيى النبي ﷺ تحية الإسلام وهي السلام عليكم وذلك لما دخل عليه ليسلم روى ابن عساكر عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر».

(1) ترجم له في: الاستيعاب: 4/ 1652، صفة الصفوة: 1/ 528، أسد الغابة: 5/ 99، الإصابة: 7/ 60.

سيدنا المقداد[1] بن الأسود (رضي الله عنه)

هو أبو الأسود المقداد بن عمرو بن ثعلبة الحضرمي تبناه الأسود واشتهر بذلك فلما نزلت ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ قيل له المقداد بن عمرو. أسلم قديماً وهاجر الهجرتين وشهد بدراً وما بعدها وكان فارساً يوم بدر ولم يثبت أنه كان فيها على فرس غيره. روى الترمذي مرفوعاً عن النبي ﷺ «إن الله عزّ وجل أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم والمقداد وأبو ذر وسلمان» شهد فتح مصر وهو أحد الرجال الأربعة الذين بعثهم عمر مدداً لمصر وقال الواحد منهم مقام الألف مسلمة والمقداد والزبير وعبادة بن الصامت، مات سنة 33هـ.

سيدنا عبادة[2] بن الصامت (رضي الله عنه)

هو أبو الوليد عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أحد النقباء شهد بدراً وما بعدها كان من أعلام الصحابة وقضاتهم وشهد فتح مصر وكان أمير ربع المدد وقال فيه عمر مقامه من الرجال مقام الألف في الصحيحين قال: أنا من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الحديث وروى ابن سعد أنه ممن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ كتب يزيد بن أبي سفيان إلى عمر قد احتاج أهل الشام إلى مَن يعلّمهم القرآن ويفقههم فأرسل معاذاً وعبادة وأبا الدرداء فقام عبادة بفلسطين وهو أول من تولى القضاء بفلسطين، مات بالرملة سنة 34هـ.

سيدنا أبو الدرداء[3] (رضي الله عنه)

هو عويمر بن عامر الأنصاري الخزرجي أسلم يوم بدر وشهد المشاهد كلها وآخى عليه الصلاة والسلام بينه وبين سلمان فكانا من الزهّاد العبّاد وهو معدود من الفقهاء الحكماء قال فيه النبي ﷺ: «إنه حكيم هذه الأمة» وقال فيه: «ما حملت ورقاء ولا أظلت خضراء أعلم منك يا أبا الدرداء» تولى قضاء دمشق في خلافة عمر وعثمان وقيل إن عمر ولاه قضاء المدينة أيام خلافته، توفي سنة نيف وثلاثين.

---

(1) ترجم له في: صفة الصفوة: 1/ 181 ـ 182، الإصابة: 6/ 133 ـ 134 برقم 8179، التهذيب: 10/ 285، الرياض المستطابة ص259 ـ 260.

(2) ترجم له في: الاستيعاب: 2/ 807 ـ 809، أسد الغابة: 3/ 56 ـ 57، الإصابة: 4/ 27 ـ 28.

(3) ترجم له في: صفة الصفوة: 1/ 277 ـ 285، الإصابة: 5/ 46 رقم (6112) التهذيب: 8/ 175.

سيدنا حذيفة[1] بن اليمان (رضي الله عنهما)

هو حذيفة بن اليمان بن جابر بن عمرو العبسي حليف بني عبد الأشهل من الأنصار من كبار الصحابة له ولأبيه صحبة من السابقين الأولين شهد أحداً وما بعدها وبها استشهد أبوه وله أياد في الإسلام بعلمه وسيفه وكان على يده فتح الكثير من البلاد كالدينور وهمذان والري وغيرها وهو الذي أشار على عثمان بنسخ المصاحف وجمع الناس على مصحف واحد وتحريق ما سواه روى عن النبي ﷺ الكثير تولى بعض أمور الكوفة وولاه عمر المدائن وبقي بها إلى أن مات بعد قتل عثمان بيسير سنة 36هـ.

سيدنا سلمان[2] الفارسي (رضي الله عنه)

يكنى أبا عبد الله ويعرف بسلمان الخير وكان ينسب إلى الإسلام فيقول: أنا سلمان ابن الإسلام ويعد من موالي رسول الله ﷺ لأنه كان السبب في عتقه ونسبه ﷺ إلى بيته فقال: «سلمان منا أهل البيت» أصله فارسي وأبوه مجوسي فنبهه الله تعالى إلى قبح ما كان عليه أبوه وقومه وجعل في قلبه التشوف إلى طلب الحق ففر عن أرضه إلى أرض الشام فلم يزل يجول في البلدان ويختبر الأديان ويكشف الأحبار والرهبان إلى أن دل على راهب الوجود بالوصول إلى المقصود بعد الصبر على المشاق والمكاره حسبما ذلك منقول في إسلامه في كتب السير وأول مشاهده الخندق وهو الذي أشار بحفره ولم يفته بعد ذلك مشهد وكان خيراً فاضلاً عالماً حبراً زاهداً متقشفاً قال الحسن: كان عطاء سلمان خمسة آلاف وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به ويأكل من عمل يده حال كونه أميراً على المدائن عاصمة الأكاسرة وقال النبي ﷺ: «لو كان الدين في الثريا لناله سلمان» وفي رواية «رجال من الفرس» وعن عائشة كان لسلمان مجلس من رسول الله ﷺ ينفرد به من الليل حتى كاد يغلبنا عن رسول الله ﷺ. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني أن أحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم: علي وأبو ذر والمقداد وسلمان» وعن علي رضي الله عنه «إن سلمان مثل لقمان» وعن أبي هريرة قال: «كان سلمان صاحب الكتابين» قال قتادة:

---

(1) ترجم له في الاستيعاب: 1/ 334 ـ 335، صفة الصفوة: 1/ 269 ـ 271، الكاشف للذهبي: 1/ 152 رقم 970، الإصابة: 1/ 322.

(2) ترجم له في: الاستيعاب: 2/ 634 ـ 638 رقم 1014، صفة الصفوة 1/ 228 ـ 243، أسد الغابة: 2/ 265 ـ 269 رقم 2149، الإصابة: 3/ 113 ـ 114 رقم 3350.

يعني الإنجيل والفرقان. له أخبار حسان وفضائل جمة، توفي في آخر خلافة عثمان سنة خمس أو ست وثلاثين. قال الشعبي: وتوفي بالمدائن، قيل: عاش مائتين وخمسين سنة وقيل أكثر.

سيدنا عمار[1] بن ياسر (رضي الله عنه)

هو أبو اليقظان عمار بن ياسر بن عامر العنسي حليف بني مخزوم، شهد المشاهد كلها من السابقين الأولين هو وأبواه وكانوا ممن يعذب في الله وماتت أمه في ذلك التعذيب وكان النبي ﷺ يمر عليهم فيقول: «صبراً آل ياسر موعدكم الجنة» وأول مَن أظهر إسلامه سبعة منهم ياسر، وعن علي رضي الله عنه قال: «استأذن عمار على النبي ﷺ فقال: أذنوا له مرحباً بالطيب المطيب» وفي رواية أن علياً قال ذلك وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن عماراً ملىء إيماناً إلى حشاشته» أخرجه الترمذي وابن ماجه. كان من أعلام الصحابة وفقهائهم، روى عن النبي ﷺ الكثير وعنه جماعة من الصحابة والتابعين منهم ابن عباس. وفي الترمذي مرفوعاً «ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أيسرهما» وأخرج الترمذي عن حذيفة رفعه «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر واهتدوا بهدي عمار» وتواترت الأحاديث عن النبي ﷺ أن عماراً تقتله الفئة الباغية وأجمعوا على أنه قتل مع علي رضي الله عنه بصفين سنة 37هـ وعمره 93 عاماً.

سيدنا عمرو[2] بن العاص (رضي الله عنه)

هو أبو عبد الله أو أبو محمد عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي السهمي وأخوه لأمه عقبة بن نافع الفهري داهية العرب عقلاً ورأياً ولساناً وكانت له مكانة عند قومه لشهرته بالدهاء والمكيدة وكان حريصاً على الإمارة يحب الظهور ويميل إلى الإتيان بالأعمال الكبار ليكون كبيراً عند الناس جامعاً بين أجري الدنيا والآخرة. تأخر إسلامه وكان قبل فتح مكة بستة أشهر وكذلك خالد بن الوليد وكان حسن لصحبة محباً لرسول الله ﷺ شديد الحياء منه لا يرفع طرفه إليه إجلالاً له كما في الصحيح روي عنه أنه قال «ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في حربه منذ أسلمت» رواه ابن عساكر وذلك بلا ريب لثقته بإسلامهما

(1) ترجم له في صفة الصفوة: 1/ 189 - 191، الإصابة: 4/ 273 - 274.
(2) ترجم له في الإصابة: 5/ 2 رقم 5877، التهذيب: 8/ 56 الرياض المستطابة ص218.

في أمور الحرب وحسبهما فضيلة فتوحها العظيم بالعراق والشام ومصر. بعثه رسول الله ﷺ رئيساً على جيش فيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وذلك في غزوة ذات السلاسل وأرسله ﷺ إلى عمان والياً على الصدقة وأن يدعو الناس إلى الإسلام فذهب ودعاهم إلى الإسلام فآمنوا وحسبه الفضيلة العظيمة فتحه مصر وطرابلس الغرب وحروبه مع الأمراء بالشام كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب إلا أنه عيب عليه دخوله غمار الفتنة العظمى وكونه اليد القوية فيها ومن مكائده في الفتنة إشارته برفع المصاحف في وجوه أصحاب علي وخداعه لأبي موسى الأشعري يوم التحكيم وبعد أن تم له فتح مصر والإسكندرية جعل مقره الفسطاط بأمر من أمير المؤمنين عمر بعد أن أقره والياً عليها فكان خير وال وأعظم قائد وأحب الولاة إلى الرعية وأشدهم قياماً على العدل والنظر في عمران البلاد وراحة أهلها فتألف بدهائه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم عوناً للمسلمين وتمهدت له البلاد فأحبها وأحبه أهلها لذلك كان شأن مصر عنده عظيماً وإمارتها إليه محببة، وفي إمارته وقع حفر الخليج المعروف بخليج أمير المؤمنين الذي كان يمتد من الفسطاط إلى السويس وكان الصلة العظمى بين مصر والبحر الأحمر والهند وهذا الخليج قديم جداً قبل الإسلام وتعطل قبل الفتح وسبب فتحه أن الناس أصابهم جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة فكتب إلى عمرو بن العاص «سلام عليك أما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومَن معك وأهلك ومَن معي، فيا غوثاه ثم يا غوثاه» فكتب إليه «من عبد الله عمرو إلى أمير المؤمنين أما بعد فيا لبيك ثم يا لبيك فقد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضاً» فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس وأصاب كل بيت بعيراً بما عليه من الطعام فلما رأى عمر ذلك حمد الله وكتب إلى عمرو أن يقدم إليه مع جماعة من أهل مصر ولما قدموا قال لهم: «إن الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد ألقى في روعي لما أحببت من الرفق لأهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح الله مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ به ما نريد» وأجابوه لذلك فانصرف عمرو وجمع الفعلة فاحتفر في حاشية الفسطاط مسافة من النيل إلى السويس فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن فحمل عليها ما أراد من الطعام إلى الحرمين وسمي خليج أمير المؤمنين ولم يزل على ذلك إلى مدة عمر بن عبد العزيز ثم ضيّعه الولاة بعده أما الخليج المعروف بالبرزخ وهو يصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض فأبى عمر فتحه خوفاً من وصول الروم إلى البحر الأحمر

وهذا الخليج كان موجوداً في عهد البطالسة وآثاره باقية إلى عهد عمر ولم يزل عمرو والياً على مصر إلى خلافة عثمان فعزله وولاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ثم وليها في زمن معاوية وتوفي عليها يوم الفطر سنة 43هـ وهو ابن 90 سنة ودفن بالمقطم وترك دنيا عريض وثروة واسعة ولما حضرته الوفاة بكى فقال له ابنه عبد الله: ما يبكيك وأجابه بما هو مذكور في حديث قصة إسلامه بطوله في صحيح مسلم.

سيدنا زيد[1] بن ثابت (رضي الله عنه)

هو أبو سعيد زيد بن ثابت الأنصاري النجاري الخزرجي شهد أُحداً فما بعدها وأعطاه ﷺ راية بني النجار في غزوة تبوك، وهو الذي تولى قسم غنائم اليرموك، وكان كاتب رسول الله ﷺ الوحي وغيره، ثم استكتبه أبو بكر فعمر، وهو الذي باشر جمع المصحف الشريف أيام أبي بكر كما في الصحيح، وتولى نسخ المصاحف زمن عثمان ومعه عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمٰن بن حارث بن هشام القرشي المخزومي المتوفى سنة 43هـ: كان زيد رأساً بالمدينة في القضاء والفتوى والفرائض قال فيه عليه الصلاة والسلام: «أفرضكم زيد» كان عمر يستخلفه وكذلك عثمان واستعمله أميناً على بيت المال، وكان من الراسخين في العلم، وهو أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ. قال مالك: كان إمام الناس بالمدينة بعد عمر زيد بن ثابت، وكان إمام الناس بعده عبد الله بن عمر وقد أخذ بركابه يوماً ابن عباس وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا فقبَّل زيد رأسه وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا. توفي سنة نيف وأربعين وفي تحرير النيف أقوال وفي خمس وأربعين قول الأكثر. ولما مات قال أبو هريرة: مات حبر هذه الأمة، وعسى أن يجعل الله في ابن عباس منه خلفاً. ورثاه حسان بقوله:

فمن للقوافي بعد حسان وابنه ... ومن للمعاني بعد زيد بن ثابت

سيدنا سعيد[2] بن العاص (رضي الله عنه)

هو أبو عثمان سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي كان من فصحاء قريش ولهذا ندبه عثمان فيمن ندب لكتابة القرآن، قال ابن أبي داود

(1) ترجم له في: صفة الصفوة: 1/ 315 ـ 117، الإصابة: 3/ 22 رقم 2874، تهذيب التهذيب: 3/ 399.

(2) ترجم له في تهذيب الكمال للمزي: 10/ 501 رقم 2299، تهذيب التهذيب: 4/ 48، التقريب: 1/ 356 ـ 357 رقم 2344.

في المصاحف إن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص أنه كان أشبههم لهجة برسول الله ﷺ. ولي الكوفة وغزا طبرستان وجرجان وكان في عسكره حذيفة وغيره من كبار الصحابة وولى المدينة لمعاوية وكان حليماً وقوراً مشهوراً بالكرم والبر. روى عن ابن عمر أنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة فقالت: إني نذرت أن أعطي هذه البردة لأكرم العرب. فقال: أعطيها لهذا الغلام وهو واقف يعني سعيداً هذا. مات بقصره بالعقيق سنة ثلاث وخمسين.

سيدنا أبو موسى[1] الأشعري (رضي الله عنه)

هو عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري من علماء الصحابة وأعيانهم ومن السابقين الأولين هاجر الهجرتين، استعمله النبي ﷺ على بعض اليمن كزبيد وعدن وأعمالهما واستعمله عمر على البصرة بعد المغيرة فافتتح الأهواز وأصبهان وغيرهما ثم استعمله عثمان على الكوفة وبه تفقه أهلها. روي له من الحديث ستمائة وستون حديثاً في الصحيحين منها ثمانية وستون حديثاً كان حسن الصوت بالقرآن. وفي الصحيح: «لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود»[2] وكان عمر إذا رآه قال: شوقاً إلى ربنا يا أبا موسى فيقرأ عنده. قال الشعبي: انتهى العلم إلى ستة فذكره فيهم. وقال ابن المديني: قضاة الأمة أربعة: عمر وعلي وأبو موسى وزيد بن ثابت. شهد فتوح الشام، وكان أحد الحكمين بصفين وخدع فيه حتى كان ما كان، ثم اعتزل الفريقين. مات سنة اثنتين أو أربع وأربعين أو ثلاث وخمسين قيل بمكة وقيل بالكوفة وهو ابن نيف وستين.

سيدنا الحسن[3] وسيدنا الحسين ابنا سيدنا علي (رضي الله عنهم)

قال الحافظ ابن حجر وقع جمعهما لما لهما من الاشتراك في كثير من المناقب وكان مولد الحسن في رمضان سنة ثلاث من الهجرة عند الأكثر ومات

(1) ترجم له في صفة الصفوة: 1/ 243 ـ 246، الإصابة: 4/ 119 ـ 120 رقم 4889.

(2) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب حسن الصوت بالقراءة بالقرآن، ومسلم في صلاة المسافرين باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وابن حبان في صحيحه (7197).

(3) انظر ترجمة سيدنا الحسن بن علي في صفة الصفوة: 1/ 432 ـ 343، وترجمة سيدنا الحسين في نفس المرجع: 1/ 343 ـ 344.

بالمدينة مسموماً سنة خمسين وقيل قبلها وقيل بعدها ودفن بالبقيع إلى جنب قبر أمه، وصلّى عليه سعيد بن العاص. وقد تواترت الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ قال في الحسن: «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين» الحديث. كان حليماً فاضلاً ورعاً دعاه فضله وورعه إلى ترك الملك رغبة فيما عند الله تعالى، وظهر صدق ذلك فإنه لما قتل أبوه علي بايعه أكثر من أربعين ألفاً وكثير ممن تخلف عن أبيه ومن نكث بيعته. فبقي خليفة بالعراق وما وراءها من خراسان خمسة أشهر. ثم سار إلى معاوية في أهل الحجاز وسار إليه معاوية في أهل الشام فلما التقى الجمعان بالأنبار كره الحسن القتال لعلمه أن إحدى الطائفتين لا تغلب حتى يهلك أكثر الأخرى فسلّم الأمر إلى معاوية على شروط.

وأما الحسين فكان فاضلاً كثير الصوم والصلاة حجّ خمساً وعشرين حجة ماشياً. وقال ﷺ فيه وفي الحسن «سيدا شباب أهل الجنة» وقال: «هما ريحانتاي في الدنيا». شهد مع أبيه الجمل ثم صفين ثم قتال الخوارج وبقي معه إلى أن قتل. ثم مع أخيه إلى أن سلّم الأمر إلى معاوية فتحول مع أخيه إلى المدينة واستمر بها إلى أن مات معاوية فخرج إلى مكة ثم أتته كتب أهل العراق بأنهم بايعوه بعد موت معاوية فأرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب فأخذ بيعتهم وتوجه إليهم وكان من قصة قتله ما كان وقتل معه جماعة من أهل البيت في موضع يقال له كربلاء ويقال له الطف قرب الكوفة في يوم عاشوراء سنة 61هـ. مولده في شعبان سنة أربع على قول الأكير.

سيدنا أسامة[1] بن زيد (رضي الله عنهما)

تقدم ذكر نسبه في مناقب والده يكنى أبا محمد ويسمونه حِب رسول الله ﷺ وتربى في بيت النبوة مع أولاده وكان يجعله في حجره هو وسبطه الحسن ويقول: «اللهم إني أحبهما فأحبهما» توفي النبي ﷺ وهو ابن عشرين سنة وولاه على جيش عظيم فيه أبو بكر وعمر فمات النبي ﷺ قبل أن يتوجه فأنفذه أبو بكر وتقدم الكلام على هذا الجيش في فضائل أبي بكر. وكان أسامة ممن اعتزل الفتنة. وتوفي آخر أيام معاوية.

---

(1) ترجم له في صفة الصفوة: 1/ 227، الاستيعاب: 1/ 108، الإصابة: 1/ 29 رقم 89.

سيدنا عبد الله بن سعد (رضي الله عنه)

هو أبو يحيى عبد الله بن[1] سعد بن أبي سرح بن الحارث القرشي العامري أخو عثمان بن عفان من الرضاعة، شهد فتح مصر واختط بها وكان صاحب الميمنة في الحرب مع عمرو بن العاص وله مواقف محمودة في الفتوح براً وبحراً وأمره عثمان على مصر وافتتح إفريقية زمن عثمان وكانت ولايته مصر سنة 25هـ، وكان فتح إفريقية من أعظم الفتوح بلغ سهم الفارس فيه ثلاثة آلاف دينار وذلك سنة 28هـ وقيل كانت ولايته على مصر سنة 27هـ بعد عزل عمرو بن العاص، فغزا إفريقية ومعه العبادلة، وقيل: كانت ولايته سنة 25هـ وغزوة إفريقية سنة سبع وكان محمود السيرة ولما وقعت الفتنة سكن عسقلان ولم يبايع لأحد. روى البغوي بإسناد صحيح عن يزيد بن أبي حبيب قال: خرج ابن أبي سرح إلى الرملة فلما كان عند الصبح قال: اللهم اجعل آخر عملي الصبح، فتوضأ ثم صلّى فسلّم عن يمينه ثم ذهب ليسلّم عن يساره فقبض الله روحه. وذكره البخاري من هذا الوجه، وأخرج السراج عن عبد العزيز بن عمران قال: مات ابن أبي سرح سنة 59هـ في آخر سني معاوية.

سيدنا معاوية (رضي الله عنه)

هو أمير المؤمنين معاوية[2] بن أبي سفيان تقدم ذكر نسبه في مناقب أخيه يزيد. كان من كتبة الحسبة الفصحاء حليماً وقوراً، قال المديني: كان زيد بن ثابت يكتب الوحي ومعاوية يكتب للنبي ﷺ فيما بينه وبين العرب، ولاه عمر الشام بعد أخيه يزيد وأقره عثمان ثم استمر فلم يبايع علياً ثم حاربه واستقل بالشام ثم أضاف إليها مصر ثم تسمى بالخليفة بعد الحكمين ثم استقل لما صالح الحسن واجتمع إليه الناس فسمي ذلك العام عام الجماعة، مات في رجب سنة 60هـ على الصحيح.

سيدنا مسلمة[3] بن مخلد (رضي الله عنه)

هو أبو سعيد مسلمة بن مخلد على وزن محمد الأنصاري الخزرجي. قال: ولدت حين قدم النبي ﷺ المدينة، وهو أحد الرجال الأربعة الذين بعثهم عمر

---

(1) ترجم له في: تهذيب التهذيب: 5/ 235، تهذيب الكمال للمزي: 15/ 24 رقم 3301، تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني: 1/ 497 رقم: 3363.

(2) ترجم له في: الإصابة: 6/ 112 ـ 114 رقم: 8063، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص155 ـ 163، التهذيب: 10/ 207.

(3) ترجم له في: تهذيب التهذيب: 10/ 148، تقريب التهذيب: 2/ 183، رقم 6687.

رضي الله عنه مدداً لفتح مصر وقال: الواحد منهم مقام الألف، وهو أول مَن جمعت له إمارة مصر والمغرب، مات سنة 62هـ.

سيدنا مروان بن الحكم (رضي الله عنه)

هو أبو عبد الملك مروان[1] بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي وهو ابن عم عثمان وكاتبه في خلافته. ولد بعد الهجرة بسنتين وقيل بأربع كان يعد من الفقهاء، شهد فتح إفريقية وكان من أسباب قتل عثمان وشهد الجمل مع عائشة ثم صفين مع معاوية ثم ولى إمرة المدينة لمعاوية ولم يزل بها إلى أن أخرجه ابن الزبير في أوائل إمرة يزيد بن معاوية فبايعه بعض أهل الشام في قصة طويلة ثم كانت الوقعة بينه وبين الضحاك بن حنين وكان أميراً لابن الزبير فانتصر مروان وقتل الضحاك واستوثق له ملك الشام ثم توجه لمصر فاستولى عليها ثم بغته الموت فعهد إلى ولده عبد الملك فكانت مدته في الخلافة نحو نصف عام ومات في رمضان سنة 65هـ وهو أول من ضرب الدنانير الشامية وكتب عليها ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

سيدنا عبد الله بن العباس (رضي الله عنه)

هو أبو العباس عبد الله[2] بن العباس ابن عم رسول الله ﷺ وأمه أم الفضل لبنانة بنت الحارث الهلالية. ولد قبل الهجرة بثلاث سنين وهو أثبت الأقوال، كان من أعيان علماء الصحابة ومن أعلمهم بتفسير القرآن وكان عمر يقدمه مع الأشياخ وهو شاب. أورد في حديثه قال: ضمني النبي ﷺ وقال: «اللهم علِّمه الحكمة» وفي لفظ «علِّمه الكتاب» وفي رواية «فقهه في الدين» وفي رواية «فاغمسه في الدين وعلِّمه التأويل» وفي رواية «اللهم بارك فيه وانشر عنه واجعله من عبادك الصالحين» واختلف في تفسير الحكمة هنا فقيل الكتاب وقيل الإصابة في القول، وقيل الفهم عن الله، وقيل ما يشهد العقل بصحته، وقيل نور يفرق به بين الإلهام والوسواس، وقيل سرعة الجواب بالصواب، وقيل غير ذلك، وكان ابن مسعود يقول: نعم ترجمان القرآن ابن عباس. وكان ابن عمر يقول: ابن عباس فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول. وقال مسروق: كنت إذا رأيت ابن عباس قلت أجمل الناس

---

(1) ترجم له في: تقريب التهذيب: 2/ 171، رقم 6588.

(2) ترجم له في: الإصابة: 4/ 90 رقم: 4772، تهذيب الكمال: 15/ 154، تهذيب التهذيب: 5/ 276، تقريب التهذيب: 1/ 504 رقم 3420.

وإذا تكلم قلت أفصح الناس وإذا تحدث قلت أعلم الناس، وكان يسمى الحبر لغزارة علمه والبحر لاتساع حفظه ونفوذ فهمه، وجملة ما روي عن رسول الله ﷺ ألف حديث وستمائة وستون، في الصحيحين منها مائتان وأربعة وثلاثون، وهو أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة رواية عن رسول الله ﷺ أبو هريرة وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وعبد الله بن عمرو بن العاص وعائشة. وأحد العبادلة الأربعة عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير؛ والحاصل أن دعوات رسول الله ﷺ فيه قبلت وظهرت بركاتها عليه فاشتهرت علومه وفضائله فارتحل طلاب العلم إليه وازدحموا عليه ورجعوا عند اختلافهم لقوله وعولوا على نظره ورأيه، وكان يقال له حبر العرب ويقال إن الذي لقبه بذلك جرجير ملك الغرب وكان قد غزا مع عبد الله بن أبي سرح إفريقية فتكلم مع جرجير فقال له: ما ينبغي إلا أن تكون حبر العرب، ذكر ذلك ابن دريد في الأخبار المنثورة. قال ابن يونس: وكانت هاته الغزوة سنة 27هـ فضائله جمة وتوفي بالطائف وفي وفاته أقوال والصحيح وهو قول الجمهور سنة 68هـ.

* * *

شقيقه أبو محمد عبيد الله كان من فضلاء الصحابة وكان جميلاً سخياً جواداً، استعمله علي على اليمن وحجّ بالناس سنة 36هـ ومات بالمدينة سنة 58هـ وبه جزم أبو نعيم.

سيدنا عبد الله[1] بن عمرو بن العاص
(رضي الله عنهما)

تقدم ذكر نسبه في مناقب والده يكنى أبا عبد الله وأبا عبد الرحمٰن أسلم قبل أبيه وفي الصحيحين قصته مع النبي ﷺ في نهيه عن مواظبة قيام الليل وصيام النهار وأمره بصيام يوم بعد يوم وبقراءة القرآن في كل ثلاث وهو مشهور وفي بعض طرقه أنه لما كبر كان يقول: يا ليتني كنت قبلت رخصة رسول الله ﷺ وهو أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة حديثاً في البخاري عن أبي هريرة ما أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب روى

---

(1) ترجم له في: الإصابة: 4/ 111 ـ 112 رقم: 4839، التهذيب: 5/ 337، تهذيب الكمال: 15/ 357، رقم: 3450، تقريب التهذيب: 1/ 517، رقم: 3510.

عن النبي ﷺ وجماعة من الصحابة وعنه الكثير من الصحابة والتابعين. شهد فتح مصر وإفريقية ومات سنة 69هـ على أحد الأقوال وهو ابن اثنين وستين.

سيدنا عبد الله[1] بن الزبير (رضي الله عنهما)

تقدم ذكر نسبه في فضائل والده يكنى أبا عبد الله أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ولد عام الهجرة وحفظ عن النبي ﷺ وهو صغير وحدّث عنه بجملة من الحديث وعن أبيه وأبي بكر وعمر وعثمان وخالته عائشة وغيرهم وهو أحد العبادلة وهو أول مولود للمهاجرين بعد الهجرة حنكه النبي ﷺ بتمرة مضغها ثم تفل في فيه فكان أول شيء دخل في جوفه ريق النبي ﷺ ودعا له وبرك عليه وهو أحد الأربعة الذين اقتدى بهم عثمان لنسخ المصاحف. شهد اليرموك مع أبيه والجمل مع عائشة ثم اعتزل حروب علي وشهد فتح إفريقية وبويع له بالخلافة سنة 64هـ عقب موت يزيد بن معاوية ولم يختلف عنه أحد إلا بعض أهل الشام ثم جهز عبد الملك بن مروان جيشاً أميره الحجاج إلى ابن الزبير فقاتله إلى أن قتل في جمادى الأولى سنة 73هـ في خبر طويل الذيل.

سيدنا عبد الله[2] بن جعفر (رضي الله عنهما)

مر ذكر نسبه في مناقب والده يكنى أبا محمد ولد بالحبشة لما هاجر أبوه إليها. روى عن النبي ﷺ وعن أبويه وعمه وأبي بكر وعثمان وعمار بن ياسر وعنه جماعة روي عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وأما عبد الله فيشبه خلقي وخلقي» ثم أخذ بيدي فقال: «اللهم اخلف جعفراً في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه» قالها ثلاث مرات، وكان كريماً وأخباره في الكرم كثيرة شهيرة. شهد فتح إفريقية والمشهور أنه مات سنة 80هـ.

---

(1) ترجم له في: صفة الصفوة: 1/ 344 ـ 347، الإصابة: 4/ 69 رقم: 4673، تهذيب التهذيب: 5/ 213، تهذيب الكمال: 14/ 508، تقريب التهذيب: 2/ 492.

(2) ترجم له في: الاستيعاب: 3/ 880 ـ 882 رقم: 1488، أسد الغابة: 3/ 94 ـ 96، الإصابة: 4/ 48 ـ 49 رقم: 4582، الرياض المستطابة ص202 رقم: 94، تهذيب التهذيب: 5/ 170، تقريب التهذيب: 1/ 483 رقم: 3262.

خلاصـــة

اعلم أن الفتوحات الإسلامية امتدت واتسعت في الجهات الشرقية والغربية زمن الخلفاء الراشدين لطهارة سيرتهم وصفاء سريرتهم ولعدلهم في بيت المال وغيره وكان الصحابة رضي الله عنهم هم الواسطة العظمى في انتشار الدين وتبليغه بنقل أقواله وأفعاله وأحواله وأخباره وبث العلم وانتشاره وبهم أشرقت على العالم أنوار النبوة المحمدية على صاحبها أشرف السلام وأزكى التحية واعترفت الأمة لله الواحد القهار بالوحدانية وبلغت من الرقيّ أعلاه ومن المجد أسناه وبسطت الخلافة الإسلامية يدها على مشارق الأرض ومغاربها كل ذلك بواسطة الصحابة ثم التابعين رضوان الله عليهم أجمعين فهم الذين مهّدوا لنا المسالك وفتحوا لنا الأقطار والممالك وذلوا الأمم وأقاموا منار العدل ومحوا آثار الفساد والبغي والظلم وقد كانوا أسود نزال وعلماء حرب وقتال وكانت لهم الحرية الحقيقية لا يسكتون على منكر ولا يقرون على ضيم وكانوا غير مستبدين في الأعمال لا يبرمون أمراً من أمور الدولة إلا بعد المشاورة فيه مع عظماء الأمة وكان اختيار الأعمال المنوطة بهم يوكل إليهم والخليفة ينفذ ما استقر عليه رأيهم لأنه أرجى في نجاح الأمور لأن الأمة لا تجتمع على ضلالة فكانت الأعمال منظمة والرياسة في أهلها والنجاح متأصل الأطراف مأمون مما يخاف.

واعلم أني أشرت فيما تقدم للفتوحات الشرقية والغربية التي وقعت زمن الخلفاء الراشدين وهي في الحقيقة تمهيد للفتوحات الغربية وذكر أمراء إفريقية. وحيث كان ذلك هو الغرض الوحيد من تأليف هاته التتمة وقد آن الأوان فلنشرع في الغرض المقصود، مستعيناً بالواحد المعبود، فنقول:

الفتوحات الغربية على يد الصحابة

أول أمير تأمّر على جيوش إفريقية هو البطل المشهور المجاب الدعوة سيدنا عبد الله بن سعد بن أبي سرح بعهد من الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وتحرير الخبر في ذلك كان استعمل على الحرب في مصر عبد الله بن سعد وأمره بغزو إفريقية سنة 24هـ أو 25هـ وقال له: إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم، فأمر عقبة بن نافع بن عبد القيس القرشي الفهري الصحابي بالمولد على جند وعبد الله بن نافع بن الحارث على آخر وسرحهما فخرجوا إلى إفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها

لكثرة أهلها، ثم إن عبد الله بن سعد شكا عمرو بن العاص إلى عثمان لخلاف وقع بينهما فاستقدمه عثمان واستقل عبد الله بن سعد على إمارتي الخراج والحرب في مصر، وكتب عبد الله يستأذن عثمان في قصد إفريقية ثانية ويستمده فجمع عثمان أصحاب رسول الله ﷺ واستشارهم في ذلك فأشاروا عليه بغزوها فندب الناس إلى ذلك فتسارعوا وخرج المهاجرون الأولون وفيهم جماعة أعيان الصحابة وأبناء الصحابة منهم العبادلة الأربعة ابن عباس وابن الزبير وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين ومروان بن الحكم. ولما اجتمع المسلمون على المسير جمع عثمان الناس وخطب خطبة قال فيها بعد حمد الله والثناء عليه: أما بعد، فإني قد عهدت إلى عبد الله بن سعد أن يحسن إلى محسنكم ويتجاوز عن مسيئكم وأن يرفق بكم ولا حول ولا قوة إلا بالله وقد استعملت عليكم الحارث بن عبد الحكم حتى تقدموا إلى عبد الله، فلما قدموا خرج بمن كان معه وبمن قدم عليه وذلك سنة 26هـ ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا إلى طرابلس فقاتلهم الروم قتالاً خفيفاً وبعث عبد الله السرايا في كل ناحية وساروا إلى إفريقية تونس فقابله عند مدينة يعقوبة ـ وفي رواية سبيطلة ـ حاكم إفريقية الشمالية من قبل إمبراطور القسطنطينية واسمه غريغوار ويسميه العرب جرجيراً بمائة وعشرين ألف مقاتل واشتبك بينهما القتال وجاءهم عبد الرحمٰن بن الزبير مدداً من قبل عثمان بفتح الزاي وهو غير الزبير بضم الزاي ابن العوام فشهد الحرب وقد غاب عنهما عبد الله بن سعد فسأل عنه فقيل له إنه سمع منادي جرجير يقول: من يقتل ابن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي، فخاف وتأخر عن حضور القتال فقال له عبد الله بن الزبير: تنادي أنت بأن مَن قتل جرجيراً نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، وقد كان جرجير لما سمع بوصول المدد سقط ما في يده إلا أنه جالد المسلمين جلاداً عظيماً فلما أبطأ عليهم الفتح أشار عبد الله بن الزبير على عبد الله بن سعد أن يترك جماعة من أبطال المسلمين متأهبين للحرب ويقاتل العدو بباقي العسكر إلى أن يضجروا فيحمل عليهم بالآخرين على غرّة ففعل وركبوا من الغد إلى القتال وألحوا على الأعداء حتى اتبعوهم ثم افترقوا وقد أنهكهم التعب فركب عبد الله بن الزبير مع الفريق المستريحين وحملوا حملة واحدة حتى غشوا عسكر جرجير في خيامهم فانهزموا وقتل عبد الله بن الزبير جرجيراً وأخذت ابنته سبية فنفلها ابن الزبير وحاصر عبد الله بن سعد سبيطلة ففتحها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفاً وهو فتح عظيم لم يفتح على أحد مثله، ثم إن عبد الله بن سعد بعث سراياه إلى أنحاء البلاد وعليها القواد ومنهم ابن الزبير فجالوا

في أقطار المغرب غرباً وشرقاً وجنوباً، فأغاروا من جهة الجنوب على إقليم بين أسنة المعروف ببلاد النخل أو الجريد ومن الشمال والغرب على إقليمي نوميدايا وموريتانيا في الجزائر ثم بلاد فاس ومراكش المعروفة بموريتانيا الطنجية وهكذا حتى انقادت لهم البلاد إلى بوغاز جبل طارق ودفع أهلها لهم الجزية التي كانوا يؤدونها لقيصر الروم كما ذلك في خلاصة تاريخ العرب. أما مؤرخو الإسلام فقد اختصروا أخبار هذا الفتح وذكروا الصلح الذي عرضه عظماء إفريقية على ابن سعد وهو أن يعطوه ثلاثمائة قنطار من الذهب أي مليونين وخمسمائة ألف دينار ونيفاً فقبل ذلك منهم وأرسل ابن الزبير بالفتح والخمس إلى أمير المؤمنين عثمان فاشتراه مروان بخمسمائة ألف دينار، ولما أصاب ابن سعد من إفريقية ما أصاب ورجع إلى مصر جهز قسطنطين بن هرقل أمبراطور القسطنطينية أسطولاً كبيراً مؤلفاً من ستمائة مركب أراد أن يهاجم به الإسكندرية على قول ابن خلدون وابن الأثير لم يذكر الجهة التي كان يريدها قسطنطين والظن أنه كان يريد إفريقية بدليل التجاء الأمبراطور إلى جزيرة صقلية بعد انكساره في هذه الغزوة وهي قريبة من تونس، ولما بلغ المسلمين خروج هذا الأسطول خرج لملاقاته في البحر أسطولان أسطول من الإسكندرية مع عبد الله بن سعد وأسطول من سورية مع معاوية بن أبي سفيان والتقيا معه في عرض البحر فقرنوا السفن إلى بعضها واقتتلوا قتالاً شديداً حتى استحر القتل فانهزم قسطنطين جريحاً إلى صقلية بما بقي معه من الروم ولما علم أهل صقلية فراره قتلوه وسمى المسلمون هذه الغزوة غزوة ذات الصواري والمكان كذلك لكثرة ما كان فيها من الصواري، ثم إن الأمبراطور فونستانس الثاني غضب على أهل إفريقية لما أعطوه من المال لابن سعد لأنه أكثر مما كانوا يعطوه لأمبراطورة الروم واغتنم فرصة اضطراب المسلمين وانقسامهم في التنازع على الخلافة فأرسل من قبله بطريقاً ليأخذ منهم مثله فأبوا فقاتلهم وطرد البطريق الذي ولوه عليهم من قبل المسلمين بعد جرجير فالتجأ إلى معاوية بن أبي سفيان وقد كان اجتمع له الأمر فنصره وبعث جيشاً أميره معاوية بن حديج بالحاء المهملة مصغراً الكندي له صحبة ورواية ووفادة وذلك سنة 45هـ لتدويخ البلاد وطرد الروم عنها ثانية ولما وصل الجيش إفريقية انتشب القتال بينه وبين جيش العدو قرب قصر أجم وكان النصر حليف المسلمين، وبعد هذا الفوز بعث معاوية بن حُديج عبد الله بن الزبير لسوسة ففتحها وفتح بنزرت وجلولا ووجه أسطولاً مهولاً لصقلية وغنم غنائم كثيرة ثم رجع معاوية لمصر بعد أن خلّد آثاراً حسنة وعزله الخليفة معاوية عن إفريقية وأقره على مصر ثم عزل عن مصر سنة 51هـ وتوفي بها في السنة بعدها. أخرج ابن عبد الحكم عن سليمان بن سفيان قال:

غزونا إفريقية مع ابن حديج ومعنا بشر كثير من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ثم غزا إفريقية عقبة بن نافع ومعه جماعة من الصحابة، وفي هذه الغزوة استشهد أبو زمعة عبيد الله بن أرقم البلوي نسبة لبلي كعلي قبيلة من قضاعة وهو صاحب المقام المعروف به خارج القيروان ودفنت معه شعرات من شعر النبي ﷺ فعظم بذلك قدر إفريقية واختط عقبة القيروان وبنى بها الجامع الأعظم المشهور وكان تأسيسه لها سنة 50هـ وتم سنة 55هـ وقاتل البربر وشردهم ثم عزله معاوية وولى مصر وإفريقية مسلمة بن مخلد الأنصاري فوجه لإفريقية مولاه أبا المهاجر ديناراً سنة 56هـ وغزا جزيرة شريك وغيرها ولما توفي الخليفة معاوية وبويع لابنه يزيد رجع هذا الخليفة عقبة المذكور إلى عمل إفريقية ووصل القيروان سنة 62هـ. غزا كثيراً من الجهات وفتحها وشتت جموع البربر وغيرهم. قال ولي الدين بن خلدون: وصل عقبة إلى جبال درن وقاتل المصامدة بها وكانت بينه وبينهم حروب وحاصروه بجبال درن فنهض إليهم جموع زناتة وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة فأفرجت المصامدة عن عقبة فأثخن فيهم حتى حملهم على طاعة الإسلام ودوّخ بلادهم ثم دخل السوس لقتال مَن بها من صنهاجة وهي يومئذ على دين المجوس فأثخن فيهم وهزم جموع البربر وقفل راجعاً وكان كسيلة الأروبي في جيوش عقبة قد استصحبه في غزواته وكان يستهين به ويمتعضه حتى صار في نفسه شيء بسبب ذلك على عقبة وبلغ ذلك أبا المهاجر وهو معتقل عند عقبة فبعث إليه ينهاه ويقول له: كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبار في قومه وبدار عزه وحديث عهد بالشرك فتستفسده وأشار عليه بأن يتوثق منه وخوّفه غائلته فتهاون عقبة بقوله. فلما قفل من غزاته هاته وانتهى إلى أرض الزاب، وكسيلة أثناء هذا كله في صحبته، صرف العساكر إلى القيروان أفواجاً ثقة بما دوخ من البلاد وأذل من البربر وبقي في قليل من الجند فلما وصل إلى تهودة وأراد أن ينزل بها الحامية نظر إليه الفرنجة وطمعوا فيه فراسلوا كسيلة ودلوه على الفرصة فيه فانتهزها وأرسل بني عمه ومَن تبعهم من البربر فاقتفوا أثر عقبة وأصحابه حتى إذا غشوهم بتهودة ترجل القوم وكسروا أجفان سيوفهم ونزل الصبر واستلحم عقبة وأصحابه فلم يفلت منهم أحد وكانوا زهاء الثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين، واستشهدوا في مصرع واحد، فيهم أبو المهاجر دينار. وأجداثهم رضي الله عنهم بمكانهم بأرض الزاب لهذا العهد، واتخذ على المكان مسجد يعرف باسم عقبة هو في عداد المزارات ومظان البركات بل هو أشرف مزور من الأجداث في بقاع الأرض لما توفي فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ

أحد مد أحدهم ولا نصيفه. وكان ذلك سنة 63هـ ثم بعد الوقعة زحف كسيلة إلى القيروان وبها يومئذ جمهور العرب ووجوه الإسلام فبلغهم الخبر وعظم عليهم الأمر فقام زهير بن قيس البلوي فيهم خطيباً وقال: يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة فاسلكوا سبيلهم فخالفه قيس بن عبد الله الصنعاني لما علم أنه لا طاقة للمسلمين لما دهمهم من أمر البربر ورأى أن النجاة بمَن معه من المسلمين أولى ونادى في الناس بالرحيل فاتبعوه إلا قليلاً منهم وانتقل زهير إلى برقة واجتمع إلى كسيلة جميع أهل المغرب من البربر والفرنجة وعظم أمره وتقدم إلى القيروان واستولى عليها في محرم سنة 64هـ وفرّ منها بقية العرب ولحقوا بزهير ومَن بقي بها آمنه كسيلة، وثبت قدمه بالقيروان واستمر أميراً على البربر ومَن بقي من العرب خمس سنين، وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية وإذ ذاك أمر الخلافة في الشرق في اضطراب إلى أن استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة وأذهب آثار الفتنة بالمشرق فالتفت إلى المغرب وتلافى أمره على نحو ما سنذكره في الطبقة الآتية.

صلـــة

اعلم أنه دخل إفريقية مئات من الصحابة ووقع التصريح بأسماء بعض مَن دخلها غير أنهم قليلون بالنسبة لمَن دخلها وقد اقتطفت أسماءهم من الإصابة والاستيعاب والاستقصى والخلاصة النقية وغيرهم وهم نيف وأربعون من الطراز الأول وعليهم في الأمور المعول والواجب أن نطرز ما جمعته ونتوج ما أسلفته بذكر أسمائهم اهتماماً بشأنهم رضي الله عنهم:

عبد الله بن عمر بن الخطاب.
عبد الله بن عمرو بن العاص.
عبد الله بن الزبير.
عبد الله بن العباس.
عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.
عبد الله بن مسعود.
عبد الله بن سعد بن أبي سرح.
الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وريحانتا رسول الله ﷺ.
المقداد بن الأسود.
مروان بن الحكم.
سعيد بن العباس.
مسلمة بن مخلد.
أبو لبابة.

هؤلاء ترجمت لبعضهم في هاته التتمة وبعضهم في الطبقة الثانية في المقصد. ولنذكر مَن لم نترجم له فيما سلف من هذا الكتاب.

عبد الله بن نافع بن الحصين وجهه عثمان مع ابن أبي سرح لشدة بطشه وإصابة رأيه.

أبو ذؤيب خالد بن خويلد الهذلي الشاعر المشهور كان فصيحاً متمكناً من الشعر، وعاش في الجاهلية دهراً وأدرك الإسلام وأسلم على عهد النبي ﷺ ولم يره. روى ابن عبد البر أن أبا ذؤيب قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ عليل فاستشعرت حرباً وبت بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ولا يطلع نورها حتى إذا كان قرب السحر غفيت فهتف بي هاتف يقول:

خطب أجل أناخ بالإسلام بين النخيل ومعقل الآطام
قضى النبي محمد فعيوننا تذري الدموع عليه بانسجام

قال: فوثبت من نومي فزعاً فنظرت إلى السماء فلم أرَ إلا سعد الذابح فتفاءلت به ذبحاً يقع في العرب وعلمت أن النبي ﷺ مات، فركبت ناقتي وسرت. وروي أنه لما وصل وجد النبي ﷺ ميتاً وحضر الصلاة عليه ودفنه، وشهد بيعة أبي بكر وسمع خطبته. ورثى النبي ﷺ بقصيدة منها:

كسفت لمصرعه النجوم وبدرها وتزعزعت آطام بطن الأبطح

كان أصاب الطاعون خمسة من أولاده فماتوا في عام ولهم بأس ونجدة فقال في قصيدته التي أولها:

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومنها:

وتجلدي للشامتين أريهم إني لريب الدهر لا أتضعضع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع
والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

سئل حسان بن ثابت مَن أشعر الناس قال رجلاً أو قبيلة، قالوا قبيلة قال هذيل. في طبقات أبي العرب محمد بن تميم: من أعيان الصحابة الذين شهدوا إفريقية عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الرحمٰن بن أبي بكر وأبو ذؤيب الهذلي وتوفي بإفريقية وقام بأمره عبد الله بن الزبير ونزل في لحده.

عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما يكنى أبا محمد وأبا عبد الله وهو أسن ولد لأبي بكر وكان صالحاً لم يجرب عليه كذبة قط شجاعاً رامياً شهد بدراً واليمامة والجمل وإفريقية كما في طبقات أبي العرب. كان من أعلام الصحابة. مات بمكان على عشرة أميال من مكة وبها دفن سنة 54هـ على أحد الأقوال.

عبد الرحمٰن بن الزَّبير بفتح الزاي وكسر الموحدة. بعثه عثمان مع جيش مدداً لابن أبي سرح بإفريقية.

عبيد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما كان من شجعان قريش وفرسانهم ولما قتل أبو لؤلؤة والده عمر عمد عبيد الله هذا إلى الهرمزان وجماعة من الفرس وقتلهم حيث اتهمهم بالمؤامرة على قتل والده عمر رضي الله عنه في خبر تركنا إيراده خشية التطويل. شهد إفريقية وقتل بصفين مع معاوية سنة 36هـ.

أخوه عاصم دخل إفريقية ومات بالربذة سنة 68هـ على أحد الأقوال.

عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام القرشي استشهد بإفريقية وفي الإصابة مات سنة 43هـ وهو أحد الأربعة الذين تولوا نسخ المصاحف زمن عثمان.

معبد بن العباس بن عبد المطلب استشهد بإفريقية.

حمزة بن عمرو الأسلمي.

أبو نعيم معاوية بن حديج بضم الحاء المهملة مصغراً كان من فضلاء الرجال. شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص وأمره معاوية على الجيش الذي جهزه لمصر والأمير عليها محمد بن أبي بكر الصديق من قبل علي رضي الله عنه ولما قتل بايع المصريون معاوية وتولى غزو المغرب مراراً آخرها سنة 50 ومات بمصر سنة 52هـ.

بلال بن الحارث بن عاصم المزني أبو عبد الرحمٰن من أهل المدينة اقتطعه النبي ﷺ العقيق وكان صاحب لواء مُزينة يوم الفتح. مات سنة 60هـ وله ثمانون سنة.

جرهد بن خويلد الأسدي يكنى أبا عبد الرحمٰن من أصحاب الصفة مات في خلافة يزيد.

جبلة بن عمر الأنصاري هو أخو أبي مسعود البدري. غزا إفريقية مع ابن حُديج، شهد أحداً وفتح مصر وصفين مع علي وكان فاضلاً من فقهاء الصحابة.

حِبان بكسر الحاء المهملة وموحدة بعثه عمر بن الخطاب لمصر ليفقه الناس ومات بإفريقية.

خالد بن ثابت العجلاني الفهمي شهد مصر وغزا إفريقية مع مسلمة بن مخلد.

رويفع بن ثابت الأنصاري النجاري ولاه معاوية على طرابلس سنة 46هـ وغزا إفريقية من قبل مسلمة بن مخلد ومات ببرقة وهو أمير عليها من قبل مسلمة المذكور.

مسلمة بن الأكوع الأسلمي كان شجاعاً رامياً سابقاً يسبق الفرس على قدميه، مات بالمدينة سنة 74هـ وهو ابن ثمانين سنة.

ربيعة بن عباد بكسر العين وتخفيف الباء، مات في خلافة الوليد.

أبو أيمن سفيان بن وهب الخولاني ولي إمرة إفريقية زمن عبد العزيز بن مروان ومات سنة 82هـ.

مسعود بن الأسود القرشي العدوي المعروف بابن العجماء.

المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري له ولأبيه صحبة، مات سنة 64هـ.

المسيب بن حزن القرشي المخزومي والد سعيد بن المسيب له ولأبيه صحبة.

المطب بن أبي وداعة القرشي السهمي له ولأبيه صحبة.

المنيذر الأسلمي دخل إفريقية والأندلس ولم يدخلها أحد من الصحابة سواه.

أبو المبتذر أو المبتذل دخل إفريقية.

أبو زمعة عبيد الله بن أرقم وقيل عبيد بن آدم البلوي صاحب المقام المشهور خارج القيروان من أصحاب الشجرة وله رواية مرَّ ذكره قريباً.

أبو المهاجر دينار كان من الشجعان وذوي الرأي المصيب ولما تولى مسلمة بن مخلد أمر مصر وإفريقية بعث مولاه أبا المهاجر سنة 56هـ لإفريقية عوض عقبة بن نافع ودخلها وتولى أمرها وقاتل البربر وفي سنة 62هـ رجع يزيد بن معاوية عقبة لإفريقية وبقي أبو المهاجر عنده معقولاً إلى أن استشهد مع عقبة سنة 63هـ ومر ذكره قريباً وفي صحبته توقف وهو عقبة بن نافع بن عبد القيس القرشي الفهري خاله عمرو بن العاص له صحبة بالمولد. شهد فتح مصر واختط بها ثم ولاه يزيد بن معاوية إمرة الغرب وغزا البربر وشردهم وهو الذي اختط القيروان وجامعها الأعظم قدم على عثمان بن عفان بفتح إفريقية، بعثه ابن أبي سرح وأوصى أولاده بأن لا يقبلوا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا من ثقة ولا يكتبوا ما يشغلهم عن القرآن. وبالجملة فإن فضائله جمة، قتله البربر هو وأصحابه سنة 63هـ ومرت الإشارة إلى ذلك قريباً.

أبو شداد زهير بن قيس البلوي يقال له صحبة كان من العابدين الصالحين ومن رجال الكمال. شهد فتح مصر ولما تولى عبد الملك وبلغه ما فعله كسيلة بعقبة وغيره بعث لزهير وهو ببرقة بالتوجه لإفريقية واستنقاذها من كسيلة سنة 69هـ وبعد انتصاره وقتله كسيلة خاف الفتنة بحصول ذلك الملك، رجع للشرق ولما بلغ برقة لقي الروم في عدد قليل فقاتل حتى قتل شهيداً هو ومَن معه في خبر يأتي ذكره قريباً.

فقد تم لإفريقية بدخول هؤلاء السادة الفضلاء القادة مزيد الاعتبار والافتخار على كثير من الأمصار والأقطار وأول مدينة أسسوها القيروان وبها كرسي المملكة وصارت مناخ الأبرار من الصحابة والتابعين ومقر الأخيار من الأمراء والعلماء العاملين ومنها وقع تجنيد العساكر المحمدية ونشر الملة الأحمدية عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية إلى سائر الجهات الغربية الأندلس والسودان والصحراء وستعلم ذلك.

جغرافية المغرب أي إفريقية الشمالية الغربية

يحدها من الشمال الأوقيانوس الأطلانتيك ومضيق جبل طارق والبحر المتوسط وشرقاً بلاد مصر والبحر المتوسط أيضاً وجنوباً الصحراء الكبيرة وغرباً الأوقيانوس وكانت تنقسم في صدر الإسلام إلى ثلاثة أقسام كبرى المغرب الأقصى وقاعدتها فاس ومراكش والمغرب الأوسط وهي المعروفة بالجزائر وقاعدتها تلمسان ومدينة الجزائر على البحر المتوسط والمغرب الأدنى وهي ولاية طرابلس وتونس وكانت قاعدتها القيروان بالقرب من تونس أما المغرب الأقصى فهو الآن تحت حماية دولة فرنسا وينقسم إلى أقسام فاس ومراكش ودرعة وتافيلات والرباط وسلا على شواطىء الأوقيانوس الأطلانتيك والسوس ومن جبالها درن وغمارة ومديونة ويحده قسم كبير يعرف بالريف تحت حماية دولة إسبانيا ومن مدنه تطاون وسبتة ومليلة وطنجة على ساحل البحر المتوسط وأما الجزائر وهي المغرب المتوسط فتنقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى وهي الجزائر ووهران وقسنطينة وهي تابعة لدولة فرنسا ومن مدنها الشهيرة بجاية وعنابة أو بونة ووهران ومستغانم وهي على البحر المتوسط.

وأما المغرب الأدنى سمي بذلك لقربه من مقر الخلافة بالمشرق وفيها ولايتا طرابلس وتونس وكانت قاعدتها القيروان بالقرب من تونس وأشهر مدنه طرابلس وبرقة وبنغازي وتونس وهي قرب أطلال قرطاجنة القديمة وتسمى قديماً إفريقية وربما سموا إقليم تونس بهذا الاسم ثم سموا القارة كلها به من باب تسمية الكل باسم

الجزء وهي على البحر المتوسط ومن مدنها الشهيرة بنزرت وسوسة والمنستير والمهدية وصفاقس وقابس وهي على البحر المتوسط والقيروان أسسها عقبة بن نافع الفهري وجعلها قاعدة البلاد فولاية طرابلس هي الآن تحت حكم إيطاليا وولاية تونس تحت حماية دولة فرنسا.

الكلام على قرطاجنة

في الحلل السندسية قرطاجنة بفتح القاف وسكون الراء وبعدها طاء مهملة وألف وجيم مفتوحة ونون مشددة وهي وإن تلاشت وخربت فإنها كانت من أضخم ممالك إفريقية وأكثرها عدداً وأقواهاً عدداً وأتقنها بناءً وأغربها أقباءً وأوسعها مجالاً وأشدها قتالاً وأحكمها صناعة وأرفعها بضاعة وأطبها أرضاً وأطولها أعماراً. وأول مَن وضع هذه المدينة امرأة تسمى أنسية ديدون فنيقية وتدعى عليسة من بنات بعض الملوك وكانت زوجة ملك من كبار ملوك الروم ومات ولم يكن لها ولد وكان لها أخ وكان ملكاً أيضاً فأراد الاستيلاء على ملكه وما خلفه من الخزائن والأموال فماطلته حتى ركبت البحر بجميع ذخائرها ودخلت إفريقية وأسست قرطاجنة وعمرتها وأنشأت الدور والجنان والقصور. وفي الاستقصى قرطاجنة إحدى مدن الدنيا الشهيرة هدمها الروم قبل المسيح عليه السلام بمائة وستة وأربعين سنة ثم أسست ثانية وخربها العرب. وفي الحلل لما وقعت العداوة بين صاحب قرطاجنة وصاحب رومة الكبرى وقعت بينهم حروب ثلاث الأولى آلت إلى صلح بينهم وكانت الدائرة فيها على صاحب رومة ثم إن صاحب رومة جهز عمارة بحرية وقصد قرطاجنة وأول بلدة نزلها قليبية وكانت الدائرة على صاحب قرطاجنة وانفصلت على مال يؤدونه إلى صاحب رومة سنوياً ثم تجددت الحرب وهي الثالثة آل الأمر فيها باستيلاء صاحب رومة على قرطاجنة وأعاد لها عمرانها إلى أن فتحها الإسلام. وقال ولي الدين بن خلدون: كانت الروم والفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من البحر الرومي وكان أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن وكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله وبهذه الأساطيل دخل الروم لإفريقية والقوط إلى المغرب وملكوها وتغلبوا على البربر وانتزعوا من أيديهم أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولا ومرناق وشرشال وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد وكانت هاته عادة لأهل البحر قديماً وحديثاً. اهـ.

وزبدة القول على مقتضى ما حققه بعض المتأخرين أن قرطاجنة مدينة عظيمة على البحر المتوسط أسسها الفينيقيون سكان سواحل سورية وكان لها في التاريخ القديم شأن عظيم ومنها ظهر القائد الشهير هنبال الذي غزا الرومانيين في عقر ديارهم وما زالت قرطاجنة التي كانت ضرة رومة شجى في حلق الرومانيين حتى والى عليها الرومانيون الغزوات وأخربها القائد سيبون سنة 149هـ قبل المسيح والظاهر أن الخراب لم يأتِ عليها كلها بل حفظت شيئاً من رونقها القديم إلى العصر الإسلامي وتكرر عصيان أهلها وامتناعهم في حصونها العظيمة ولما اشتدت الفتنة الكبرى في إفريقية على عهد عبد الملك بن مروان أرسل حسان بن النعمان الغساني لاستخضاع أهلها فقصد البربر وقاتلهم ثم قصد قرطاجنة وافتتحها ولما عاد عنها امتنعت ثانية فرجع إليها وحاصر أهلها حتى ألجأهم للتسليم بعد أن فرَّ منهم من طريق البحر مَن فر ثم أمر بتخريبها فخربت وعفا أثرها ومن أنقاضها عمرت تونس وهذا التخريب وإن عد عند الأثريين سيئة لحسان إلا أنه عند السياسيين ليس بشيء لأن الدول من دأبها أن يعفي اللاحق منها أثر السابق وإذا خرب المسلمون في إفريقية هذه المدينة فقد أقاموا مدناً غيرها ربما كانت أعظم منها كتونس والقيروان والقاهرة وغيرهن وإنما تفضل قرطاجنة على غيرها باعتبار أنها أثر قديم من آثار أمة عظيمة كان لها شأن كبير في التاريخ لذا فليس ببدع أن يأتي حسان ما أتاه ويأتيه غيره في كل دولة من الدول لا سيما وإنما اعتبار البلدان التاريخي الأثري لم يكن في تلك العصور بالمنزلة التي انتهى إليها في هذا العصر.

واعلم أن إفريقية تداولتها دول قبل الفتح الإسلامي المعروف منها أربع دول ويعبر عنها بالأطوار الأربعة:

الطور الأوّل:

دولة قرطاجنة تأسست سنة 88هـ قبل المسيح أسستها ديدون المذكورة، وقد بلغت هاته الدولة الغاية في الحضارة والعمران والقوة، لهم معرفة وحذق بأساليب الملاحة والتجارة وما وقع الاكتشاف عليه من آثارها يدل على ذلك، واستولت على جزير كثيرة وامتدت شوكتها في الأرض وبعد صيتها حتى صارت لا ترى غيرها وزعيمتها إذ ذاك في الشوكة دولة الرومان برومة وكانت على غاية في القوة فرام صاحب قرطاجنة هنبال القائد الشهير محاربتها فأول ما بدأها به استيلاؤه على صقلية ثم انتشبت الحرب بين الدولتين وتوالت وقصد الرومان قرطاجنة بأسطول مهول ونزلوا بمرسى قليبية. وأشهر الوقائع في هاته الحرب انتصار القنصل الروماني

ريكرلوس على جيوش قرطاجنة قرب رادس ثم انتصار قرطاجنة قرب تونس ووقوع هذا القنصل أسيراً بيد قرطاجنة وانتهت هاته الحروب بصلح تغالى قرطاجنة في شروطه ثم رجعت الحرب بين الدولتين أعظم من الحروب المتقدمة وانتهت باستيلاء الرومان على تونس وصارت تابعة لرومة بعد صلح شروطه مهينة لقرطاجنة ثم أخذ الرومان في الاستيلاء شيئاً فشيئاً حتى استولى على كامل إفريقية وأفضى الحال إلى اضمحلال قرطاجنة وذهاب مهابة الدولة ومن أعظم الأسباب على ذهابها انضمام البربر إلى جيوش الروم.

الطور الثاني:

دولة الرومان واستيلاؤها النهائي كان سنة 146هـ قبل المسيح وأول شيء فعلته مع القرطاجنيين بعد تلك الوقائع والضغائن المتقدمة إبقاء ما كان على ما كان من حكومة وترتيب وتدين وغير ذلك وساروا معهم سيرة حسنة، وبذلك انقاد القرطاجنيون للرومان وصارت عوائدهم وطبائعهم واحدة وحصل بذلك الأمن والراحة، وفي مدتهم كانت إفريقية لنظر قنصل عام بولاية الأمبراطور تحت رياسة حكام آخرين من الرومان وظيفتهم مراقبة المدن وعروش البربر التي كانت أحكامها بيد عمال البربر وحماية البلد كانت منوطة بقوة كافية من العساكر بقرطاجنة لتمهيد الراحة لنظر قائد روماني بولاية من الأمبراطور أيضاً. ولما رسخ قدم هاته الدولة أخذت بجد واجتهاد في السعي بما يوجب عمران إفريقية فشيّدوا المدن والهياكل الضخمة كقصر أجم ومرسم دقة وآثار قرطاجنة واعتنوا اعتناءً زائداً بالفلح من زراعة وغراسة وجلب المياه وحفر الآبار وأساليب الري واستخراج المعادن وغير ذلك من الوسائل الموصلة إلى العمران والمنافع الكبيرة حتى صارت إفريقية مصدراً للحبوب والغلال تجلب محصولاتها إلى سائر الجهات الرومانية وصاروا يسمونها مطمورة الرومان، وحصل بذلك عمران عظيم في إفريقية قيل إنها كانت في ذلك الوقت تحتوي على ستة ملايين من السكان ومن ملوك هاته الدولة فرنسا الذي نقل كرسي مملكته إلى قسطنطينية ثم اغتصب منه الملك جيوش مع بقائه تحت الرومان، ثم ظهر أغسطوس واستولى على الملك وعلى عهده ولد المسيح وكان محباً للعلم وأهله عادلاً في رعيته. قيل إنه يعرض عزل نفسه كل عام على رعيته فلا يرضون بغيره ثم بعده جوفاوا قام في الملك نحو خمسين عاماً. وفي هاته المدة أخذ دين المسيح في الظهور بإفريقية بعد أخذه في الانتشار بالمشرق وأوروبا، واستمرت إفريقية في السعادة ونمو العمران مدة ثلاثة قرون بعد المسيح وكانت سيرة ملوكهم سيرة عدل

حيث كانت الدولة معتدلة الأحكام سديدة الترتيب. ولما اختل نظام الدولة أوائل القرن الرابع لاستبداد الملوك وتوالي الفتن وامتد هذا الخلل لإفريقية، وزاد الطين بلة والمريض علة بما ظهر من المناقشات الدينية بين البربر ومسيح الرومان، حتى آل الأمر إلى الانقسام إلى ملوك كثيرة وفتن وحروب بين البربر وغيرهم ودام هذا الحال أعواماً كثيرة وآماداً طوالاً، فاضمحلت بسبب ذلك دولة الرومان سنة 438هـ بعد المسيح وانتهى سلطانها على إفريقية وغيرها وتركت آثاراً خالدة أخذ منها الأوروباويون معارف كثيرة.

الطور الثالث:

استيلاء الوندال ـ وهو اسم قبيلة من القبائل الجرمانية ـ على إفريقية سنة 438هـ ودامت سلطنته 94 عاماً.

الطور الرابع:

استيلاء الروم البيزنطيين على إفريقية إلى أن ظهر الإسلام وفتحها على نحو ما مرَّ شرحه وكان الوندال والروم أهل ترف وملاذ في المساكن والملبس مع تكلف وتبذير.

فصل

اعلم أن المؤرخين والنسّابين اختلفوا في نسب البربر اختلافاً كثيراً، وفي الاستقصى بعد ذكر أقوال في ذلك: وأشبه الأقوال بالصحة أن بني حام تنازعوا مع بني سام فانهزم بنو حام أمامهم إلى المغرب وتناسلوا به واتصلت شعوبهم من أرض مصر إلى آخر المغرب إلى تخوم السودان. وكان بسواحل المغرب الأفارقة والإفرنج فكانت ذرية حام في المداشر والخيام والأعاجم الأول في البلدان، وبقي أكثر أولاد حام في بلاد فلسطين من أرض الشام إلى زمن داود عليه السلام وكان ملكهم يسمى جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء. أمر بإجلائهم عن بلاد كنعان وفلسطين إلى أرض المغرب فساروا نحو إفريقية وانتشروا هناك حتى ضاقت بهم البلاد وامتلأت منهم الجبال والكهوف والرمال وصاروا يتبعون مواقع القطر بالإبل وبيوت الشعر ولم تقدر الإفرنج على ردهم ودفاعهم فانحازت الأعاجم في المدن وبقي البربر فيما عداها وهم مع ذلك على أديان مختلفة يدين كل واحد منهم بما شاء من الأديان فمنهم مَن تمجس ومنهم مَن تهوّد ومنهم مَن تنصّر، واستمر الحال على ذلك إلى زمن الإسلام وكان فيهم رؤساء وملوك وكهّان، ولهم حروب وملاحم

عظام مع مَن قارعهم من الأمم. فالبربر جيل معروف من أعظم الأجيال وأعزها ولهم الفخر الذي لا يجهل، والذكر الذي لا يهمل. وقد تعددت فيهم الدول، وكثر فيهم الملوك العظام، وكان لهم القدم الراسخ في الإسلام، واليد البيضاء في الجهاد، ومنهم الأئمة والعلماء والأولياء والشعراء والأمراء، وأهل المزايا والفضائل. والبربر شعبان عظيمان بحيث لا يخرج بربري عنهما. قال ابن خلدون: علماء النسب متفقون على أن البربر يجمعهم جدان عظيمان وهما برنس ومدغيس ويلقب بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانيس، وبين النسابين خلاف هل هما لأب واحد أو لا؟ فعند ابن حزم هما لأب واحد والجميع من نسل كنعان بن حام، وقال سابق بن سليمان المطماطي وغيره من نساب البربر: إن البرانس فقط من نسل كنعان وأما البتر فهم من بني جرس بن قيس بن غيلان بن مضر وهذا القول مقول فيه. والحق أن الشعبين معاً عريقان في البربرية وأن الجميع من ولد مازيغ من ولد كنعان بن حام، فأما البرانس فتنقسم إلى سبعة قبائل: أروبة وصنهاجة وكتّامة ومصمودة وعجيسة وأوريغة وأرداجة ويقال ورداجة بالواو بدل الهمزة، وزاد سابق المطماطي وغيره ثلاثة قبائل وهم: لمطة وهسكورة وجزولة فتكون عشراً. فأما أروبة فكان منها كسيلة الأروبي قاتل عقبة رضي الله عنه الذي مرّ ذكره ومنهم إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأروبي القائم بدعوة إدريس بن عبد الله. وأما صُنهاجة فهم أكبر قبائل البربر حتى زعم كثير من الناس أنهم مقدار الثلث فهم بنو زيري بن مناد ملوك إفريقية الآتي ذكرهم، والملثمون ملوك مراكش والأندلس. وأما كتامة فهم القائمون بدعوة العبيديين بإفريقية ومصر. وأما المصامدة فمنهم عمارة وكان منهم بليان النصراني صاحب سبتة وطنجة أيام دخول عقبة المذكور إلى المغرب الأقصى وهم القائمون برغواطة أهل تامسنا وما اتصل بها ومنهم أهل جبل درن وهم القائمون بدعوة محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين. وأما باقي قبائل البربر فلم يكن لهم ملك يذكر والنسابون من العرب يقولون إن صنهاجة وكتامة من حمير وأن أفريقش الحميري تركهم حامية بإفريقية فتناسلوا بها واستحال لسانهم إلى البربري لكن المحققون من نساب البربر كسابق المطماطي وغيره ينكرون ذلك ويجزمون بأنهما قبيلتان عريقتان في البربرية. وأما البتر وهم بنو مادغيس فينقسمون لأربعة قبائل وهم: خريسة ونفوسة وأداسة وبنو لوي وهم لواتة، فأما خريسة فمنهم مكناسة ومن مكناسة بنو مدرار ملوك سجلماسة وبنو أبي العافية ملوك فاس ومن خريسة زناتة كلها ومن زناتة جراوة قوم الكاهنة دهيا صاحبة جبل أوراس التي أوقعت بحسان بن النعمان عامل الخليفة عبد الملك بن

مروان ومن زناتة أيضاً بنو خرز المغراوي ملوك تلمسان والمغرب الأوسط ومنهم مغراوة ملوك فاس وبنو يفرن ملوك سلا وتادلا ومنهم بنو زيان ملوك تلمسان وبنو مرين ملوك فاس فهؤلاء كلهم من زناتة وزناتة هو زانا بن يحيى بن ضري بن جيك بن مادغيس الأبتر. أما نفوسة وأداسة ولواتة فلم يكن لهم ملك يذكر وهاته القبائل الأربعة عشر تشتمل على عمائر وبطون وأفخاذ وفصائل لا حصر لها. وقال ابن خلدون: كان للبربر في الضواحي وراء ملك الأمصار المرهوبة الحامية ما شاء الله من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء وأقيال وأمراء لا يرامون بذل ولا تنالهم الروم والفرنج في ضواحيهم تلك بمسخطة ولا إساءة، ثم قال: وكانوا يؤدون الجباية لهرقل ملك الروم كما كان المقوقس صاحب مصر والإسكندرية وبرقة يؤدي الجباية له وكما كان صاحب طرابلس ولبدة وصبرة وصاحب صقلية وصاحب الأندلس من القوط يؤدون الجباية له حين كان الروم قد غلبوا على هذه الأمم أجمع وعنهم أخذوا دين النصرانية اهـ استقصى.

الطبقة الثالثة

طبقة التابعين رضي الله عنهم

من أعيان فقهاء هاته الطبقة نافع مولى ابن عمر ومحمد بن شهاب الزهري وأبو عثمان ربيعة الرأي. اعلم أنه بعد تأسيس هاته الممالك الإسلامية في الجهات الشرقية والغربية وبسط رواق العدل وإظهاره وقطع الظلم وأنصاره وتبليغ القرآن وانتشاره صار بذلك المسلمون إخواناً يتساوون في الحقوق ويتفاخرون بالتقوى وأعمال البر ومعالي الأمور ومكارم الأخلاق وذلك بواسطة الصحابة ثم التابعين وتقدم ذكر الأمراء الفاتحين من الصحابة وبقي ذكر الأمراء الذين جاؤوا بعدهم وقاموا مقامهم في نشر الدعوة والنصح للمسلمين فنقول: لما تولى الملك عبد الملك بن مروان وبلغه خبر كسيلة بعث لزهير بن قيس البلوي وهو إذ ذاك ببرقة بالتوجه لإفريقية واستنقاذ القيروان من كسيلة وأمده بالمال ووجوه العرب وفرسانها سنة 69هـ وسار زهير ودخل إفريقية بجموعه وخرج له كسيلة من القيروان في عسكره والتحم القتال ودام حتى انتصر المسلمون وقتل كسيلة ومن معه من وجوه البربر ومهد إفريقية وصار زهير بعد ذلك في ملك عظيم وكان من العابدين الصلحاء، ولما خاف الفتنة بحصول هذا الملك استقال ورجع للمشرق فلما وصل برقة وجد الروم على قتالها في جموع عظيمة وبأيديهم أسرى من المسلمين فقصدهم وقاتلهم حتى استشهد هو ومَن معه ولما بلغ خبره عبد الملك اشتد أسفه عليه ووجه حسان بن النعمان الغساني ويقال له الشيخ الأمين ودخل إفريقية سنة 79هـ في أربعين ألف مقاتل وبعد أن أقام بالقيروان قصد قرطاجنة وفتحها وهذا الفتح من الفتوحات الإسلامية العظيمة ثم قصد دهيا الكاهنة المشهورة وكانت في جموع عظيمة من البربر فالتحم القتال وصبر الجمعان إلى أن هزمته وفي هذا العهد كانت إفريقية في غاية العمران وإذ ذاك أذنت دهيا بتخريب مدنها وحصونها فخربتها وعضدت أشجارها ومحت جمالها ولم تبق إلا آثارها، ثم إن حساناً نظم جيشاً عظيماً ورجع لها بعد خمس سنين بما انضم إليه فهزمها وقتلها واستقام أمره ودخل القيروان ومهد الأحوال ودوّن الدواوين، وهو الفاتح لتونس وقيل زهير بن قيس ولما جاء الأمر بعزله من قبل والي مصر عبد العزيز بن مروان رجع للمشرق وتولى بعده أبو عبد الرحمٰن

موسى بن نصير بن عبد الرحمٰن بن زيد بن لخم من التابعين بعهد من الوليد بن عبد الملك. روى عن تميم الداري وكان أحد أفراد الدنيا ومشاهير رجالها وفرسان أبطالها لم يهزم له جيش قط.

قال ابن عذاري: وفي سنة 92هـ تمّ إسلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التي بنتها المشركون إلى القبلة وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات. وقال أبو محمد عبد الله بن أبي زيد: ارتدت البرابرة بالمغرب اثني عشرة مرة ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا بعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده قدم إفريقية وفتح زغوان وغيرها وقتل المخالفين وغنم وسبا وبعث أسطوله لصقلية فغنم الغنائم العظيمة وغزا بلاد المغرب وطنجة ولما استقرت له القواعد بالمغرب كتب لمولاه طارق بن زياد وهو بطنجة بغزو الأندلس فغزاها وفتحها سنة 92هـ ثم لحق به موسى سنة 93هـ وكمل فتحها وجمع غنائمها الكثيرة الشهيرة ورجع للقيروان أواخر سنة 95هـ ثم توجه للمشرق واستخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس وابنه عبد الملك على طنجة وابنه عبد الله على إفريقية ولما دخل مصر هادى جميع فقهائها وأشرافها وبأثر ذلك امتحن بالعزل وقتل أولاده وغير ذلك على يد سليمان بن عبد الملك وكانت وفاته بالمدينة سنة 98هـ ومن وقته انتهت الفتوحات الإسلامية التي كانت للأسلاف لأنه كان يخشى اتساع الأقاليم لإنتاجه طمع قواد الجيوش في الاستقلال ولذا أفتك بالأمير موسى المذكور وأولاده وبالأمير قتيبة بن مسلم الذي ضم إلى المملكة الأموية أقاليم كثيرة وبالأمير محمد بن قاسم الذي أدخل جاهلية الهنود تحت حكم الأموية بحسن تدبيره وسياسته وبفقد هؤلاء القواد ذهبت قوة الدولة وشوكتها وزال حفظ وحدتها وأخذت أولاد عبد الملك من ذلك الوقت في الانحلال والانحطاط بعدما كان لأسلافهم من الشوكة والشرف بالممالك الإسلامية وغيرها فوق ما يقال وبلغوا بانتصاراتهم المتوالية وفتحهم البلاد الشاسعة درجات الكمال والمجد الباذخ والشرف الشامخ وسليمان المذكور عهد بولاية إفريقية لمحمد بن يزيد وقدم القيروان سنة 97هـ وغزا وسبا وكان عادلاً حسن السيرة ولما توفي سليمان كان الخليفة بعده عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه استعمل هذا الخليفة على إفريقية إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى قريش فوصلها سنة 100هـ وكان خير وال حريصاً على دعاء البرابرة للإسلام ذكر أبو العرب محمد بن تميم أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في الدين ومن كلامه رضي الله عنه تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور، وتوفي في السنة بعدها وبويع ليزيد بن عبد الملك وهو عهد بإفريقية ليزيد بن أبي مسلم الثقفي مولى

الحجاج بن يوسف وكاتبه وقدمها سنة 102هـ وكان ظلوماً غشوماً وسار السيرة الحجاجية فثار عليه حرسه وقتلوه ثم عهد يزيد لبشر بن صفوان بن نوفل قدم إفريقية سنة 103 وغزا صقلية بنفسه فأصاب سبياً كثيراً ورجع للقيروان وبها توفي سنة 109هـ وتولى بعده عبيدة بن عبد الرحمٰن بعهد من هشام بن عبد الملك قدم إفريقية سنة 110هـ ثم عزله هشام بعد أن أقام بها أربع سنين وتولى بعده عبيد الله بن الحبحاب بعهد من هشام المذكور وكان رئيساً نبيلاً وأميراً جليلاً وخطيباً مصقعاً قدم إفريقية سنة 114هـ وهو الذي بنى دار الصناعة بتونس وهي عبارة عن المكان الذي تنشأ به السفن وهو الذي خرق البحر من مرسى رادس إلى دار الصناعة بتونس في طول اثني عشر ميلاً وصارت من يومئذ ميناء عظيمة وهو الذي بنى جامع الزيتونة وقيل أول مختط له حسان بن النعمان وأتمه عبيد الله المذكور وقد ظهرت في آخر أيامه فرق من الخوارج منهم الأباضية والصفرية وجاءت من قبلهم مصائب وكوارث ونوائب وكانت هاته الفتن إحدى البواعث والأسباب في خرق ستار الهيبة على الخلفاء ورفع الحجاب وكانت أقوى سبب في انتقاض البربر على العرب ومزاحمتهم في سلطانهم فاختلت على ابن الحبحاب وآل الأمر إلى اتفاق الكلمة على عزله وكان ذلك سنة 123هـ ثم إن هشاماً لما بلغه ذلك وجّه عوضه كلثوم بن عياض وقدم في السنة في جموع كثيرة وجنود عظيمة وانتشب القتال بينه وبين زناتة وغيرها من القبائل وكانت الدائرة عليه بعد قتله ووجوه أصحابه ورجعت الصفرية إلى القيروان في أخبار طوال وحروب وأهوال ثم وجه هشام حنظلة بن صفوان وقدم القيروان ووقع القتال بينه وبين الثائرين وكان النصر حليف حنظلة ومات في هاته الواقعة مائة وثمانون ألفاً ولم يزل والياً عليها على أحسن حال إلى أن تغلب على المغرب عبد الرحمٰن بن حبيب بن عبيدة بن عقبة الفهري واستولى عليه سنة 129هـ وفيها رجع حنظلة للمشرق وإذ ذاك بنو أمية في تراجع ونقصان مع دعاة بني العباس إلى أن آل أمر الخلافة إلى السفّاح. في البيان المغرب في أخبار المغرب لابن العذاري، وفي سنة 132هـ انقطعت الدولة الأموية ومدتها واحد وتسعون سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام وهم أربعة عشر رجلاً منها أيام ابن الزبير تسع سنين واثنان وعشرون يوماً وتفرقت بنو أمية في البلاد هرباً بأنفسهم وهرب عبد الرحمٰن بن معاوية إلى الأندلس فبايعه أهلها وجددت لهم دولة استمرت إلى ما بعد الأربعمائة وأربع وعشرين وكان دخوله الأندلس سنة 137هـ قال ابن حزم: وانقطعت دولة بني أمية وكانت على علاتها دولة عربية لم يتخذوا قاعدة ولا قصبة إنما كان سكنى كل أمير منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل خلافته ولا كلفوا المسلمين أن يخاطبوهم بالعبودية ولا تقبيل أرض ولا

رجل ولا يد إنما كان غرضهم التولية والعزل من أقاصي البلاد منهم في الأندلس والصين والسند وخراسان وأرمينية واليمن والشام والعراق والمغرب وغيرها ن بلاد الدنيا وانتقل الأمر إلى بني العباس فكانت دولتهم أعجمية سقطت فيها دواوين العرب وغلب عجم خراسان على الأمور وعاد الأمر ملكاً عضوضاً كسراوياً إلا أنهم لم يعلنوا بسب أحد من الصحابة رضوان الله عليهم وافترقت في دولة بني العباس كلمة المسلمين فتغلب على البلاد طوائف من الخوارج وغيرها. اهـ.

واعلم أن البلاد الإسلامية كانت تدار بمعرفة أمراء يختارهم خلفاؤهم وهم نواب عنه وكانت منقسمة إلى إمارات كبرى منها مصر وإفريقية والأندلس وهاته تارة تضم إلى إفريقية وكان الأمير يقوم مقام الخليفة أحياناً يقيم الصلاة بنفسه ويقود الجنود ويختار من رجاله قائداً للجيش ويعين جابياً للخراج يصرف منه حاجات الإمارة وأعطيات الجنود ويرسل ما بقي للخليفة ويعين مَن شاء للقضاء بين الناس وتارة يقصرون الولاة على الصلاة والحرب والقضاء ويعين الخليفة عاملاً على الخراج يرجع إليه رأساً والأمراء الذين كانت لهم النيابة العامة كانوا متمتعين بما يسمى في هذا الوقت بالاستقلال الإداري، والذي دعا إلى تمتع هؤلاء الأمراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة وبين حواضر الولايات فلو ألزم الأمير أن يستشير في كل ما يقع في دائرته لطال عليهم وبقيت المشاكل من غير حل زمناً طويلاً وهذا يدعو إلى الاضطراب الكثير.

خلاصة فيما حصل مدة الدولة الأموية

اعلم أن عصرها كله زمن فتوحات ممتدة فاتسعت حدود المملكة شرقاً وشمالاً وغرباً وكان عصرها مع هذا زمن حروب داخلية مستمرة إلا في مدة الوليد بن عبد الملك مؤسس الجامع الأموي بدمشق فإنها كانت غرة في جبين الدولة، وكانت همة الدولة تقوية الجيوش البرية والبحرية فقد كان لهم أسطول قوي في البحر المتوسط يحمل البلاد الإسلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير على بلادهم ولم تكن أمراء البحر في الدولة تقل مهارة وإقداماً على أمراء البحر الروميين فهي دولة حربية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الدول التي تجاورها من الشرق والشمال والغرب في جميع أدوارها وكانت السيادة في الجنود للعنصر العربي لأن الدولة كانت عربية محضة لم ينازعها دخيل وامتاز أفراد كثيرون بقيادة الجيوش إلى حومة الوغى واشتهرت بالثبات ومضاء العزيمة وحسن التدبير في الحرب، من أولئك الأمراء العظام: عبد الله بن سعد بن أبي سرح وعقبة بن نافع والمهلب بن أبي صفرة

الأزدي وابنه يزيد وقتيبة بن مسلم الباهلي وأسد بن عبد الله القسري ومحمد بن قاسم الثقفي وموسى بن نصير، فظهرت بذلك في مظهر الملك وعظمته وسطوته ولحقها الترف في آخر مدتها. في العقد الفريد: سمر المنصور ذات ليلة فذكر خلفاء بني أمية وسرتهم وأنهم لم يزالوا على استقامة حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين. وكانوا مع عظم شأن الملك وجلالته همهم الشهوات وإيثار اللذات والدخول في معاصي الله ومساخطه جهلاً منهم باستدراج الله وأمناً لمكره فسلبهم العز ونقل عنهم النعمة.

الطبقة الرابعة

قد علمت أن المغرب استولى عليه عبد الرحمٰن بن حبيب وأن دولة بني أمية انقرضت وأن عبد الرحمٰن بن معاوية دخل الأندلس في أواخر ذي الحجة سنة 137هـ وتغلب عليه فملكه واستقل به وصار وراثة في بنيه وأن أمر الخلافة آل إلى بني العباس وأولهم عبد الله السفاح ثم أخوه أبو جعفر عبد الله المنصور ومن أخباره أنه لما بلغه ما حلّ بإفريقية من الثوار أمر والي مصر محمد بن الأشعث الخزاعي بإنقاذها فوجّه أبا الأحوص العجلي سنة 142هـ ولما بلغ القيروان هزمه الثوار ورجع مفلولاً فكتب المنصور لابن الأشعث بأن يسير بنفسه فسار في أربعين ألف مقاتل وقتل كثيراً من الثوار والبربر ورؤسائهم ودخل القيروان سنة 146هـ وضبط إفريقية أحسن ضبط ثم لما قام عليه بعض الثائرين خرج منها سنة 148هـ، ولما بلغ المنصور ذلك عهد بولاية إفريقية إلى الأغلب بن سالم بن عقال التميمي وكان ذا رأي وشدة فقدم القيروان واستقام أمره، ثم لما قتل في حرب مع الثائرين عهد المنصور لعمر بن حفص بن قبيسة بن أبي صفرة المهلبي وكان بطلاً سمحاً قدم القيروان سنة 151هـ فاستقام أمره ولما قتل في حرب كالذي قبله وجه المنصور أبا خالد يزيد بن حاتم المهلبي وهو واسطة عقد هذا البيت وأخباره في السخاء والنجدة والشهامة معروفة وكان من خواص المنصور ووجوه ولاته قدم القيروان في ستين ألف مقاتل سنة 155هـ فمهد الأمور ورتب أسواق القيروان وأفرد لكل صناعة مكاناً وجدد بناء جامعها وأوقع بالمخالفين وله مع البربر وقائع شهيرة وضبط الأحوال أحسن ضبط واستمر ناسجاً على ذلك المنوال إلى أن توفي سنة 171هـ ولما مرض استخلف ابنه داود وباشر الولاية بعد والده وكانت له وقائع مع البربر إلى أن قدم عمه روح بن حاتم بعهد من الرشيد وكان حاجبه وصدراً من صدور ولاته وهو أسن من أخيه يزيد فدخلها أواخر عمره وأفاض فيها سجال عدله وكرمه، وفي

أيامه انكسرت شوكة البربر واستكانوا للتغلب وأطاعوا الدين فضرب الإسلام بجرانه وتوفي روح سنة 174هـ وتولى بعده نصر بن حبيب المهلبي بعهد من الرشيد وكان حسن السيرة يؤثر العدل ثم جاء كتاب الرشيد بعزله وولاية الفضل بن روح ولم يستقم له أمر وقتل سنة 178هـ وانقرضت بانقراضه دولة المهالبة، وفي سنة 179هـ عهد الرشيد لهرثمة بن أعين وقدم إفريقية في السنة بعدها واستقام أمره وبنى القصر الكبير بالمنستير ثم استقال الرشيد فأقاله ورجع للمشرق لسنتين ونصف من ولايته، وكان قائداً محنكاً وله مع المأمون يد في تخميد الثوار وتسكين الهرج والفضل له في ذلك وله مقامات يحمد عليها ويشكر وقتل في حدود سنة 200هـ وبعث الرشيد لإفريقية عوضه محمد بن مقاتل العكي وهو أخوه من الرضاعة وكان اتهم البهلول بن راشد بالقيام عليه وبسبب ذلك أراد إضراره فمنعه الأهالي من ذلك وتوعدوه الثورة إن فعل في خبر تركناه اختصاراً.

في خلاصة تاريخ العرب: كان بالإيالات الشمالية من إفريقية مسلمون مسمون بالبربر مختصون بالحرية السياسية لعدم حاكم عليهم حتى ذهب إليهم من آسيا عرب أجروا عليهم حكم الخلفاء العباسيين ثم أخذ عبد الرحمٰن بن حبيب يستميل العرب والبربر حتى اتخذ منها أحزاباً زمن محاربة الأموية والعباسية من سنة 746هـ إلى سنة 752 ميلادية واستقل بالحل والعقد لاشتغال العباسية ثم انتصروا فانقاد لهم سنة 753هـ حتى حلفه الخليفة المنصور بمطالب أفضت به إلى الإعلان بالاستقلال والخطبة باسمه في جامع القيروان ثم طمع أخوه إلياس وأوقع بين العرب والبربر فتنة سفك فيها كثير من الدماء حتى انتهت سنة 771هـ بنصر العرب فاجتهد الأمير أغلب في جبر الجميع على الانقياد للمنصور، ثم عصت البربر المهدي والرشيد مرات خسرت فيها العباسية خسارات عظيمة آلت إلى استقلال الأغلبية بإفريقية وخلطوا دم البربر بدم العرب بالتصاهر وزال ما بينهما من التباغض والشقاق وانقاد الحكم لإبراهيم بن الأغلب وفيه لم تهتم العباسية بممالكها الغربية وتركوا مَن بشمال إفريقية يديرون أحوالهم كما شاؤوا وأطلقوا للعائلة الأغلبية التصرف في إفريقية مكتفين بذكر أسمائهم وقبل ذلك إبراهيم بن الأغلب من الرشيد اهـ.

فصل

اعلم أن العباسية تولت الخلافة سنة 132هـ وأولهم أبو العباس عبد الله السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما واستمرت فيهم الخلافة إلى سنة 656هـ استخلف فيها منهم سبع وثلاثون خليفة ومكثت هاته الدولة

مائة سنة لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الإسلامي ما عدا بلاد الأندلس، يقولون: فيسمع لهم ولا يجسر أحد على مخالفتهم والوقوف في وجه جنودهم. وقام في هذا العصر الزاهر الباهر من العباسية ثمانية خلفاء أولهم السفاح، وتوفي سنة 136هـ وقام بالأمر بعده أخوه أبو جعفر عبد الله المنصور وكانت وفاته سنة 158هـ وقام بالأمر بعده ابنه محمد المهدي وتوفي سنة 169هـ وقام بالأمر بعده ابنه موسى الهادي وتوفي سنة 170هـ وقام بالأمر بعده أخوه هارون الرشيد وكان ديناً محافظاً على التكاليف الشرعية يغزو سنة ويحج سنة وهو واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيها الخلافة إلى أفخم درجاتها سلطاناً وسطوة وثروة وعلماً وأدباً وكانت وفاته سنة 193هـ وقام بالأمر بعده ابنه محمد الأمين إلى أن قتل في محرم سنة 198هـ وقام بالأمر بعده أخوه عبد الله المأمون إلى أن توفي سنة 218هـ وقام بالأمر بعده أخوه المعتصم إلى أن توفي سنة 227هـ.

قد علم مما مضى أن نظر الخلفاء منسحب على المغرب وظلهم ممتد إليه وهم قادة الأمم الإسلامية في كل شيء من أمور الدنيا والآخرة وذلك حينما كان أمر الخلافة ممتداً وحكمها مجتمعاً وكلمتها نافذة في جميع ممالك الإسلام شرقاً وغرباً بحيث لا يخرج قطر من الأقطار ولا مصر من الأمصار فيما بعد أو دنا من الأرض عن نظر الخليفة الأعظم وقد كان ذلك ديناً متبعاً وحكماً مجتمعاً ولا تصح لأحد إمارة ولا ولاية إلا بإسناد إليه حتى إذا طال العهد وضعف أمر الخلافة وتقلص ذكرها من القاصية تفرقت ممالك الإسلام البعيدة عن دارها وتوزعها الثوار واستبدوا بها كل بما غلب عليه وصار أمر الوحدة إلى الكثرة وحكم الاجتماع إلى التفرقة وسيتضح لك ما قررناه مما سيأتي في محله إن شاء الله.

صلة

قال ولي الدين بن خلدون: هؤلاء الملوك الذين أتوا بعد الخلفاء الراشدين لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي إنما كانوا متحرين مقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد يشهد لك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء وما علم السلف من أحوالهم فقد احتج مالك في الموطأ بفعل عبد الملك بن مروان وكان من الطبقة الأولى من التابعين وعدالتهم معروفة ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع إلى طريق الخلفاء الأربع والصحابة بعدهم ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم

الدنياوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نقموا عليهم بأفعالهم وأدلوا بالدعوة العباسية وتولى رجالها الأمر فكانوا من العدالة بمكان وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد بعدهم فكان منهم الصالح والطالح ثم أفضى الأمر إلى بنيهم فأعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها ونبذوا الدين وراءهم ظهرياً فتأذن الله بحربهم وانتزاع الأمر من أيدي العرب جملة والله لا يظلم مثقال ذرة. اهـ.

في سراج الملوك: إن أدعى خصال السلطان صلاح الرعية وأقواها تمسكهم بأديانم وحفظهم لمروءتهم وإصلاح السلطان نفسه وتنزيهه عن سفاسف الأخلاق وبُعده عن مواضع الريب وترفيع نفسه عن استصحاب أهل البطالة والمجون واللهو والإعلان بالفسوق.

إذا ما غدا ملك باللهو مشتغلا فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان طالعة لما غدا وهو برج اللهو والطرب

وقد كانت صحبة محمد الأمين لأبي نواس الشاعر وصمة عظيمة عليه أوهى بها سلطانه ووضع عند العامة والخاصة قدره وأطلق لسان الخلف بالشتم والثناء القبيح عليه فخلفه بذلك أخوه المأمون على الولاية وأبو نواس هذا هو القائل:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر
وبح باسم من أهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر

فريدة أذكر فيها نبذة من حضارة بغداد في عهد المنصور والرشيد وابنه المأمون

اعلم أن بغداد وصلت في عهد هؤلاء الأمراء إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها.

أما من حيث العمارة فقد فاقت كل حاضرة عرفت لعهدها: بنيت فيها القصور الفخمة التي أنفق على بناء بعضها مئات الألوف من الدنانير وتأنق مهندسوها في إحكام قواعدها وتنظيم أمكنتها وتشييد بنيانها وصارت قصور الجانب الشرقي بالرصافة تناطح قصور الجانب الغربي كان في الشرق قصور البرامكة وما أنشأوه هناك من الأسواق والجوامع والحمامات وبالجانب الغربي كانت قصور الخلافة التي كانت تبهر الناظرين اتساعاً وجمالاً وامتدت الأبنية امتداداً عظيماً حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين علي جانبي دجلة واستبحر العمران فيها لما جاءها

من الثناء وصار سكانها نحو ألفي ألف نسمة حتى ازدحمت بساكنيها. وكانت متاجر البلدان القاصية تصلها براً وبحراً تجيئها من خراسان وما وراءها والهند والصين والشام والجزيرة، والطرق إذ ذاك آمنة والسبل مطمئنة.

وأما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة ببغداد ما يبقى من خراج الأقاليم الإسلامية ويدخل بيت مال الخليفة يصرف منه مرتبات الوزراء والمساعدين له والباقي يتصرف فيه حسبما يرى وهو شيء جسيم وكان الرشيد أسمح خلفاء بني العباس بالمال يعطي عطاء من لا يخشى فقراً للقصاد والشعراء والفقهاء والمنجمين والكتّاب وجرى على سننه كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حتى امتلأت الأسفار بذكر عطاياهم التي يتردد الإنسان في صحتها وراجت التجارة واشتد الترف وتغالى الناس في حاجاتهم وتأنقوا في معايشهم وانغمسوا في الملاذ واللهو والخلاعة وذلك شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة.

وأما العلم فإن بغداد صارت قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصار الإسلامية يرحلون إليها ليتمموا ما بدأوا فيه من العلوم والفنون فهي المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها فقد كان فيها كبار المحدثين والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويين وكلهم قائمون بالدروس والإفادة لتلاميذهم في المساجد الجامعة التي كانت تعتبر مدارس عليا لتلقي هذه العلوم وقلما كان يتم لإنسان وصف عالم أو فقيه أو محدث أو كاتب إلا إذا رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها وجميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشاً رغداً مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم ولم تكن بغداد بالمقصرة في علوم الدنيا كالطب والحكمة وغيرها من سائر الصناعات فقد حشد إليها الأطباء والمهندسون وسائر الصناع من الأقاليم المختلفة وحصل بذلك نعيم عظيم ونهضة علمية بقي أثرها خالداً.

أما الدولة الأموية فلم يكن في عهدها لترجمة الكتب كبير حظ ولا عظيم أثر لأنها أقرب إلى من قبلها في السذاجة الصناعية فلما جاءت الدولة العباسية وكان لها اختلاط كبير بالفرس وهذا الاختلاط قد جعل نفوس العباسيين تصبو إلى الاطلاع على شيء مما عند الفرس واليونان من آثار مقدميهم من العلماء والحكماء والفلاسفة وأول مَن عنى بترجمة تلك الكتب أبو جعفر المنصور ثم الرشيد. أما أوروبا في ذلك الوقت فكانت مهد جهالة لأنه بانقراض الرومانيين وغفلة الأمم المتبربرة على أوروبا انطفأ مصباح العلم وأما الحال في البلاد الإسلامية فكانت على العكس من

ذلك علماً وعملاً ببغداد وقرطبة فسعى شارلمان في إصلاح قوانين دولته مقلداً الرشيد وبعث وفداً إليه مصحوباً بهدايا ثم رجع الوفد ومعه هدايا منها ساعة وفيل وشطرنج وبعض أقمشة نفيسة فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الأمور السحرية وأوقعهم في حيرة حتى همُّوا بكسر الساعة. كانت العلوم في عهد المأمون أرقى عهود العلم في العصر العباسي وظهر في وقته جمهور من فطاحل العلماء توغلوا في البحث عن أصول الدين والعقائد وكان المأمون محباً للعلم ولزيادة نشره ومغرى بعلوم الأوائل وتحقيقها وله جولة في العلوم الدينية كما كانت له جولة في العلوم الصناعية وكان أثره في هذا أظهر من أثره في تلك وكانت له حركة قوية ونشاط عظيم بترجمة الكتب اليونانية وغيرها إلى اللسان العربي وكان لعهده جماعة ذوو يسار اعتنوا بنقلها إلى اللسان العربي وبذلوا الرغائب وأنفذوا جماعة إلى بلاد الروم فجاؤوهم بطريف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب والنجوم فكثرت الكتب المترجمة في جميع العلوم الصناعية ولما نقلت إلى العربية اشتغل بها ناس كثيرون علماً وعملاً ووجد منهم فلاسفة عظام ألّفوا كتباً عظيمة في هاته العلوم وكانت الأمة في استعداد تام لتلقي هاته العلوم والتصرف فيها والبناء عليها والزيادة فنفقت بسبب ذلك هذه العلوم وكان المأمون المساعد الأكبر في نفاقها والفضل له في ذلك مع حفظ الفضل لمَن سبقه كأبيه الرشيد وجده المنصور فإنهما وضعا الأساس اهـ. من محاضرات الخضري.

وفي خلاصة تاريخ العرب أن الصدر الأول من خلفاء بني العباس استعملوا شوكتهم في تزكية العقول وتنمية المعاش فأحدثوا كثيراً من المكاتب والمدارس التعليمية والإكمالات الإحسانية وحضُّوا على اكتساب التجارة وسائر الفنون واختص المنصور منهم بأنه أول مَن حثّ على الاشتغال بالعلوم واقتدى به من بعده في نشرها وتوسعتها بجلبهم من الأقاليم التي فتحوها علماء لترجمة أعظم كتب اليونان وإنشائهم كتبخانات ومدارس يتعلم فيها الخاص والعام العلوم الفلكية والرياضية والطبية والفلسفية مع تعلم القرآن العظيم وتدريس تفسيره وخصصوا مدرسة رتبوا لها خمسة عشر ألف دينار يتعلم بها مجاناً ستة آلاف تلميذ من الفقراء والأغنياء وانتشرت اللغة العربية في كثير من الجهات واعتاد المأمون ومَن اقتدى به حضور الدروس العامة التي يلقيها المدرسون ويمتحن مَن أراد أن يوظف عدة امتحانات وصرف مبالغ من النقود على ذلك وعلى جميع العلماء لحل مشكلات المسائل ومهر في زمنه كثير من العلماء في العلوم والفنون على اختلاف أنواعها واطلعوا شموس العلوم الرياضية وبنوا الأرصاد التي بها آلات عجيبة للاستكشاف الفلكي ومستشفيات

ومعامل كيماوية لاستكشاف النباتات ومكثت تلك المدرسة على رونقها الباهر نحو مائتي سنة فكان للعباسيين في ذلك أسعد حظ واستخرجوا معادن الحديد ونسجوا الأقمشة في كثير من المدن واستخرجوا الغاز والنفط وطينة الأواني الصينية والملح الأندراني والكبريت وتقدموا في فنون النقش والعمارة والجبر والموسيقى والمنطق وظهر بين أولئك العلماء مؤلفات كثيرة بارعة في فنون شتى وأظهر دور الفنون الميكانيكية تقدمات يشهد بها ما بعثه لرشيد إلى شرلمانية ملك الفرنسيين من الساعة الكبيرة الدقاقة التي تعجب منها أهل ديوانه ولم يمكنهم معرفة كيفية تركيبها ومع ذلك لم يكن في عصر العباسية أهم من صناعة الفلاحة ولما حصلت التوسعة في الممالك مع غزارة المحصول وتنوع الأقطار توجه النظر إلى رواج التجارة تتميماً للتمدن وامتثالاً لأمر الشارع بالتكسب فاجتهدوا في أمن الطرق وحفر الآبار والصهاريج في محطات القوافل فانتشرت التجارة فكانت غلات الأندلس والبربر ومصر والحبشة والفرس والروس والهند والصين وغير ذلك من الممالك تأتي إلى مكة والمدينة والشام والعراق ويستبدلون البضائع الموجودة في جهة بالبضائع المفقودة بها وكان بينهم بسبب ذلك علائق تعارف وكذلك اتسعت بالسواحل الشمالية من إفريقية دائرة التجارة وكان بها معامل كثيرة وكانت القوافل التجارية تسافر من طرابلس إلى الأقيانوس الإطلنطيقي غير خاشية من سيرها في وسط الصحراء الكبرى اهـ. وفيه قد حفظ العرب مؤلفات اليونان واستعدوا لتجديد المعارف في أوروبا فكانوا رباطة بين هذين الزمنين وبذا يثبت فضل العرب على الفرنج الذين حاول بعضهم خفض فضائل العرب الواضحة كالشمس في رابعة النهار ويعلم أن لا موقع لافتخار المتأخرين من أهل أوروبا بتصورات أكثرها للعرب وسبق لك ما كان لعلماء المدرسة البغدادية من التحكم النافذ بالمشرق والمغرب اهـ.

وزبدة القول إن الحضارة اتسعت في عصر هؤلاء الخلفاء وتمت العلوم الدينية والصناعية والاقتصادية نمواً باهراً فهو عصر النهضة العلمية وتزكية العقول فقد أسس أبو جعفر المنصور مدينة بغداد وتعاون على بنايتها العقل العربي والفارسي والرومي وتأنق في ذلك بوجه جعلتها تفوق جميع مدن العالم في ذلك العصر وحشر لها العلماء من جميع الأمصار والتجار والصناع وإذا أطللت على منتهى المملكة الإسلامية من جهة الغرب وجدت مدينة قرطبة تستعد إلى مساماة بغداد وتجد في إفريقية مدينة القيروان التي ورثت عظمة المدن الإفريقية الرومانية وانتقل إليها جمالها وتجد مدينة الفسطاط حاضرة مصر وقد جمع مسجدها الأعظم حلقات العلماء الذين أبقوا أكبر الآثار في الاجتهاد والاستنباط والذين أظهروا للناس كافة فقه الأئمة

المجتهدين على اختلاف مذاهبهم من أصحاب مالك والشافعي وظهرت حركة علمية ونمت نمواً عظيماً بما كان من وصول المدنيات القديمة التي ترجمت كتبها إلى رؤوس المفكرين من العرب وأول مَن اهتم بذلك أبو جعفر المنصور ثم جاء دور ثان على عهد المأمون فبلغ العلم إلى أرقى درجاته وكان مغرماً جداً بالآداب اليونانية فانتشرت تلك الكتب انتشاراً عظيماً وصار ما فيها عاملاً مهماً في تكوين معلومات كثيرة صناعية وفي هذا الدور ازداد حفاظ القرآن واشتهروا في جميع الأقطار إلا أن المسلمين في كل قطر اعترفوا بالتبريز للقراء السبعة المترجم لهم في المقدمة وهذا الدور كان عصراً مجيداً للسنة فقد تنبه رواتها إلى وجوب تصنيفها وتدوينها وقد وجدت هذه الفكرة في جميع الأمصار الإسلامية في أوقات متقاربة فكان من مدونيها في الدور الأول مالك بن أنس.

تنبيه: من أعيان علماء الدين وأئمة المسلمين في عصر هؤلاء الخلفاء إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه.

الطبقة الخامسة

اعلم أن هارون الرشيد عهد بولاية إفريقية لإبراهيم بن الأغلب، فباشر أمرها واشتغل بها، وصارت وراثة في عقبه، وكان فقيهاً أديباً شجاعاً أريباً حافظاً للقرآن عارفاً به، سمع الليث بن سعد فمهّد الأمور وطوّع البربر وكانت له معهم وقائع مشهورة ووقائع بالمغرب الأقصى مع أهل الدعوة لإدريس العلوي مؤسس فاس. وتوفي هذا الأمير سنة 196هـ وبويع لابنه أبي العباس عبد الله. وكان سيىء السيرة. وتوفي سنة 201هـ وبويع لأخيه زيادة الله بن إبراهيم وكان ملكاً جليلاً فصيحاً أديباً، وهو الذي شيّد جامع القيروان وبنى سور سوسة ووجّه له المأمون بعهد الولاية سنة 203هـ وتوفي سنة 223هـ. وبويع لأخيه أبي عقال الأغلب بن إبراهيم وكانت سيرته حسنة وله فتوحات بصقلية، وتوفي سنة 226هـ.

صلـة

لما توفي القاضي أبو محمد عبد الله بن غانم سنة 191 أشخص إبراهيم بن الأغلب أبا محرز محمد بن عبد الله الكناني وقال له: إني عزمت على توليتك القضاء. فقال له أبو محرز: لست أصلح لهذا ولا أطيقه، فقال له إبراهيم: لو كان الأغلب بن سالم ويزيد بن حاتم باقيين لم أكن أميراً، ولو كان عبد الله بن غانم وابن فروخ باقيين لم تكن أنت قاضياً، ولكل زمان رجال، وعلى الأمير الاختيار.

فامتثل أبو محرز وكان فاضلاً ورعاً فصيح اللسان بصيراً باللغة والشعر. أخذ عن مالك وكان يميل لمذهب أبي حنيفة ثم وقع تشريك أسد بن الفرات معه في القضاء ولم يعهد مثل ذلك في مصر واحد. وتوفي أبو محرز سنة 214هـ وكان هذا الأمير يقول: ما أبالي إن قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات تجديد جامع القيروان وبناء قنطرة أبي الربيع وحصن مدينة سوسة وولاية أبي محرز قضاء إفريقية. وكانت ولاية أسد بن الفرات القضاء سنة 204هـ بعهد من زيادة الله. وأسد هذا مولده سنة 142هـ بحران من ديار بكر. رحل به والده وعمره عامان مع الجند العربي لقيادة ابن الأشعث ودخل معه القيروان سنة 146هـ، ثم دخل تونس وانقطع لقراءة القرآن وعلومه وروى الموطأ عن ابن زياد، وفي الثامن عشر من عمره رحل للمشرق وأقام بالمدينة مدة وأعاد رواية الموطأ على مالك، ثم رحل للعراق ولقي أعلاماً من أصحاب أبي حنيفة منهم الإمامان أبو يوسف ومحمد بن الحسن وأخذ عنهما علماً غزيراً، ثم رحل لمصر ولقي جماعة من أعيان العلماء منهم الإمام عبد الرحمٰن بن القاسم فلزمه مدة وهناك ألّف الأسدية ثم قفل راجعاً للقيروان وبها انتشر ذكره وظهر علمه وارتفع قدره وفي سنة 212هـ جمع زيادة الله جيوشه وأسطوله لغزو صقلية وكان أمير هذا الجيش وقاضيه أسد المذكور فخرج في حفل عظيم وجمع فخيم من أهل العلم ووجوه الناس لمشايعته. ولما رأى أسد الناس خاصتهم وعامتهم بين يديه وخلفه قال بعد حمد الله: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يا معشر الناس، والله ما وليَ لي أب ولا جد ولاية قط ولا أحد من سلفي رأى هذا قط. وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام فاجهدوا أنفسكم وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه واصبروا على شدته فإنكم تنالون به خيري الدنيا والآخرة. وهذا الاحتفال انتهى بمرسى سوسة ومنها أقلع الأسطول قاصداً صقلية ودخلها بعد مكابدة مشاق وحصل له فتح عظيم بها. ومات أثر جراحات في حصار سرقوسة ودفن بذلك الموضع سنة 213هـ.
في كتاب الاعتصام نص كتاب بعثه أسد بن موسى إلى أسد بن الفرات يشكره على اتباعه للسنة والذب عنها وطعنه في المبتدعة. وقال في خاتمته: ادع إلى السنة حتى يكون لك في ذلك ألفة وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حادث فيكونون أئمة بعدك فيكون لك ثواب في ذلك إلى يوم القيامة ـ كما جاء في الأثر ـ فاعمل على بصيرة ونية حسنة فيرد الله بك المبتدع والمفتون الزائغ الجائر فتكون خلفاً عن نبيك ﷺ فأحي كتاب الله وسنة نبيه فإنك لن تلقى الله بعمل يشبهه.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء ابن فروخ وابن غانم وأبو محرز والبهلول بن أشد وأبو الحسن بن زياد وأسد بن الفرات.

الطبقة السادسة

لما توفي أبو عقال المتقدم الذكر بويع لأخيه أبي العباس محمد وكان مظفراً في حروبه، وله وقائع مع بعض آل بيته. ومن فضائله ولاية سحنون القضاء؛ راوده حولاً كاملاً على أن يوليه القضاء فأبى، ثم عزم عليه بالأيمان التي لا يخرج منها فلما رأى ذلك سحنون اشترط عليه شروطاً منها أنه قال له: إني أبدأ بآل بيتك وأعوانك فإن قبلهم حقوقاً للناس منذ زمان طويل ومنها أن آل الأغلب إذا طلبهم أحد يحضرون بأنفسهم في مجلس الحكم ولا يوكلون غيرهم لما يرون في ذلك من الردع لهم لأن الأنفة تمنعهم ذلك فلا يقع منهم التعدي ولا حجر الحقوق. وباشر بنفسه خطة الحسبة مع القضاء. رحل لمصر سنة 188هـ وقرأ الأسدية على ابن القاسم. وفي الديباج: لما ولي القضاء دخل على ابنته خديجة ـ وكانت من خيار النساء ـ وقال لها: اليوم ذبح أبوك من غير سكين. فبذلك علم الناس أنه قبل القضاء. انتهى وناهيك من قوم قاضيهم مثل الإمام الذي لم يقبل القضاء إلا بشروط وناهيك بذلك الأمير الذي وفي له بتلك الشروط وتوفي هذا الأمير سنة 242هـ وبويع لابن أخيه أبي إبراهيم أحمد بن محمد وكان فاضلاً عادلاً حسن السيرة كثير الصدقات رفيقاً بالرعية وكانت في أيامه وقائع بصقلية أكثرها للمسلمين، وله مآثر خالدة منها التوسعة في جامعي القيروان وتونس، وتوفي سنة 245هـ وهو ابن ثمان وعشرين سنة وبويع لزيادة الله بن أحمد بن محمد وكان فاضلاً عاقلاً حسن لسيرة شجاعاً جميل الأفعال. كان سليمان بن عمران القاضي يقول: ما ولي من بني الأغلب أعقل من زيادة الله هذا، وتوفي سنة 250هـ وبويع لأخيه محمد بن أحمد المعروف بأبي الغرانيق لشغفه بصيدها وكان يغلب عليه اللهو وكانت في أيامه حروب عظيمة وكان فتح جزيرة مالطة على يده سنة 255هـ وأسر ملكها وتوفي سنة 261هـ وبويع لأخيه إبراهيم بن أحمد وكان عادلاً حميد السيرة وفي أيامه كان فتح سرقوسة، ثم ساءت سيرته وأفتك بكثير من إخوته وبناته وآل بيته وجواريه وخدمه في أخبار تذوب منها الأكباد وتقشعر منها الجلود وكانت أفعاله السيئة أحد الأسباب في ضعف هاته الدولة المؤذن بزوالها ثم أظهر التوبة وأقلع عما كان عليه واستنفر الناس للجهاد ووسع على المقاتلة وفرق الأموال وخرج من سوسة إلى صقلية وهو أمير الجيش سنة 284هـ فسبى وغنم ودخل بليرمو وبها توفي سنة 289هـ في ذي القعدة بعلة أصابته ودفن هناك، وقيل: نقل للقيروان وبويع لابنه أبي العباس عبد الله وكان شجاعاً ثبتاً ذا بصر بالحروب أديباً عاقلاً حسن السيرة وله وقائع في صقلية مشهورة

وقتله غلامان من غلمانه غدراً وكان يثق بهما بإغراء من ابنه أبي منصور زيادة الله في شعبان سنة 290هـ وبويع لابنه أبي منصور المذكور وإذ ذاك نار دواعي الشيعة تأكل أطراف مملكته حتى استولى عليها شيئاً فشيئاً بعد حرب كانت الهزيمة فيها عليه سنة 296هـ ورحل عقب الهزيمة إلى المشرق بما خف من الأموال ونفيس الجواهر وتوفي بتلك الجهة سنة 303هـ وجرى له ما جرى فكانت عاقبته كما ترى لعقوقه والده وقتله إياه وانقرضت بانقراضه دولة بني الأغلب ومدتها مائة سنة وأحد عشر سنة وثلاثة أشهر، وفي مدتهم استقل المغرب الأقصى وصار في تملك الأدارسة في أخبار طوال وأولهم إدريس بن عبد الله واستفحل أمره في تلك البلاد وأسس مدينة فاس وأخبار المغرب الأقصى من عهده إلى هذا العهد مبسوطة في الاستقصى وغيره. واعلم أن ولاة إفريقية من الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا على السذاجة همهم الجهاد ودخول الناس في الدين الإسلامي وحفظ ما فتحوه ولما آل الأمر إلى بني الأغلب اشتغلوا أيضاً بالحروب والفتوحات وجمع العساكر النافعة مع ما فيهم من السذاجة العربية والبُعد عن عزة الملك وأخلاق الحضارة فكانت قضاتهم يحكمون عليهم وينصفون الناس منهم ومن غيرهم وأخبار قضاة العدل مذكورة مضافة ومستقلة مع تقدم في إحياء العلوم والصنائع والتجارة والفلاحة. في خلاصة تاريخ العرب أدخل الأغالبة في الأقاليم الإفريقية جميع مبادىء التمدن الإسلامي التي كانت بالشام والعراق وأخذوا يقيمون في تونس والقيروان وطرابلس فامتلأت تلك المدن مباني أبدت للناظرين الأقواس المادة والدعامة المزخرفة على حسب مبنى العمارة الروماني وبنوا قناطر على مجاري سيول سريعة التيار واجتهدوا في إحياء العلوم والصنائع والتجارة والفلاحة وأنشأوا مراكز تجارية سهّلت مخالطة سكان الصحراء بسكان السواحل وجددوا طرقاً أبدوا فيها الأمن وجعلوا نظارة محل البريد في أيدي أعيان البلاد ورتبوا بتلك المحال إبقاء التواصل التام بواسطة السعاة والبريد الخيلي من ابتداء حدود المغرب إلى حدود مملكة مصر وعمروا سفناً بحرية حكموا بها على البحر الأبيض المتوسط وغزوا سواحل مملكتي إيطاليا وفرنسا وجزائر قرقسه وسردانيا وسيسليا وبالغ مؤرخو الفرنج في الحكايات المتعلقة بتلك الغارات واستولوا على مقاطعات كثيرة ومدن شهيرة ثم ذكرها مدينة مدينة تركنا إيرادها هنا اختصاراً. ثم قال: وبالجملة أجاد العرب في ترتيب وتقسيم تلك البلاد وقدموا فيها الفلاحة والصنائع ونقلوا إليها شجر القطن من الشام وقصب السكر من طرابلس الغرب ولسان عصفور الفستق واستخرجوا ما فيها من معادن الفضة والحديد والنحاس والكبريت والملح الأندراني والمباني الموجودة منها في ضواحي بالرمة

تؤذن بمهارتهم في العمارة وفشا نسج الحرير بسيسليا ومنها انتشر في أوروبا. انتهى باختصار.

وفي الفتوحات الإسلامية: كانت ولاية إبراهيم بن الأغلب إفريقية سنة 184هـ بعهد من هارون الرشيد وتوارث الملك بعده بنوه عمالاً لخلفاء بني العباس واستمر فيهم إلى سنة 296هـ فزالت دولتهم وصارت للعبيديين واتسع ملكهم بإفريقية وصارت لم أموال كثيرة وخيل وجنود وافرة وملك ضخم ومراكب في البحر ولهم كثير من المآثر المحمودة والمواقف المشهودة والغزوات الكثيرة والفتوحات الشهيرة وأكثر فتوحات إفريقية كان على أيديهم بصقلية بكسرات مشددة اللام جزيرة عظيمة كثيرة البلدان والقرى والمواشي وكان أول الغزو إليها زمن معاوية بن حديج في خلافة معاوية رضي الله عنه ولم يفتحها وتتابع الغزو إليها زمن ولاية بني الأغلب من أول دولتهم إلى آخرها وتملكوا أكثر الجزيرة ولم يزل الفتح فيها والغزو إلى أن انقضت دولتهم وتفصيل ذلك مبسوط في التواريخ. انتهى.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء الإمام سحنون وابنه محمد وابن عبدوس وحمديس وعيسى بن مسكين ويحيى بن عمر.

الطبقة السابعة

لما انقرضت دولة بني الأغلب وآلت إلى بني عبيد في أخبار طوال بواسطة أبي عبد الله الصنعاني من صنعاء اليمن وكان صاحب جدل ودهاء وحذق وسياسة. كان أول ملوك هاته الدولة أبو محمد عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب ينتهي نسبه إلى سيدنا علي رضي الله عنه وأثبت نسبهم الكريم ولي الدين بن خلدون. وقال ابن خلكان: في نسبهم خلاف كثير وهاته الدولة تعرف بدولة الشيعة، والشيعة لغة: الصحب والاتباع، وفي عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف تطلق على أتباع علي وبيته رضي الله عنهم وهم طوائف فمنهم الضال ومنهم العاصي، وكان عبيد الله هذا رجل الدنيا دهاءً وعقلاً مهيباً ولما استقل بالإمارة سنة 297هـ واستقام له الحال بعد تمهيد الأمور وتفقد العمال، غزا صقلية وإسكندرية ومصر وساعده المقدور وأسس مدينة المهدية في جزيرة جمة وحصنها وانتقل إليها سنة 308هـ وثار عليه مخلد بن كيداد الأباضي واستولى على غالب إفريقية وتوفي في ريعان الثورة سنة 323هـ وبويع لابنه أبي القاسم محمد وكان ذا نجدة وبأس وبعث مولاه كاتبه جوهراً بأسطول عظيم في جيوش كثيرة لأرض الروم وفتح مدناً وحصوناً منها جنوة ومهد النواحي وقمع الثوار ومنهم مخلد المذكور وكان داعياً إلى الحق آخذاً بالحسبة

منكراً مذهب الشيعة مظهراً إقامة السنة وبذلك استمال الخاص والجمهور وقاد الأمور بتجنيد الجنود لقتال الشيعة ووالى الهزائم على أبي القاسم المذكور حتى استعان بزيري ملك صُنهاجة، ومات أبو القاسم على حصار سوسة سنة 334هـ وبويع لابنه المنصور أبي الطاهر إسماعيل بعهد من أبيه وكان فصيح اللسان بليغاً وتوالت الحروب بينه وبين مخلد المذكور إلى أن ظفر به سنة 336هـ وصلب جلده محشواً قطناً على باب المهدية وبعث بأسطوله لغزو الفرنج فأتيح له فتح لا كفاء له وذلك سنة 340هـ وتوفي في السنة بعدها وهو أول مَن استعمل بني أبي الحسن على ملكة صقلية واتصلت بها أيامهم وفي المدارك اتفق شيوخ القيروان على الخروج على ملوك الشيعة بني عبيد وقتالهم منهم السبائي والخراط وأبو العرب والمميسي والقطان ومروان العابد وبعد الاتفاق وإلقاء الخطب المحرضة على ذلك قصدوا المهدية في جند عظيم وبعد قتال شديد كانت الهزيمة عليهم واستشهد الكثير منهم فمن العلماء والعباد خمس وثمانون منهم ربيع القطان والمميسي. انتهى. وحاصل القول إن هذا الخارجي مخلد المذكور أوهم الناس أنه منتصر للسنة وتبين بعد حروب ومصائب أنه سيىء السيرة خبيث السريرة ولما توفي المنصور بويع لابنه معد أبي تميم المعز وهو مجل بيتهم وواسطة عقدهم فأحسن السيرة ودوّخ البلاد وآمن المخالفين ورسخت قدمه وعظم سلطانه ووجه وزيره جوهراً للغرب الأقصى فمهد أحواله في أخبار شهيرة وكان له نصر وفتح في صقلية سنة 345هـ ثم وجه وزيره جوهر المذكور لمصر في عساكر تفوق الحصر سنة 357هـ وخرج لتوديعه بنفسه ودخل جوهر مصر في شعبان من السنة وشرع في بناء القاهرة وأسس الأزهر ثم وجّه عسكراً استولى على الشام والحجاز واستحث جوهر سيده المعز على القدوم فأجابه لذلك ورحل في ربيع الأنور سنة 362هـ بأمواله وأهله وذخائره وجنوده في احتفال لم يسمع بمثله وصاحبه في رحلته الشاعر المشهور أبو القاسم محمد بن هانىء الأندلسي، ومات في الطريق واستخلف على المملكة أبا الفتوح بلكين وسماه يوسف بن زيري الصنهاجي ولما دخل المعز الإسكندرية تلقاه فقهاؤها وأعيانها بالإجلال ثم دخل مصر في شعبان من السنة واستقر بها قراره وصار له ملك الشرق والمغرب من سوس الأقصى ومضيق سبتة إلى مكة المشرفة ولم يزل عالي الكعب آمن السرب إلى أن توفي سنة 365هـ ومدة ملك الشيعة بالمغرب اثنان وستون سنة.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء فضل بن مسلمة وسعدون الخولاني وربيع القطان وأبو العرب تميم والأبياني وابن اللباد والكانيشي والمميسي.

الطبقة الثامنة

لما رحل المعز استخلف على المغرب بُلُكين يقال له يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي ويوسف هذا أسس مدائن بالمغرب الأوسط منها مليانة والجزائر وقام بأمر النيابة أحسن قيام ورتب العمال وكان حسن السيرة جميل الخصال مع صيت طائر وكفاءة معروفة، وقصد المغرب بجيوش جرارة واستولى على فاس وسجلماسة وغيرها وشتت جموع زناتة واتسع نطاق ملكه ولم يزل على طاعة مستخلفه إلى أن توفي سنة 372هـ وبويع لابنه أبي الفتوح منصور بن يوسف وكان جواداً كريماً شجاعاً صارماً وكانت أيامه حسنة والظفر حليفه وكانت بينه وبين أعمامه حروب وتوفي سنة 386هـ وبويع لابنه أبي مناد باديس بن منصور وكانت ل حروب مع عمه حماد وغيره كان النصر فيها لباديس وعقب انتصاره مات باديس فجأة في ذي القعدة سنة 406هـ وأسس حماد المذكور دولة في المغرب الأوسط قاعدتها قلعة حماد وصارت لبنيه ومن يومئذ انقسمت الدولة وطرقها الخلل وهؤلاء الأمراء الذين هم في الحقيقة عمال لبني عبيد بلغوا درجة الملوك في الضخامة وبعد الصيت والسلطان. ولأبي إسحاق إبراهيم بن قاسم المعروف الرقيق القيرواني تأليف في أخبار باديس وأبيه وجده كان بين باديس وأبي محفوظ محرز بن خلف تراسل وكذلك بينه وبين ابنه المعز الآتي ذكر بعضها في خاتمة الخاتمة الآتي ذكرها.

تنبيه: قد علمت مما تقدم ما كان عليه ملوك بني الأغلب ومن قبلهم من المحافظة على الدين وعلى ما وقع فتحه والاشتغال بجمع العساكر والفتوحات وتمهيد الراحة وجاء بعدهم الفاطميون بنو عبيد وكان اشتغالهم بالحروب وبث الدعوة في الأفكار والزيادة في المملكة وعمالهم ملوك صنهاجة مثلهم. وقانون الملك الإسلامي هو القرآن العظيم وأقوال رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، وكان لهم وللمعز الآتي ذكره إلى آخر دولته التفات واهتمام بأهل العلم والأدباء بالصلات المتوالية ومجالستهم مع التعظيم والإجلال والتكريم ومكاتبتهم، فقد كان باديس يكاتب أبا محفوظ محرز وكذلك ابنه المعز وكان يبعث المال والكتب للعماء وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في ترجمة أبي بكر عتيق السوسي، وفي مدتهم كان سوق العلم نافقاً بالغاً الغاية والعلماء الفحول والأدباء والحكماء والمهندسون كثيرون جداً، كان أبو الطيب ابن بنت خلدون من علماء الحساب والهندسة دبر سوق خليج من ساحل البحر إلى القيروان والحكاية مشروحة في المقصد عند التعرض لترجمته، وكان للعلماء يد وإعانة في سياسة الملك من ذلك

أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر على نحو ما جاء به الشرع العزيز، ولذا كان الملوك يلاقون من شدة العلماء عليهم ما يتجرعون مرارته كسحنون وسعدون الخولاني وربيع القطان وأبي محفوظ محرز بن خلف. وسترى قريباً الخبر عن القيروان بما فيه عبرة لذوي الفضل والشأن.

فصل

قد علمت مما تقدم أن الأندلس استوى عليه عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ويقال له عبد الرحمٰن الداخل وصار وراثة في بنيه وبقي الكلام على ما آل إليه أمرهم فنقول: إن في أيامهم استفحلت الأندلس واستبحرت بالعلوم والمعارف والصنائع مع عمران باهر وحضارة وتمدن زاهر.

في خلاصة تاريخ العرب: نصح عبد الرحمٰن المذكور ولده الحكم قبل وفاته بقوله: يا بنيّ، إن الممالك ملك الله وهو يؤتيها من يشاء وينزعها ممن يشاء كما يختار وحيث إنه قد أجلسنا على سرير سلطنة إسبانيا فلنشكره جزيل الشكر الأبدي ولنصنع الخير بخلقه لنكون عاملين طبق أوامره المقدسة، فإن الله تعالى لم يجعل فينا الشوكة العظمى إلا لنفعل لخير بعباده، فلنجعل عدلك مستقيماً بين الغني والفقير، وعامل جنودك برفق وبر وأمرهم بالحماية على البلاد وانههم عن الظلم والجور بين العباد. وحامِ عن الفلاحين الذين نقتات من نتائج أشغالهم واستلفت نظرك نحو مزارعهم ومحصولاتهم حتى تكون الرعية سعيدة الحال في ظل سلطانك ولتتمتع الرعية في الأمن بخيرات الحياة ونعيمها. انتهى.

ثم قال ما ملخصه: من ملوك الأموية عبد الرحمٰن الثالث أدخل في السياسة علوم بغداد واجتهد في تقديم العلوم والفنون، وجمّل قرطبة ومدائن الأندلس بالمباني الفاخرة، وبنى قرب قرطبة لجاريته زهراء قصراً وصفته التواريخ العربية بما لا يتصوره الذهن، وكان عصره أزهر عصر خلفاء الأموية، وبالجملة كان حائزاً للنصر الحربي والعلم الفائق والمال الوافر والزينة وجميع أسباب الاشتهار الدنيوي، ولما مات وجد في بعض أوراقه ما نصه: إنه قد مضت مدة خمسين سنة منذ توليت الخلافة وتمتعت بعلو الشأن وكثير من خزائن الأموال والملاذ والحظوظ حتى أنفذت كل ما ظفرت به منها، وإن لملوك المقارنين لي في عصري يعتبرونني ويخشونني ويغبطونني وجميع ما تشتهيه الرجال قد أنعم الله به على مَن فضله وقد أحصيت مدة خلافتي التي ظننتني فيها سعيداً فرأيتها أربعة عشر يوماً فيا أيها الناس قدروا بعقولكم

ما قيمة عظمة الملك عند الملوك والدنيا والحياة انتهى. قلت: عبد الرحمٰن هذا هو عبد الرحمٰن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن الأوسط بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل ولي الملك سنة 300هـ وتوفي سنة 356هـ واتسع الملك بالأندلس في مدته ومن اتساعه أنه بنى تجاه قرطبة مدينة سماها الزهراء لسكناه هي من عجائب الدنيا دالة على قدر بانيها وأنفق فيها من الأموال خمسة وسبعين مائة ألف دينار وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى لهم من اللحم كل يوم ثلاثة عشر ألف رطل غير أنواع الطير والحوت، وعدد النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وثمانون والمرتب على الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة وأما أوصاف هاته المدينة فإنها طويلة. وما أغرب ما يحكى عن الناصر أنه أراد الفصد يوماً فقعد في البهو الكبير واستدعى الطبيب لذلك فأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر فبينما هو كذلك إذ أطل زرزور فصعد على إناء من ذهب وأنشد ذلك الزرزور:

أيها الفاصد رفقاً بأمير المؤمنين إنما تفصد عرقاً فيه محيا العالمين

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف الناصر ذلك وسرّ به غاية السرور ووهب لمعلم الزرزور ثلاثين ألف دينار. ولما أتم بناء الزهراء وبها قبة لجلوسه مزخرفة صنع طعاماً دعا إليه العلماء وجلس في تلك القبة فلما حضر العلماء ومعهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي فلما رأى تلك القبة أنكر عليه ذلك الصنيع فأثر عليه إنكاره فقال له جزاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيراً وعن الدين والمسلمين أجل جزائه وكثر في الناس أمثالك. وأمر بنقض سقف القبة الذي طلوه بالذهب وأعادها على صفة ليس بها ما ينكر عليه فيه. ومن أخباره أنه أغضب جاريته طروف فهجرته وكان يحبها، فأرسل إليها يترضاها فأبت وأغلقت باب مجلسها فأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ففعلوا وبنوا عليها بالبدر. فأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضياً راغباً في المراجعة على أن لها جميع ما سد به الباب من البدر فأجابت وفتحت الباب فانهالت البدر ببيتها فأكبت على رجله تقبلها وحازت المال وكانت تبرم الأمور فلا يرد شيئاً تبرمه، وكانت له غزوات كثيرة شهيرة. وقد ذكر أبو العباس أحمد بن عبد ربه في العقد الفريد اثنين وعشرين غزوة من غزواته ونظم كل غزوة منها في منظومة من الرجز، وكان معاصراً له وبذلك طار صيته وانتشر ذكره وأطاعته بنو إدريس أمراء العدوة وملوك زناتة والبربر حتى صار ملكه غاية في الضخامة وعلو الشأن. ولما توفي بويع لابنه الحكم المستنصر بالله فقام بأعباء الملك خير قيام

وكان عالماً نبيلاً أقام للعلم والعلماء سوقاً نافقاً واجتمع عنده من خزائن الكتب ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله. في غرائب الغرب لأبي عبد الله محمد كرد علي: كان للأندلسيين غرام بتسبيل الكتب على المطالعة ولهم خزائن كتب عامة وخاصة وكانت قرطبة أكثر بلاد الأندلس كتباً وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة فلا يكاد يخلو دار من خزانة فيها كتب قيِّمة وقد أنشأ الحكم الثاني عدة مكاتب للمطالعين فكان يرسل وكلاءه إلى المشرق يستنسخون الأسفار فما هو إلا أن يؤلف المؤلف تصنيفه حتى تستنسخ منه نسخ أو نسخة لتحمل إلى خليفة الأندلس ولا يفوت بلاده شيء من حركة العقول، وكانت دار كتبه تحتوي على أربعمائة ألف مجلد جاء فهرسها في أربعة وأربعين مجلداً ولطالما أجزل ملوك الأندلس الصلات لبعض مؤلفي الشرق والأندلس حتى يذكروا في مقدمتها أنهم ألفوها برسم خزائنهم، ومن المؤلفين مَن كانوا يرضون بذلك ومنهم مَن لا يرضون به يقصدون أن يكون لمن يستفيد منه. وكان للعلماء والمؤرخين والشعراء والأدباء في الأندلس مجامع عالمية وأدبية أشبه بالمجامع أو الأكاديميات في هذا العصر وذلك لنشر العلم والمعارف ومفاوضة الحكمة بينهم فنتج من اجتماعهم فوائد مهمة للعلم والمدينة وكان المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس من أعلم الملوك بالأدب وله التصنيف المترجم بالتذكرة والمشتهر بالكتاب المظفري في خمسين مجلداً في الفنون والعلوم واستأدب لبنيه أبا عبد الله بن يونس وكان يحضره وأبا الحزم بن عليم وأمثالهما للمذاكرة والمباحثة فيفيد ويستفيد وكان لأبي عامر أمير الأندلس في دولة هشام المؤيد مجلس معروف في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرته وقد أنشأ الحكم مجمعاً وقلّده غيره من أمراء الأندلس فأنشأوا مجامع لهم وأنشأ أحمد بن سعيد النصري مجمعاً في طليطلة فكان يجتمع عنده أربعون عالماً من طليطلة وما جاورها ثلاثة أشهر في السنة، يعقدون اجتماعاتهم في ردهة فرشت أحسن فرش يبدؤون عملهم بقراءة آيات من الكتاب العزيز ثم يتذاكرون في تفسير ما قرأوا ويأخذ بهم الاستطراد إلى البحث في فنون شتى في العلم والحكمة اهـ.

وقال ابن حزم: عدد الفهرسات التي فيها أسماء بعض الكتب أربع وأربعون فهرسة كل فهرسة ست وعشرون ورقة ليس فيها إلا أسماء الدواوين وأما غير الدواوين من سائر فنون العلوم فشيء كثير قيل إن كتبه كانت أربعمائة ألف مجلد قلما يوجد كتاب منها إلا وله فيه قراءة ونظم ومكتوب على هوامشه خطه. ولما ألف أبو الفرج الأصبهاني كتابه الأغاني بعث للحكم نسخة فأجازه بألف دينار وقد

تقدّم في ترجمة المعيطي وابن المكوي أن الحكم هذا كلفهما بتأليف الاستيعاب فألفاه وأجازهما على ذلك جائزة سنية وكانت مدة ولايته ستة عشر سنة وبويع لابنه هشام المؤيد وعمره تسع سنين واستوزر محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور المعافري ومعافر بطن من حمير وباشر هذا الوزير تدبير الملك بنفسه وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وكرم وبصيرة بالحروب ودين متين وكان عالماً متفنناً وله غير ذلك من الصفات الحميدة وسيرته مشهورة في التواريخ ومفردة بالتأليف واستمر على سيرته سبعاً وعشرين سنة وذكر في نفح الطيب كثيراً من غزواته وأخباره في الكرم والعفو والحلم وحسن الخلق ثم قال: وأخبار المنصور تشمل مجلدات، وتوفي في صفر سنة 392هـ فقام بأمر الوزارة بعده ابناه فأولاً عبد الملك فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو وكانت أيامه أعياداً دامت سبع سنين ثم قام بالأمر بعده الابن الآخر عبد الرحمٰن وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام والاستبداد عليه ثم طلب من هشام أن يجعله ولي عهده فأجابه لذلك لتغلبه عليه وأحضر لذلك أرباب الشورى وأهل الحل والعقد وكتب عهده بذلك ثم سعى كثير من الأمويين وغيرهم في نقضه وأثاروا لذلك فتنة إلى أن قتلوا عبد الرحمٰن المذكور سنة 399هـ ثم خلعوا الخليفة هشاماً وبايعوا غيره ثم أعيد هشام ثم فقد سنة 403هـ وثارت بسبب ذلك فتن كثيرة يطول ذكرها آل الأمر فيها إلى زوال ملكهم وافتراق كلمتهم وكل يوم يخلعون خليفة ويبايعون آخر إلى أن انقضت الدولة الأموية من الأرض سنة 428هـ وانتثر سلك الخلافة بالمغرب وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف متغلبين في كل ناحية ملك مستقل وتغلب بعضهم على بعض ولا حاجة بنا إلى ذكر أسمائهم ومن أشهرهم بنو عباد ملوك إشبيلية الذين منهم المعتمد بن عباد وعند ذلك استفحل أمر النصارى بالأندلس وجرت بعد ذلك أمور ستقف على بعضها إن شاء الله وهي مبسوطة في نفح الطيب وغيره. قال ولي الدين بن خلدون: إن دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمورها واقتسموا خطتها وتنافسوا وتوزعوا ممالك الدولة كل واحد منهم على مكان في ولايته وشمخ بأنفه وبلغهم شأن ملك العجم من الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته لاستيلاء الترف عليهم ولذلك يشير ابن رشيق في قوله:

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتصم فيها ومعتضد
ألقاب سلطنة في غير مملكة كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء ابن أبي زيد والقابسي والخشني وابن التبان وابن مسرور ومسرة والجبنياني ومحرز بن خلف.

الطبقة التاسعة

لما توفي باديس بويع لابنه المعز بالمهدية وعمره ثماني حجج وذلك في ذي الحجة سنة 406هـ وباشرت جدته أمور الدولة إلى أن توفيت وسنذكر خبرها في الخاتمة. والمعز هذا هو واسطة عقد ملوك بني زيري توفرت في أيامه أسباب العز والثروة والعمران وكان حسن السيرة محمود الآثار أديباً مجتنباً سفك الدماء إلا في حق. حديد الذهن. له معرفة بكثير من الصنائع وله شعر جيد محباً للعلماء معظماً لأرباب الفضائل حتى قصدته الشعراء من الآفاق على بُعد الدار يجيز الجوائز السنية ويعطي العطاء الجزيل. ومن شعراء دولته ابن شرف وابن رشيق. هاداه ملوك السودان والروم واستقامت أموره وكانت بإفريقية مذاهب الشيعة والصفرية والأباضية والنكارية والمعتزلة وكانت بها من مذاهب أهل السنة مذهب أبي حنيفة النعمان ومذهب مالك فظهر له حمل الناس على التمسك بمذهب مالك وقطع ما عداه حسماً لمادة الخلاف بالمذاهب واستمر بذلك الحال إلى احتلال العساكر العثمانية إفريقية وسنذكره في محله إن شاء الله. وفي أيامه اشتدت شوكة زناتة وكانت له معهم حروب ثم إن المعز قطع العلائق مع دولة بني عبيد بمصر ودعا وخطب باسم دولة بني العباس ولذلك أضمر بنو عبيد الشر والانتقام منه فوجهوا في سنة 441هـ قبائل من عرب الصعيد كبني هلال وبني سليم وغيرهم معروفين بالطيش وشدة البطش للتشفي من المعز وإفريقية وانتشروا كالجراد ودخلوا إفريقية وعثوا فيها بالبغي والفساد وأذاقوا أهلها لباس الجوع والخوف بما لم يعهد. قال ابن خلدون: وصارت خراباً كلها بعد أن كانت ما بين السودان والبحر الرومي كلها عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدائن. وقال البكري: كان بالقيروان ثمانية وأربعون حماماً وأحصى ما ذبح بالقيروان في بعض أيام عاشوراء خاصة فانتهى تسعمائة وخمسين رأساً من البقر وجباية سواحل القيروان سوسة والمهدية وصفاقس وتونس لبيت المال خاصة غير الدخل والخرج الذي لغير بيت المال ثمانون ألف مثقال من الذهب وفي سنة 452هـ سبيت القيروان وأخليت ولم يبق فيها إلا ضعفاء أهلها. انتهى. وقال ابن عذاري: كانت القيروان من أعظم مدن المغرب طراً وأكثرها بشراً وأيسرها أموالاً وأوسعها أحوالاً وكان الغالب على أهلها التمسك بالخير والتخلي عن الشبهات واجتناب المحرمات إلى أن توالت

الجوائح عليها بدخول العرب لها على ما يأتي ذكره فلم يبق فيها إلا أطلال دارسة وآثار طامسة، وقال: تولى المعز وهو ابن سبع أو ثمان سنين وتربى في حجر وزيره أبي الحسن بن أبي الرجال وكان عالماً ورعاً زاهداً وكانت إفريقية أكثرها على مذهب الشيعة وخلاف اسنة والجماعة فحرض ابن أبي الرجال المعز وأدّبه وأدله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان فخرج المعز في بعض الأعياد إلى المصلى وهو في زينته وحشوده وهو غلام فكبا به فرسه فقال عند ذلك أبو بكر وعمر فسمعته الشيعة التي كانت بعسكره فبادروا إليه ليقتلوه فجاءه عبيده ورجاله ومَن كان يكتم السنة من أهل القيروان ووضعوا السيف في الشيعة. قال أبو الصلت: فصاح بهم في ذلك الوقت صائح الموت فقتلوا في سائر بلاد إفريقية ولم يزل المعز يعمل فكره في قطع دعوتهم وفي سنة 440هـ قطع المعز الخطبة لصاحب مصر. قال ابن شرف: أمر المعز بأن يدعى على منابر إفريقية للعباس بن عبد المطلب وتقطع دعوة العبيديين وأمر بلعنهم في الخطب وسبهم بأشنع السب وأمر بتبديل السكة على أسماء بني عبيد فنقش الوجه الواحد: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ وفي الوجه الآخر: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وأمر بسبك ما كان عنده من الدنانير التي عليها أسماء بني عبيد وكانت أموالاً عظيمة ثم بعث في الناس من قطع سكتهم وزوال أسمائهم من جميع الدنانير والدراهم وغيرها وتم الأمر بذلك سنة 441هـ ولما آل الأمر إلى التصريح بلعنة بني عبيد على المنابر وأمر المعز بقتل أشياعهم أباح بنو عبيد للعرب بمجاز النيل وكان قبل ذلك ممنوعاً لا يجوزه أحد من العرب ثم أمر لكل جائز منهم بدينار فجاز منهم خلق عظيم من غير أن يأمرهم بشيء لعلمه أنهم لا يحتاجون لوصية فجازوا أفواجاً ووصلوا إفريقية وكان وصولهم الداعية العظمى والمصيبة الكبرى وبعد حروب وأهوال في أخبار طوال فرّ المعز بما خف إلى المهدية. انتهى ابن عذاري. وقال ابن خلدون: إن ملوك صنهاجة فسدت طباعهم أواسط المائة الخامسة واستمرت لهم الدولة متقلصة الظل بالمهدية حتى تأذن الله بانقراضهم وجاء الموحدون بقوة قوية من المصامدة فمحوا آثارهم انتهى.

وفي المعجب كانت القيروان دار ملك المسلمين بإفريقية منذ الفتح لم يزل الخلفاء من بني أمية وبني العباس يولون عليهم الأمراء من قبلهم إلى أن اضطرب أمر بني العباس واستبد الأغالبة بملك إفريقية بعض الاستبداد فاتخذوا القيروان دار ملكهم فلم يزالوا بها إلى أن أخرجهم عنها بنو عبيد وملوكها ثم ولوا عليها حين ارتحلوا زيري بن مناد الصنهاجي فلم يزل زيري وبنوه ملوكاً عليها إلى أن كان

آخرهم تميم بن المعز فانتهبتها الأعراب وخربتها وكانت منذ الفتح إلى أن خربت دار العلم بالمغرب إليها ينسب أكابر علمائه وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم وقد ألف الناس في أخبار القيروان ومناقبه. وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتباً مشهورة ككتاب أبي محمد بن عبيد وكتاب ابن زيادة الله الطبني فلما استولى عليها الخراب تفرق أهلها في كل ناحية كمصر وصقلية والأندلس ومنهم طائفة عظيمة قصدت المغرب ونزلوا مدينة فاس اهـ باختصار. وفيه كانت العمارة متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان تمشي فيها القوافل ليلاً ونهاراً وكان فيما بين الإسكندرية وطرابلس الغرب حصون متقاربة جداً فإذا ظهر في البحر عدو نوّر كل حصن للحصن الذي يليه واتصل التنوير فينتهي خبر العدو من طرابلس إلى الإسكندرية والعكس في ثلاث ساعات أو أربع من الليل فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم ولم يزل هذا معروفاً إلى أن خربت الأعراب تلك الحصون ونفت عنها أهلها أيام خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق للمغرب وذلك في حدود سنة 440هـ حين تغير ما بينهم وبين المعز الصنهاجي وقطع الدعاء لهم على المنابر ودعا لبني العباس. اهـ. معجب والحاصل أن مقدار ما وصلت إليه القيروان في أوائل ملوك بني زيري ومن قبلهم فوق ما يذكر من الحضارة والتمدن والبهجة والعمران والاستبحار في العلوم والصنائع والتجارة والفلاحة وكثرة الأدباء والشعراء والأطباء والمهندسين فما بالك بغيرهم من الفقهاء والمحدثين من علماء الدين ثم كانت على القيروان الطامة الكبرى التي صيرتها خراباً بهؤلاء الأعراب وانحدرت في تيار الانحطاط السريع وانتقل كرسي ملكها البديع إلى المهدية وتقلص ظل الدولة الصنهاجية المؤذن بالفناء والملك لله الواحد القهار الذي لا يزول ملكه ولا يفنى وصارت مرسح الفتن ومسرح الإحن خالية عن السكان فضلاً على العلماء وآخر علمائها على هذا العهد السيوري والتونسي. ولهاته الأسباب خرج غالب مَن في البلد ومنهم المعز ونجا بنفسه للمهدية بعد مشاق وعاملها يومئذ ابنه تميم فتلقاه بالمبرة والتكريم وبقي بها إلى أن توفي سنة 454هـ ودفن برباط المنستير وفي معالم الإيمان لم يبق بالقيروان بعد المائة الخامسة من له اعتناء بالتاريخ وغيره لتخريبها على يد المفسدين الأعراب وبقيت على ذلك إلى ظهور دولة الموحدين انتهى.

قلت: ورغماً عما حل بها من النوائب فلم يزل بها من المشاهد والمعالم الإسلامية الخالدة إلى هذا العهد مما لا يوجد بغيرها من بقية مدن إفريقية كجامع سيدنا عقبة العتيق ومنبره البديع الشكل والصنع الوثيق وهذه المعاهد أكسبت شهرة مطبقة بالعالم الأروباوي وبعد الصيت وجميل الذكر في العالم الإسلامي ولم تجد شيئاً يبقى خالداً إلا الذكر حسناً كان أو قبيحاً.

فلا شيء يدوم فكن حديثاً جميل الذكر فالدنيا حديث

في روح المعاني عند قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ الآية تدل على أن الإنسان يرغب في الثناء الحسن والذكر الجميل إذ لو لم يكن مرغوباً فيه ما امتن الله به على رسوله ﷺ والذكر قام مقام الحياة ولذا قيل ذكر الفتى عمره الثاني، قال ابن دريد:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

ويحكى أن الطاغية هلاكو سأل أصحابه مَن الملك؟ فقالوا له: أنت الذي دوَّخت البلاد وملكت الأرض وأطاعتك الملوك، وكان المؤذن إذ ذاك يؤذن فقال الملك هو الذي له أزيد من ستمائة سنة قد مات وهو يذكر على المآذن في كل يوم وليلة خمس مرات ريد محمداً ﷺ.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء البرادعي وابن الضابط واللبيدي وأبو عمران الفاسي وأبو بكر بن عبد الرحمٰن والتونسي وابن يونس وابن العطار.

الطبقة العاشرة

لما توفي المعز بويع لابنه أبي يحيى تميم واشتغل بما بقي من المملكة وضبطه أحسن ضبط وكان شاعراً وشعره رائق مدوَّن وأبو علي بن رشيق كان من ندمائه وله فيه قصائد طنانة وكان أعلم بني مناد وأعفاهم عن الأمور العظام وكان حسن السيرة محمود الآثار محباً للعلماء معظماً لأرباب الفضائل حتى قصدته الشعراء من الآفاق على بعد الدار كابن السراج السوري ونظرائه يجيز الجوائز ويعطي العطاء الوافر، فضائله كثيرة وله أخبار ووقائع عجيبة مع الثائرين، وفي أيامه توالت على سوسة أمراء من العرب وملوكها حين استولوا على البلاد وانتزعوها من يد صنهاجة واستقرت أخيراً تحت ملك جبارة بن كامل بن سرحان بن أبي العيس البعيد الصيت المشتهر بالجود ومن يده أخذها النصارى حين أخذوا المهدية من يد الحسن الآتي ذكره واستولوا على بلاد الساحل ولما وصل عبد المؤمن استنقذها من يد النصارى وسنأتي على شرح ذلك قريباً وللشعراء في مدح جبارة قصائد طنانة منها قصيدة التراب السوسي في رحلة التيجاني قد أولع أعراب زماننا بإنشادها وكثرة تردادها ولأجل ذلك ذكرناها بكمالها وإن كان فيها بعض طول لأن الحسن غير مملول وهي نحو المائة والعشرين بيتاً، أولها:

سـلـم عـلـى ذي سـلـم مـضـنـى الـهـوى الـمـسـتـغـنـم
وقـف بـهـا مـسـائـلاً عـن سـاكـن والـخـيـم
واسـتـمـطـر الـعـيـن بـهـا صـوب دمـوع ودم

وفي أيام تميم هذا استولى العدو على صقلية سنة 484هـ ثم استولى على المهدية ثم خرج منها بعد عقد صلح وبقي على ذلك الحال وأموره معتلة إلى أن توفي سنة 501هـ بالمهدية ونقل لرباط المنستير.

واعلم أنه قد علم مما تقدم في مواضع على وجه الاستطراد فتح صقلية وذكر بعض المآثر الحسنة التي خلدها الإسلام بها وزيادة على ما تقدم ذكره نذكر لك هنا بعض أخبارها على نسق باختصار كثير مما هو مبسوط في التواريخ فنقول إن أول من غزا صقلية معاوية بن حديج ولم تزل تغزى إلى أيام زيادة الله إبراهيم بن الأغلب وفيها حصل الاستيلاء على جانب عظيم منها وصارت مملكة تابعة لملوك إفريقية وتتابع الغزو إليها وإلى غيرها بعد ذلك حتى اتسع نطاق المملكة وأمراؤه عمال لملوك إفريقية يتولون الإمارة بعهد منهم واستمرت على ذلك المنوال أميراً بعد أمير ولا حاجة لذكر أسمائهم لأنه يؤدي إلى التطويل، وفي سنة 336هـ صار الوالي عليها الحسن بن علي بن أبي الحسين ثم صارت ميراثاً في عقبه إلى أن تفرقت صقلية إلى ممالك وصارت كل مملكة بي دملك متغلب عليها مستبد لا يسأل عن غيره فصار الفرنج ينتزعون تلك الممالك منهم مملكة بعد مملكة حتى كان استخلاص العدو لها تماماً سنة 484هـ بعد أن بقيت بيد المسلمين مائتين ونيفاً وسبعين سنة والذي تغلب عليه الملك رجار وكان عديم النظير في أبناء جنسه صاحب حزم ودهاء وسياسة ولما تم تملك صقلية تتابعت غارتهم على إفريقية فملكوا الجزائر ومالطة وجربة وطرابلس وقابس وسوسة وصفاقس والمهدية وكانت هاته الوقائع متتابعة في سنين وكان انتهاؤها سنة 543هـ كما ستعلم مما يأتي ذكره. وصقلية في أيام الإسلام رحل إليها الكثير من وجوه الناس قضاة وفقهاء ومحدثين وغيرهم من الخاصة فضلاً عن العامة لرخاء أسعارها وأمن سبلها وعدل سلطانها وظهر منها الكثير من فحول العلماء والفقهاء والمحدثين والشعراء ترجمنا لبعضهم في المقصد والحاصل أنها في مدتهم بلغت غاية في الحضارة وعلو الشأن وتبحر العمران وبها كثير من المساجد وقد وصف ابن جبير في رحلته بعض مدنها وما شاهده من حالها وحال المسلمين بها بعد احتلال العدو لها حالة تبكي العيون دماً وتذيب القلوب ألماً.

قلت: وفي هذا العهد لم يبق بها أثر الإسلام وعادت مساجدها كنائس وصوامعها مضارب للنواقيس.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء السوري وعبد الحق الصقلي والشقراطسي واللخمي وعبد الحميد الصائغ.

الطبقة الحادية عشر

لما توفي تميم بن المعز بويع لابنه يحيى وكان ذا رياسة وسياسة قمع الثوار ومهد النواحي وغزا بأسطوله الروم حتى وقع صلح على شروطه وكان رحيماً بالضعفاء مطالعاً لكتب السير وأخبار الزمان عارفاً بالنجوم والطب وبنظم الشعر الجيد ويجيز عليه ومن شعرائه وجلسائه العلامة الأديب المؤرخ الأريب أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الآتي ذكره في الخاتمة وكان له شعر رائق ونثر فائق ويأتي خبره وخبر بعض ملوك صنهاجة في الخاتمة. وفي أيام هذا الأمير دخل محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية المهدية في أيام أبي الحسن علي وتقدم بعض خبره بما يفيد أنه دخل المهدية مرتين حين ذهب للمشرق وحين رجع منه انظر ترجمة أبي بكر بن العربي في الطبقة الحادية عشر من المقصد، وتوفي الأمير يحيى في ذي الحجة سنة 509هـ وخلف من البنين ثلاثين ومن البنات عشرين ودفن بقصره على ما جرت به العادة ثم نقل للمنستير.

ولاية ابنه أبي الحسن علي بن يحيى:

تم له الأمر بعد أبيه باتفاق من جنده واستقام أمره وكان جواداً مفضالاً لا يميل للراحة وكان من الأذكياء محباً للعلم والعلماء. وللقاضي أبي بكر اليابري مصنفان في الأصول والفقه على مذهب مالك رد فيها على ابن حزم أحدهما المدخل والآخر سيف الإسلام في مذهب مالك الإمام ألفه باسم الأمير أبي الحسن المذكور في المهدية سنة 513هـ ورحل لمكة وبها توفي. رحل إليه الزمخشري من خوارزم للأخذ عنه وقدم لمكة وأخذ عنه وترجمة هذا العالم تقدمت في الطبقة الحادية عشر من المقصد. ولأبي الصلت المذكور منزلة جليلة عند هذا الأمير وتوالت بين هذا الأمير والأعراب فتن وحاله معهم مثل حال أبيه وجده وكبرت بينه وبين صاحب صقلية الوحشة وتوفي سنة 515هـ بالمهدية ونقل للمنستير.

ولاية ابنه الحسن:

تم له الأمر يوم وفاة والده وعمره اثنا عشر عاماً وهو آخر ملوك هاته الدولة، وكانوا كلهم أهل نجدة وشجاعة وإحسان ومعروف. وكان فصيحاً عاقلاً حازماً لا يتزحزح لعظائم الأمور ولا يتضعضع لنوائب الدهور شجاع القلب كريم النفس ينظم الشعر، وفي سنة 517هـ قصد صاحب صقلية المهدية في أسطول عظيم وجنود جرارة ولما وصل المهدية هاج البحر على هذا الأسطول فدمر أكثره وألحق الضرر بالباقي فقتل المسلمون الكثير من رجاله وغنموا غنائم كثيرة وانعقد عقب ذلك صلح واستولى الطاغية على جربة وصفاقس وقرقنة وطرابلس. وفي سنة 543هـ خرج بأسطول عظيم ودهم به المهدية على حين غفلة من أهلها فخرج الحسن منها بما خف وفجأ الناس من بلاء هذا الطاغية ما لم يكن له حساب، ولما دخل المهدية وجدها خالية فاستولى عليها من غير تعب وقتال واستولى على ذخائر الحسن، وأمن الناس وعمرها أحسن عمران ثم استولى على سوسة وصفاقس ودانت له البلاد، وأما الحسن فإنه بعد خبر طويل وصل للخليفة عبد المؤمن بن علي مستجيراً به فأكرمه وأحسن منزله، وأجاب مطالبه واستعد لذلك ثلاث سنين وتوجه لها بنفسه في صفر سنة 554هـ، وبين يديه الحسن المذكور بعسكره الجرار وجيشه العرمرم يقال إنه لما وصل باجة عرض العساكر فكانت الفرسان أزيد من مائة ألف والرجال لا تحصى وهي تمر بالطريق الضيقة في المزارع فلا يضرها شيء وهذه المحلة تمتد أميالاً وكلهم يصلون الصلوات الخمس بإمام واحد وتكبيرة واحدة ولا يتخلف أحد منهم عن الصلاة لأنه كان يقتل من يتأخر منهم وكانت مقدمة هذا الجيش اثني عشر ألف مقاتل قد كلفوا بحفر الآبار واستخراج المياه وتمهيد الطريق وتهيئة ذلك للجيش ولولا هذا التدبير لم يقدر على هاته الأسفار البعيدة بهاته الجيوش العظيمة فنازل تونس وأخذها صلحاً وكانت بيد أحمد بن خرسان واستخلف على تونس أبا محمد عبد السلام الكومي ورتب معه أشياخاً من الموحدين ثم رحل للمهدية والأسطول يحاذيه في البحر فوصل إليها منتصف رجب وكان بالمهدية ملوك الفرنج وأبطال الفرسان فحاصرها بما انضاف إليه من أهل البلاد بما يخرج عن الإحصاء وفي مدة الحصار فتح طرابلس ونفوسة وقابس وثغور إفريقية وما والاها وأقام في حصارها ستة أشهر إلى أن فتحها بكرة عاشوراء سنة 555هـ ولذا يقال لها سنة الأخماس، ودانت له البلاد بالطاعة واستخلف عليها أبا عبد الله محمد الكومي وجعل معه الحسن وأمره أن يقتدي برأيه وأقطع الحسن جانباً منها وارتحل ولبثت إفريقية في أمن ودعة واطمئنان بقية أيامه وصدراً من أيام بنيه ومدحه الشعراء على هذا الفتح منهم أبو محمد عبد الله بن أبي العباس التيفاشي بقصيدة أولها:

ما هزّ عطفيه بين البيض والأسل ... مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

ولما أنشدها بين يديه أشار إليه أن يقتصر على هذا البيت ولا يتم قراءة القصيدة وأمر له بألف دينار وقيل: لمَ لم تسمع تمام القصيدة؟ فقال: وما عساه أن يقول بعد هذا البيت، أي لا يأتي بأمدح منها وأخذ يجيزه كل يوم ألف دينار على قراءة هذا البيت إلى أن بلغت أربعين ألفاً وكان عبد المؤمن هذا عاقلاً حازماً سديد الرأي حسن السياسة كثير البذل للأموال إلا أنه كان سفاكاً للدماء على الذنب الصغير وكان يعظم أمر الدين ويلزم الناس في كل بلاده بالصلاة وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين وكانت له معرفة بالشعر والأدب، يحكى عنه أنه مر ببعض طرق مراكش ومعه وزيره أبو جعفر بن عطية فأطلت من شباك جارية بارعة الجمال فقال عبد المؤمن:

قدت فؤادي من الشباك إذ نظرت

فقال ابن عطية:

حوراء ترنو إلى العشاق بالمقل

فقال عبد المؤمن:

كأنما لحظها في قلب عاشقها

فقال ابن عطية:

سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي

وتوفي عبد المؤمن سنة 858هـ وعمره ثمان وستون سنة ومدة ملكه ثلاث وثلاثون سنة وهو أول ملوك هاته الدولة ومدتها مع مهديهم مائة واثنان وخمسون سنة وكانت من أعظم الدول الإسلامية وكانوا يدعون على المنابر إلى مهديهم محمد بن تومرت ويضربون اسمه على السكة ومن أصحاب ابن تومرت عمر بن يحيى الهنتاتي صار بعد المهدي من وزراء عبد المؤمن وأعطى بنو عبد المؤمن أولاد عمر المذكور ولاية تونس فكانوا يسمون بالحفصيين وسنقص عليك خبرهم وابن تومرت هذا مضى لنا ذكره في ترجمة أبي بكر بن العربي قال بعض العلماء أنه أراد بقيامه إظهار الحق فاجتهد وأخطأ وقال بعضهم إنه كان على الأمة شراً من الحجاج ويزيد وأخباره طويلة الذيل مذكورة في التواريخ أما الأمير حسن الصنهاجي المذكور فإنه أقام بالمهدية إلى أن توفي عبد المؤمن وتولى بعده ابنه يوسف المتوفى سنة 580هـ فاستقدم الحسن إلى المغرب ومات بالطريق وهو آخر ملوك صنهاجة وبه انقطعت كواكب سعودهم وأجلت عن منازلهم الشموس والأقمار والملك لله الواحد

القهار وهذه الدنيا لا يدوم نعيمها ولا ييأس سقيمها وبهذا جرت عادة الله في خلقه إنما الدهر دول بعد دول لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون كما جرت عادته في بيوت أهل الفضل والترف والملوك وغيرهم إذا تطاول عليها الزمان واعتمد الأبناء على ما بنته الآباء ولم يحصلوا على شرف من قبلهم فلا يلبث فيهم الاشتغال بالترف ونضارة العيش أن يهدم معالمهم التي بناها آباؤهم وغفلوا عن تجديدها والذود عنها.

واعلم أن صنهاجة قبيلة من قبائل البربر والمصامدة قبيلة من قبائل البربر أيضاً ومنها عبد المؤمن بن علي، واختلف النسابون والمؤرخون في نسب البربر اختلافاً كثيراً وتقدم الكلام على ذلك.

تنبيه: قد علمت أن العلم انقطع من القيروان بانقطاع العلماء منها وانتقال كرسي المملكة منها إلى المهدية وظهر بها فحول من العلماء والأدباء منهم ابن النحوي والإمام المازري وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز وابن بشير وأبو محمد التيفاشي.

الطبقة الثانية عشر

قد علمت أن إفريقية آل أمرها إلى الخليفة عبد المؤمن بن علي باني دولة الموحدين على يد المهدي محمد بن تومرت ومن القائمين بدعوة هذا المهدي أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي يرجع نسبه إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وله القدم الراسخة في دولة عبد المؤمن والمواقف الشهيرة والمقامات الحميدة وتوفي سنة 575هـ ولما آلت الخلافة إلى يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن المتوفى سنة 595هـ استوزر أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص المذكور وابنه الآخر أبو سعيد ولاه إفريقية فدخلها واشتغل بتونس واستعمل أخاه أبا علي على المهدية ولم يتم له أمر وفي خلال تلك المدة وصل أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن إفريقية والياً عليها بدل أبي سعيد وخرجت في تلك المدة المهدية وسائر الجهات القبلية عن أبي زيد المذكور واستولى عليها يحيى بن إسحاق الميورقي من بني غانية ثم استولى على تونس وقبض على أبي زيد المذكور في ربيع الأول من أول عام من المائة السابعة ولما آل أمر الخلافة للناصر بن المنصور المذكور بوفاة والده وبلغه ما حلّ بإفريقية توجه لها في عسكره واستصحب وزيره أبا محمد المذكور ودخل تونس ووجه وزيره المذكور للمهدية فأفتكها وغيرها من ابن غانية سنة 602هـ في أخبار طوال ودانت له البلاد ثم رجع الناصر لمحل خلافته واستخلف

على إفريقية وزيره المذكور وكانت وفاة الناصر سنة 610هـ وتولى بعده ابنه المنتصر يوسف المتوفى سنة 620هـ.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء ابن الحداد وأبو الحسن السوسي وابن عوانة.

الطبقة الثالثة عشر

تقدم أن الناصر استخلف على إفريقية وزيره أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص الهنتاتي وهنتاتة من قبائل المصامدة وهم القائمون بدعوة المهدي والسابقون لها وكان قبوله الاستخلاف بعد تمنع وشروط شرطها عليه وفى له بها الناصر وذلك في شوال سنة 603هـ وكان عالماً ذكياً شجاعاً عاقلاً ومما يدل على ذكائه هو أنه دخل عليه يوماً أبو محمد عبد السلام البرجيني وكان تحت جفوة منه فقال له: كيف حالك يا فقيه؟ فقال: في عبادة، فقال له الأمير عبد الواحد: تعوضها إن شاء الله بالشكر، وأراد البرجيني بقوله في عبادة قول رسول الله ﷺ: «انتظار الفرج بالصبر عبادة» وله حروب طالت لم تهزم فيها له راية ولم يزل على ولايته في جلالة إلى أن توفي في تونس فاتحة سنة 618هـ وتقدم للولاية ولده أبو زيد عبد الرحمٰن ثم قدم المنتصر عمه إدريس والياً على إفريقية ومعه ابنه أبو زيد عبد الرحمٰن وله مع ابن غانية حروب وتوفي سنة 620هـ وقام مقامه أبو زيد المذكور ولم يحسن السيرة ولما تولى الخلافة عبد الله العادل بن المنصور عزله وولى أبا محمد عبد الله بن عبد الواحد الحفصي على إفريقية فدخلها في شعبان من السنة ومعه أخواه أبو زكرياء وأبو إبراهيم ولم يزل حميد الحال إلى أن ثار عليه أخوه أبو زكرياء المذكور ووقعت بينهما حروب آلت باستيلاء أبي زكرياء على إفريقية واستقلاله بها وذلك سنة 625هـ ومهد دولة فخيمة لآل أبي حفص ورفع رايتهم كما ستعلم واستقام له الأمر بعد موت ابن غانية واستولى على الجزائر وتلمسان وغيرهما وخلع دولة بني عبد المؤمن لأسباب ذكروها واتسع نطاق سلطانه ووافته بيعة ملوك شرقي الأندلس وغربيها وأطاعته سجلماسة وسبتة وطنجة ومكناسة وخطب له بنو مرين وكان من العلماء العاملين والأمراء العادلين ختم على الشيخ الرعيني السوسي المستصفى وغيره من الكتب العالية وناظر في النحو ابن عصفور وكان معدوداً من الأدباء الشعراء وله مآثر جيدة وهو الذي بنى جامع القصبة والمدرسة الشماعية وجمع في خزائنه من الكتب ستة وثلاثين ألف مجلد وفي سنة 647هـ تحرك للمغرب ومات في طريقه ودفن ببونة ثم نقل إلى قسنطينة وترك من الأولاد أربعة: محمد

المنتصر وأبا إسحاق وأبا بكر وأبا حفص، وفي هاته السنة توفي السلطان الشهير الذكر الجليل القدر صلاح الدين الأيوبي.

واعلم أنه لما تأسست الدولة الحفصية انتقل سرير الملك لتونس بعد أن كان بالمهدية واستقام أمرها وشاع ذكرها وتراجع العمران بإفريقية وتتابع وبلغت أوج العلاء وبسطة الملك وصارت دار علم تلقاه فحول عن فحول وصارت تونس منبت عز تشد إليها الرحال من سائر الأقطار والأمصار والفضل في ذلك لأبي زكرياء المذكور نوّه بذكره ولي الدين بن خلدون وغيره وقال: سند تعليم العلم قد كاد أن ينقطع من المغرب بإخلال عمرانه وتناقص الدولة فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع أو فقدانها وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس واستبحر عمرانهما وكان فيهما من العلوم والصنائع أسواق فائقة وبحور زاخرة ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما فلما حربنا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً ثم تراجع. وفي كتاب اللقطة من شرح الأبي على صحيح مسلم: لم يزل الشيوخ يحكون عن كثرة ما كان بتونس من الخير.

حكي أنه بقي دينار ملقى بطريق العطارين مدة لم يرفعه أحد ثم بعد ذلك لم يوجد فقال الناس اليوم دخل لبلدنا غريب وحين كانت قاعدة الموحدين مراكش وكانت القضاة يأتون لتونس منها فاتفق أن قدم إليها قاض من مراكش فجلس للحكم فبقي أياماً لا يأتيه أحد من الخصوم فظن أن الناس لم يرضوا به ثم قدم إليه يوماً خصمان من سوق الجبة فقال أحدهما للآخر: أصلحك الله إن هذا شريكي وقد باع جبة من العرب وأنا لا أستحل دراهم العرب فحينئذ علم القاضي أن عدم إتيان الخصوم إليه إنما هو لتناصفهم واتباعهم الحق اهـ. وفي أيامه تقدم القضاء أبو زيد عبد الرحمٰن بن نفيس ثم استعفى فتقدم عوضه أبو زيد عبد الرحمٰن التوزري المعروف بابن الصايغ وفي أيامه سنة 638هـ توفي الولي العالم أبو سعيد الباجي بن خلف يدعى التميمي.

فصل

قد علمت مما تقدم أن الدولة الأموية انقرضت سنة 428هـ وتفرقت الأندلس إلى ممالك ملوكها تعرف بملوك الطوائف وبذلك رجع أمر الأندلس للقهقرى ثم جدد الموحدون الرونق الذي كان لها زمن الأموية فقد جدد كل من عبد المؤمن ويوسف ويعقوب مجدها وحاموا عن العلوم والصنائع وعملوا بالشريعة الإسلامية وأسسوا مدارس عامة وأخرى للشبان وغمروا بعطاياهم علماء الإسلام واشتهر في زمنهم

بالطب والفلسفة وقرض الشعر ابن رشد الحفيد وابن زهر وأنشأ الأمير يوسف بإشبيلية عمارات فاخرة وأوصل لها مياهاً غزيرة وبنى جامعاً صرف عليه مصاريف طائلة وأنشأ في جميع جهات المملكة مستشفيات وتكايا وحفر آباراً بالصحارى وخانات في الطرق للمسافرين وزاد في مرتبات القضاة والفقهاء للاستعانة وملوك الأندلس صارت عمالاً له ثم لما حصل ضعف لهاته الدولة اغتنم العدو الفرصة وصار يقطع كثيراً من المدائن والمعاقل والحصون ويستولي عليها حيث لم يوجد بالأندلس من الجيوش والرجال مَن يدافع العدو ويقاتله ثم في سنة 626هـ استولى على كورة ماردة وفي سنة 627هـ على ميورقة وفي سنة 629هـ على جزيرة شقرة وفي سنة 636هـ على قرطبة وعلى شرقي الأندلس شاطبة وغيرها سنة 645هـ وفي السنة قبلها على طرطوشة وما يتبعها من القلاع والحصون وفي السنة بعدها على إشبيلية وبيان الوقائع في أخذها يطول الكلام بذكره وذلك مشتمل على ما تتقرح له الأكباد وتنسجم له العيون ولما أخذت هذه المدائن انحاز المسلمون إلى قطعة من شرقي الأندلس وأول مَن قام بالأمر في هاته الجهة من بني الأحمر محمد بن نصر وكان أبوه نصر في دولة عبد المؤمن من أمراء الأجناد ومحمد بن نصر هذا يقال له محمد الشيخ وبويع له سنة 629هـ وخطب لأبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد الحفصي صاحب تونس ودخل مع ابن الأحمر في تلك البيعة أهل فيان وشريش والطاغية في ذلك الوقت محاصر بلنسية وذلك سنة 636هـ ثم أرسل ابن الأحمر جماعة من أعيان أهل الأندلس منهم ابن عصفور وحبر قضاعة ابن الأبار مستصرخين به يريدون منه النجدة في قتال العدو وعقد أبو زكرياء لتلك البيعة يوماً مشهوداً وأنشد حبر قضاعة المذكور القصيدة المشهورة التي أولها:

انجد بخيلك خيل الله أندلسا	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست	فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وهي طويلة بليغة مذكورة في نفح الطيب فأجاب أبو زكرياء بيعتهم ولبى دعوتهم وجهز لهم أساطيل فيها المال والرجال فلما وصلوا الأندلس وجدوا العدو ملك بلنسية ثم مرسية وهاته الطامة الكبرى والمصيبة العظمى على الأندلس كانت عقب واقعة العقاب الواقعة سنة 609هـ ثم واقعة أنجية التي استشهد فيها شيخ الجماعة وخاتمة المحدثين مؤلف السيرة أبو الربيع الكلاعي وصارت بعد هذه الهزائم والنوائب إلى الانقسام والتنافس مع كثرة الفتن والاضطراب وانحاز المسلمون لغرناطة وجنوب الجزيرة وهاجر الكثير من الفضلاء والعلماء إلى فاس

ومراكش وتونس وتلمسان. في خلاصة تاريخ العرب ما ملخصه فاق مسلمو الأندلس الفرنج في العلوم والصنائع والأخلاق كبذل النفيس والكرم مع ما امتازوا به من معرفة قدرها وعزتها حتى ذهب الكثير منهم إلى قرطبة يستشيرون حكماءها المشتهرين بالطب وكان المسلمون في سائر الجهات منقادين لأبي العائلة مجلين للشيوخ ذوي غيرة شديدة على مراعاة العدل أصغرهم كأكبرهم بالاعتناء بحفظ العائلة من العار لا يمنع خمول أصل أحدهم من الوصول إلى أرقى المناصب غير معولين في اعتبار الشخص على شرف حسبه ونسبه فقط بل على اعتبار فضائله وأخلاقه وكانوا متفننين في الفهم والعمل بالقرآن الدال على أهمية اكتساب الفضائل والأعمال الصالحة ولذا كان الخلفاء يشوقون الناس إلى الشغل ووقاية الأملاك من العدوان والذي ساعدهم على بلوغ شأو العظمة اتساع العلوم والفنون والفلاحة والصنائع. ذاق جميعهم لذة المعارف وتنافسوا في ابتكار ما يمتازون به وكان اقتراحهم للشعر يرفع قدر نفوسهم ولا بد لقضاتهم من حوز معلومات عويصة حتى يعتبرهم الناس زمن قيامهم بوظائفهم وكانوا يكتبون على جميع المباني الجليلة اسم المهندس والآمر بالتشييد ويجزلون الثناء على كل ماهر في فن، وقد بلغوا الدرجة العليا في فنون العمارة والموسيقى والقريض ولذا اقتفى الإفرنج أثرهم في أساليب أبنيتهم وزخارفها وأتقنوا أجناس الأصوات وما في الصوت البشرى من الدلائل والطرق النغمية ومارسوا ضروب الشعر خصوصاً نظم الحكايات المشتملة على نكت مشوقة فبرع فيها الكثير وتعلّموا في المدارس علم الفلك والجغرافيا والمنطق والطب والنحو والهندسة والجبر ومبادىء علم الطبيعة والكيمياء الطبيعية والتاريخ الطبيعي وهو علم المواليد الأرضية الثلاث ملئت كتبخاناتهم نسخاً منقولة عن كتب علماء اليونانيين من كتب فلاسفة الإسكندرية واستخرجوا المعادن من الأرض واللؤلؤ والمرجان من البحر وأتقنوا صناعة الدباغة ونسج القطن والأقمشة الحريرية والصوفية ونصال السلاح والسروج والجلود وغير ذلك رغب جميع أهل أوروبا كل الرغبة في ذلك واتجروا في الزيت والعنبر الخام وبلور الصخور والكبريت وغير ذلك واستعملوا طرقة تماثل أوراق الحوالة وكانوا يرسلون البضائع إلى الممالك الشرقية فيرسلون إليها بدلها مما هو مفقود عندهم وبذلوا غاية عنايتهم بالفلاحة وكان بمدائن إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومرسية وطليطلة وغيرها كتبخانات ومدارس جليلة تدرس فيها العلوم الرياضية وبالجملة فإن المسلمين بذلوا صادق الهمة والعزيمة في تعلم وتعليم العلوم

على اختلاف أنواعها رغماً عما طرأ من الحوادث والتقلبات وحوادث الحروب الصليبية وتقدموا تقدماً محسوساً باعتناء العلماء وبعض الملوك والعلوم المشار لها رياضية وهندسية وهي الفلك والأرصاد والهيأة والأسطرلاب والزيج والحساب والجبر وعلم الضوء والنظر والميكانيك والجغرافية رياضية وتخطيطية وتعرف بعلم تقويم البلدان وتحديد المسافات والخرائط على مقتضى الأطوال والعروض والعلوم الرياضية هي المتعلقة في الغالب بالأجسام العضوية وهي الحيوان والنبات وارتفعت في زمنهم إلى درجة البحث عن القوى الطبيعية والجواهر الأولية التي تحلل لإدخالها في مركبات أخرى ويعرف بعلم قواعد تحضير الأدوية وحصلت لهم براعة في ذلك وأنشأوا الأجزخانات الكيماوية وأدى إنشاؤها والمادة الطبيعية اللذان هما أول ما يلزم لفن الطب الاشتغال بعلم الكيمياء وهو عبارة عن مجرد التحليل والتركيب وبما حصل لهم من المعارف في ذلك أدخلوا في الأدوية نباتات كثيرة ومادات ترابية واعتنوا بغرس كثير من النباتات وتركيب طبقات الأرض وبعبارة أخرى أنها بلغت معارفهم في الزراعة والاقتصاد الزراعي وقواعد الطب وعملياته والتشريح والأدوية المفردة والنباتات والأحجار والمعادن والحيوانات ذوات الخواص الطبيعية أقصى درجات الكمال ونبغ في ذلك كثير من العلماء الجهابذة وألفوا التـآليف البارعة حفظ التاريخ أسماء كثير منهم كما حفظ أسماء كثير من الملوك الذين يدعون العلماء والحكماء إلى دواوينهم ويمدونهم بالأموال الجزيلة للغرض المذكور وشوهدت مؤلفات كثيرة من تلك الفنون فشت بها اللغة العربية لدى الممالك الإسلامية والأروباوية وترجم بعضها إلى اللغات الأجنبية واتخذت أصلاً من أصول التعليم في المدارس وتكون من معظم تلك التآليف الموجودة الآن علم أدبي من أوسع العلوم الأدبية المعروفة في الدنيا ولهم اختراعات واكتشافات من ذلك بيت الإبرة وصناعة الورق وبارود المدافع والأسلحة النارية وانتشارها في الدنيا. ثم قال بعض شرح ما ذكر وبما أسلفناه يظهر لك كيفية تحكم الإسلام على جميع فروع تمدن أوروبا الحديث وكان عندهم أوسع ما سمح به الدهر من الأدبيات ونتائج أفكارهم الغزيرة واختراعاتهم النفيسة وأنهم أساتذة في جميع الأشياء كالمواد المختصة بتاريخ القرون المتوسطة وأخبار السياحات والأسفار وقواميس سيرة الرجال المشهورين والصنائع العديمة المثال والأبنية الدالة على عظمة أفكارهم واستكشافاتهم المهمة ولذا كله وجب الاعتراف برفعة شأن هذه الأمة المحمدية التي تحقرها الفرنج منذ أزمان مديدة

وظهر بذلك تحكم التمدن العربي المتسع ونشأ عن ذلك العمران الزاهر فكان بالأندلس ست تخوت وثمانون مدينة كبيرة وثلاثمائة مدينة أقل منها وما لا يحصى من الضياع والقرى وفي قرطبة وحدها مائتا ألف بيت وستمائة مسجد وخمسون مستشفى للمرضى وثمانون مدرسة كبرى عامة وتسعمائة حكام وعدد ساكنيها مليون وليقس ما لم يقل وجامعها المشهور زخرفة وضخامة الباقي إلى الآن يضاهي في الفخامة الجامع الأموي بدمشق انتهى باختصار كثير مع تقديم وتأخير من خلاصة تاريخ العرب، وقد أتى على أخبار الأندلس الشهاب المقرَّى في نفح الطيب وأزهار الرياض وأشبع الكلام عليها بما فيه تذكرة وعبرة لذوي الألباب.

واعلم أن الأندلس اشتمل على فحول العلماء المبرزين في كثير من الفنون ترجمنا الكثير منهم في المقصد واشتمل على كثير من العجائب والمعادن وغير ذلك. في نفح الطيب: خص الله بلاد الأندلس من الريع وغدق السقيا ولذاذة الأقوات وفراهة الحيوان ودرور الفواكه وكثرة المياه وتبحر العمران وجودة اللباس وشرف الآنية وكثرة السلاح وصحة الهواء وابيضاض ألوان الأسنان ونبل الأفهام وفنون الصنائع وشهامة الطباع ونفوذ الإدراك وإحكم التمدن بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها. وقال أيضاً: إن الأندلس بلد كريم البقعة طيب التربة خصب الحنان منبجس الأنهار الغزار والعيون العذاب قليل الهوام وذوات السموم معتدل الهواء والجو والنسيم ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال متوسط الحال تتصل فواكهه أكثر الأزمنة وتدوم ملاحقة غير مفقودة. وقال أيضاً: في الأندلس من أنواع المعادن ما لا يحصى وفيه المدن الحصينة والمعاقل المنيعة والقلاع الحريزة والمصانع الجليلة وطول الأندلس ثلاثون يوماً وعرضه سبعة أيام ويشقها أربعون نهراً كباراً وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار وأزيد من ثلاثمائة من المتوسط وفيها من الحصون والقرى ما لا يحصى، قيل إن عدد القرى التي على نهر إشبيلية اثنا عشر ألفاً وكانت دور قرطبة أربعة عشر ميلاً وعرضها ميلان وكانت قرطبة قبة الإسلام وبها استقر سرير الخلافة الأموية وهي معدن العلماء وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ومسجدها ليس له نظير في الدنيا طوله ثلاثمائة وثلاثون ذراعاً وعرضه مائتان وخمسون ذراعاً وسواريه ألف وأربعمائة وهو مزخرف بالرخام والمرمر وماء الذهب واللازوردي وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منها منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا في الأحكام إليه، وكانوا لا يكون فيهم مقلص إلا من حفظ الموطأ وقيل إلا من حفظ عشرة آلاف حديث وحفظ المدونة، وكان هؤلاء

المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويسلمون عليه ويخبرونه بأحوال بلدهم ويجعلون في مساجدهم نواباً يصلون بالناس الجمعة. وقال: الأندلس ينقسم إلى مشرق ومغرب ومتوسطة وكل واحد من الأقسام الثلاثة مشتمل على مدائن عظيمة كل مدينة منها مملكة مستقلة مشتملة على أعمال وقرى ومزارع وبساتين وأقطار واسعة وخلائق لا يحصون في غاية التنعم والرفاهية. فمن المتوسطة قرطبة وطليطلة وجيان وقسطلة وغرناطة والمرية ومالقة وغير ذلك مما يطول ذكره، ومن شرق الأندلس مرسية وبلنسية وشاطبة ودانية والسهلة والثغر الأعلى وسرقسطة وغير ذلك مما يطول ذكره، ومن غرب الأندلس إشبيلية وماردة وأشبونة وشلب وشريش ولبلة والخضراء وبطليوس وغير ذلك مما يطول ذكره. ولما ضعف أمر الخلافة وافترق أمر الأندلس وكثر الخلاف بينهم وانتشرت الفتن صارت الممالك بيد ملوك كثيرة ـ يسمون ملوك الطوائف ـ لكل مملكة ملك مستقل ينفذ أمره ونهيه فيما كان تحت يده وهم مختلفون في اتساع ممالكهم وعدم اتساعها وكان ابتداء تفرق الممالك من سنة 407هـ وصار يقاتل بعضهم بعضاً فيتغلب بعضهم على بعض وكان عدد أولئك الملوك خمسة عشر لا حاجة لذكر أسمائهم وأعظم تلك الممالك قرطبة بيد المعتضد بن عباد المتوفى سنة 461هـ وصارت وراثة في بنيه. انتهى محل الحاجة باختصار. وغرناطة التي انحاز المسلمون لها بعد تغلب العدو على غالب الأندلس صارت كرسي المملكة مأوى المسلمين المتشتتين لكثرة خيراتها الجاذبة وكثرة المهاجرين لها حين أخذ الملك جاك يطرد المسلمين مما استولى عليه، وقد أحسن ملوك غرناطة الترتيب السياسي فرتبوا في كل بلدة خفراء منها وأعطوا جميع سكانها سلاحاً يستعملونه حالة هجوم العدو عليهم فرفعوه مرات على ملوكهم الممتنعين من أداء واجباتهم الملوكية أو الذين لا يعبأون بمشاورة الأمة وجعلوا للعساكر المحافظين بالثغور إقطاعات من الأرض تكفيهم وعائلتهم لتبعثهم على الوقاية من الأعداء ورتبوا في غرناطة التي دائرتها أكثر من ثلاثة فراسخ ضبطي في كل ثمن منها ضابطاً ورتبوا عساكر تدور ليلاً وعملوا قوانين لزمن إغلاق المحال العامة كالأسواق وخصصوا كل حرفة بطائفة ومنعوا شرب الخمر والربا وابتكروا في كتابة الحجج والصكوك طرائق واضحة تمنع المنازعة وشغلوا العلماء بتأليف رسائل في الصنائع العملية وانقاد الأئمة والفقهاء لقوانينهم النظامية وأحدثوا لتأدية العبادية قوانين تنبىء عن كمال إيمانهم وعلو أفكارهم وشرف التأديب والتهذيب الديني، منها انعزال النساء عن الرجال في المساجد وإكثار الطاعة في رمضان وتوزيع الزكاة والصدقات على الفقراء أو إبقاؤها لتنفق في عمارات عامة وغير ذلك، وبما سلف

يعلم أن مملكة غرناطة نظراً لما كانت عليه من الأمور الجليلة تستحق أن تعتبر في التاريخ من الممالك الشريفة لكن ساء حظها حيث لم يكن توارث سلطنتها مقرراً على قواعد متينة فتولاها بعد الملوك الجديرين الذين يتعجب الأجيال المتغلبة من عدلهم وحسن سياستهم ملوك جبابرة ليسوا بكفء للسلطنة التي عجلوا زوالها من الأندلس ولا حاجة لذكر سلسلة هؤلاء الملوك وسيأتي ذكر هذا الزوال والملك لله ذي العزة والجلال.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء ابن التين والبرجيني وابن شقر والبرقي والمسراتي والرعيني السوسي.

الطبقة الرابعة عشر

لما هلك أبو زكرياء بايع الملأ ابنه محمداً ولقبوه بالمستنصر ودعوه بالأمير واشتهر بالفضل والاعتدال وحسن السيرة والعلم وحميد الخصال وطار صيته في الآفاق وكان العلم في أيامه بحراً زاخراً وقمراً باهراً وعلت دولته ومدت إليه ثغور القاصية يد الاعتصام واجتمع بحضرته من أفاضل أعلام العلماء الوافدين عليه وعلى أبيه وخصوصاً الأندلس من شاعر مفلق وكاتب بليغ وعالم نحرير وملك أورع متفيئين ظل مملكته لائذين به منهم حازم ومدحه بمقصورته المشهورة وأبو الحسن بن سعيد وابن الأبار وأضرابهم وأبو محمد عبد الحق بن برطلة وفد عليه ببيعة أهل مكة شرفها الله وتلا قصيدة من إنشاء أبي محمد عبد الحق بن سبعين الصوفي المشهور ووقف القاضي أبو القاسم بن البراء المذكور على منبر جامع الزيتونة يوم قراءتها موقفاً مشهوراً وذلك سنة 659هـ واتسع ملكه وقوي سلطانه وأباد مخالفيه وقيل في هاته البيعة:

اهنأ أمير المؤمنين ببيعة	وافتك بالإقبال والإسعاد
فلقد حباك بملكه رب الورى	فأتى يبشر بافتتاح بلاد
وإذا أتت أم القرى منقادة	فمن المبرة طاعة الأولاد

وفي السنة قبلها قبض على ابن الأبار المذكور وكان كاتباً له ولأبيه من قبله وأمر بقتله وحرق جثته وتآليفه وكتبه وفي سنة 659هـ قبض أيضاً على وزيره الفقيه العالم أحمد بن اللياني شارح المدونة ومات تحت العذاب وأحرق جثته والكمال متعذر إلا فيمن عصمه الله وغزاه صاحب فرنسا سان لويز الغزوة الشهيرة آخر سنة 668هـ ونزل قرطاجنة واستوسع فيها بجنوده وذخائره وعظم الخطب على أهل تونس

واتصل القتال نحو الأربعة أشهر وضاق الخناق ثم تدارك الله سبحانه وتعالى أهالي المملكة بهلاك هذا الملك بالطاعون وعرضوا على أبي عبد الله المنتصر الصلح فصالحهم بما غرموه في حركتهم وكانم بلغاً جسيماً على يد القاضي ابن زيتون المذكور وانعقد بإنشائه وخرج الفرنسيس من قرطاجنة لبلاده وهنأ هذا الأمير بهذا النصر الذي لم يكن في الحساب.

قلت: وفي هذا العهد بقرطاجنة كنيسة ضخمة تعرف بسان لويس بها جماعة من الرهبان وبها دير مملوء بالآثار العتيقة العجيبة والتحف المستظرفة الغريبة التي هي في الحقيقة كنز من الكنوز المدخرة، ولم يزل هذا الأمير على حاله من علو الكعب وبعد الصيت واتساع السلطان واتخاذ المصانع الباقية آثارها إلى هذا العهد وتوفي عالي الكعب آمن السرب سنة 675هـ كان يقول ما يسألني الله عن أمور الأمة بعد أن قدمت عليهم للقضاء أبا عبد الله محمد الخباز. وقد أفرد ولي الدين بن خلدون فصلاً في أخباره يكتب بماء العيون ولا يتعلق بأذياله الطامعون وبويع لابنه يحيى ولقب بالواثق، فرفع المظالم وأفاض العطايا ثم فسدت بطانته من استبداد وزيره ابن الغافقي وسوء سيرته وبلغ ذلك عمه أبا إسحاق فسار من الأندلس وأخذ بجاية وبايعه الموحدون ووقع خلع الواثق ثم قتل سنة 679هـ وكان دخول أبي إسحاق لتونس في ربيع الثاني سنة 678هـ وتمت له البيعة ثم قام عليه أحمد بن مرزوق المسيلي البجائي وزعم أنه المهدي واستولى على طرابلس وغالب بلاد إفريقية وأخيراً استولى على تونس ثم قصد بجاية وغيرها وظفر في وجهته هاته بأبي إسحاق، وقتله في أخبار طوال وذلك سنة 682هـ ولما ساءت سيرة هذا الدعي بايع العرب أخاه أبا حفص عمر وهو إذ ذاك بقلعة سنان ولما بلغ ذلك الدعي خرج لقتاله واتصلت بينهما الحرب ثم لما انحلت عصبيته اختفى وكان كذاباً سفاكاً للدماء ظلوماً لم يأت يحسنه إلا أحداث جامع الخطبة خارج باب بحر من تونس. ولما اختفى دخل أبو حفص تونس وطهر سرير ملكه من هذا الدعي الخبيث ثم وقع العثور عليه ومثل به وطيف بشلوه سنة 683هـ وحصل الاطمئنان واستقام أمر السلطان وبادر الناس بطاعته من طرابلس إلى تلمسان ولقب بالمنتصر بالله ثم خرج عليه أبو زكرياء بن أبي إسحاق المذكور وانضمت إليه الأعراب وأطاعته بجاية والجزائر وبسكرة والثغور الغربية وانقسمت الدولة لدولتين وفي أيامه استولى صاحب صقلية على جربة وعهد بالولاية لأبي عصيدة محمد بن الواثق بإشارة من معتقده الولي الصالح أبي محمد المرجاني وتوفي في ذي الحجة سنة 694هـ وكان ملكاً عاقلاً كريماً فاضلاً لم تحدث منه عقوبة لأحد يعظم العلماء والصلحاء ويبرهم وكانت أيامه أيام عدل وهناء وأمن وسرور.

تنبيه: قال ولي الدين بن خلدون: لا وثوق في الحرب بالظفر وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد وإنما الظفر فيها من قبيل البخت والاتفاق انتهى. قلت: يؤيده حرب ابن مرزوق المذكور وأشباهها والله يؤيد بنصره من يشاء.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء ابن عريبة وابن بزيزة وابن البرا وابن الخباز وابن زيتون وابن الأبار وابن سعيد وابن الغماز.

الطبقة الخامسة عشر

تقدم أن أبا حفص عهد بإفريقية لأبي عصيدة المستنصر محمد بن الواثق وتمت له البيعة لما توفي أبو حفص وانشرح الناس لها وكانت أيامه مواسم وتوفي سنة 709هـ وبويع لأبي بكر الشهيد عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن يحيى بن المنتصر بالله بن أبي زكرياء ولما بلغت هاته البيعة خالد بن أبي زكرياء بن أبي إسحاق إبراهيم وهو إذ ذاك أمير قسنطينة وغيرها خرج لتونس وخرج له أبو بكر في جنده غير أن غالب الجند مال لخالد فانهزم ثم وقع القبض عليه وقتل ولذا سمي الشهيد وكانت ولايته سبعة عشر يوماً ودخل خالد الحاضرة وتمت له البيعة ولما استوثق أمر خالد لقب الناصر لدين الله وأفتك برجال الدولة وثار عليه أخوه أبو بكر وكان خلفه والياً بقسنطينة واضطرب الحال بإفريقية ولما بلغ هذا الاضطراب لأبي يحيى زكرياء بن أحمد بن محمد اللحياني وهو بطرابلس عزم على تملكها وبايعه أهل طرابلس وراسله الثائر أبو بكر المذكور مظاهراً له على أمره فاشتد به عضده وقصد الحاضرة فصبحها وانحلت عرى خالد وأشهد على نفسه بالخلع وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر وبويع لأبي يحيى المذكور في رجب سنة 711هـ وهادن الأمير أبا بكر ثم استعجل أمر أبي بكر وانضمت في طاعته زناتة وقصد إفريقية سنة 716هـ فهابه أبو يحيى وكان قد أسن فأشرك رؤساء الأعراب في سلطانه ولما لم يتم له معهم أمر قبض يده على الخلافة وشرع في بيع ذخائره وجمع القناطير من الذهب والكثير من نفائس الدر والياقوت وخرج لقابس موارياً بتفقد جهاتها سنة 717هـ ثم ارتحل لطرابلس وأخرج رجال دولته ابنه المعتقل من السجن أبا ضربة محمداً وبايعوه والأعراب في اضطراب وقصده الأمير أبو بكر المذكور سنة 718هـ فالتفت القيروان على أبي بكر وخلعوا أبا ضربة ودخلوا تونس فملكوها وكانت ولايته تسعة أشهر وتم الأمر لأبي بكر وهو أبو بكر ابن الأمير أبي زكرياء ابن الأمير أبي إسحاق وله مع أبي ضربة وغيره حروب يطول جلبها وكان الظفر له فيها وعز سلطانه وعلا كعبه ورسخت قدمه وطالت مدته وابتهجت به حضرته وعهد بالولاية لابنه أبي العباس وفاجأه المحتوم

في رجب سنة 747هـ ولما توفي تمت البيعة لابنه أبي حفص وعدل عن ولاية ابنه أبي العباس ثم ثار أبو العباس هذا عليه وقدم الحاضرة فملكها سنة 747هـ ثم ظفر به أخوه أبو حفص وقتله وأبو حفص قتله السلطان المريني الآتي ذكره سنة 748هـ وكان قتله بقابس وولايته عشرة أشهر وكان قدوم السلطان أبي الحسن المريني من المغرب إلى الحاضرة في السنة في جند عظيم وصحبته الكثير من علماء المغرب وأدبائه منهم السطي والإبلي وابن الإمام وابن عبد المهيمن وابن الصباغ ودخل تونس في أعظم أبهة وأحسن احتفال وله في إقامته بإفريقية أخبار طوال وأصلح الفساد ومحا دولة بني أبي حفص واستقام له الحال ثم دارت عليه الدوائر من الأعراب وحلت به نوائب وأهوال وآل أمره للرجوع للمغرب في أساطيله سنة 750هـ وقاسى في طريقه الشدائد والمصائب وأحاطت به النوائب وغرق أسطوله وبه الكثير من أفاضل العلماء منهم السطي. وفي مدة إقامته بإفريقية كان الوباء الجارف ضارباً خيامه بها وبأثر خروج هذا السلطان من الحاضرة دخلها وإلى بونة أبو العباس الفضل بن أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي واستقل بالأمر وجدد الرسوم الحفصية ثم قتل في جمادى الأولى سنة 751هـ.

تنبيه: من مآثر أبي زكرياء اللحياني المذكور تجديد أبواب جامع الزيتونة الجوفية من عود الساج سنة 717هـ ولا زالت على حالها إلى هذا العهد ورحلة التجاني المشهورة كانت صحبته. وكان عالماً معظماً للشريعة فاضلاً أميراً عادلاً ومن عدله أنه مكن القاضي ابن عبد الرفيع من ابنه أبي ضربة للقصاص في نفس قتلها وأقر بالقتل وحكم القاضي بالقصاص ولما عفا الأولياء بقي في حبس القاضي على مقتضى المذهب المالكي من سجن القاتل عاماً ثم ضربه مائة إن لم يقع القصاص كفارة للقتال إذا كان القتل بإقراره ولبث في السجن حتى أخرجه أهل الحل والعقد منه وبايعوه لما نفض أبوه يده من السلطنة وهو من الذين خرجوا على القانون الشرعي فإنه لما أخذ البيعة وثب على القاضي الذي سجنه ونفاه للمهدية واعتقله بها في ماجل بقي فيه ما ينيف عن العامين فانظر إلى الأب كيف سلّم ولده للأحكام الشرعية وآدابها وإلى الابن لما قدر كيف عاقب القاضي على فعل يجب عليه فعله وكان قاضياً إلى أربعة من أسلافه وأسلافه لهم أخبار دالة على توطين نفوسهم على الأحكام الشرعية وآدابها مع ملازمة الجماعة في الصلوات في المساجد وفي قصورهم وبساتينهم وقراءة الحديث والميل إلى سماع المواعظ والعمل بها والأخبار الدالة على أن بعضهم ومنهم أبو ضربة المذكور وآخر ملوك دولتهم بعكس ذلك كالجراءة على القتل والعقاب بالسجن لمن فعل ما وجب عليه فعله شرعاً. وقد عقد

ولي الدين بن خلدون فصلاً في مقدمته قال في آخره: «إذا أذن الله سبحانه بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طريقتها فتفقد منهم الفضائل ولا تزال في انتقاض إلى أن يخرج الملك من أيديهم وتبدل بسواهم ليكون نعياً عليهم في سلب ما قد أتاهم من الملك ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ الآية. ومن استقرأ ذلك وتتبعه في الأمم السابقة يعلم علم يقين ما ذكرناه والأمر كله لله».

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء ابن جماعة والتجاني وابن عبد الرفيع وابن راشد والصفاقسي وابن هارون وابن عبد السلام وابن جابر.

الطبقة السادسة عشر

لما قتل أبو العباس الفضل بويع لأخيه أبي إسحاق بن أبي بكر عقد له البيعة أبو محمد بن تافرجين وهو غلام مناهز واستبد عليه وأسخط الأعراب وجرت بينه وبين سلطان المغرب أبي عنان المريني حروب باشر أكثرها بنفسه ثم وجه أسطوله للحاضرة فأخرج منها ابن تافرجين واستولى عليها في رمضان سنة 758هـ وأبو عنان إذ ذاك في قسنطينة وظهر له الدخول للحاضرة ثم أعرض عن ذلك وثنى عنانه إلى غربه ورجع السلطان وحاميه ابن تافرجين للحاضرة وفي سنة 766هـ توفي الحاجب المذكور ودفن بمدرسة قرب حوانيت عاشور وأقام هذا السلطان بعد ذلك بالحاضرة بين فتنة وهدنة مع أعرابها حتى توفي بغتة في رجب سنة 770هـ وفي أيامه استولى طاغية جنوة على طرابلس حتى افتداها منهم ابن مكي صاحب قابس وبويع لابنه أبي البقاء خالد وهو صبي ولم يستقم أمره حتى مال الأعراب من بني كعب إلى أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر الحفصي صاحب قسنطينة لما علموا من كفاءته وعدله فتوجهوا إليه وقدموا به بعد ترادف الوفود عليه لنصرته ودخل الحاضرة وتمت له البيعة واعتقل أبا البقاء وكانت ولايته سنة وتسعة أشهر ثم التفت لاسترجاع ما تغلب عليه الثائرون فاسترجع الجريد وقابس وجربة ودخلت طرابلس والزاب في طاعته وعلت يده وعز سلطانه وكانت له أساطيل في غاية المنعة لنكاية العدو وتوفي في شعبان سنة 796هـ وهو من مفاخر ملوك هاته الدولة وممن يوصف بالعدل والإنصاف وأسلم على يده عبد الله الترجمان وكان قسيساً وهو مؤلف تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب وأثنى فيها على هذا السلطان. وعلى عهده تقدم ابن عرفة للفتيا والخطابة بالجامع الأعظم وفي أوائل دولة أبي فارس الآتي ذكره أنهى ولي الدين ابن خلدون خبر بني أبي حفص.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء ابن علوان وأحمد الغبريني والبطرني وابن عرفة وابن خلدون.

الطبقة السابعة عشر

لما توفي أبو العباس بويع لابنه أبي فارس وقام بالملك أتم قيام وانتظم أمره أي انتظام ورتب الأحوال وأعطى الأموال وأصلح البلاد وقمع أهل الفساد، وكان شجاعاً حازماً فطناً ذكياً، تقياً عالماً موقراً للعلماء، محباً للصالحين، كثير الصدقات محباً للخير. ومن حسناته خزائن الكتب المشتملة على أمهات الدواوين وجعل لها مقصورة بمجنبة الهلال من جامع الزيتونة وأوقفها على طلبة العلم ينتفعون بالنظر والكتب بشرط أن لا يخرج منها شيء عن محله وجعل لها قيمين يقومون بها في نفضها ومناولتها للطلبة وردها لمكانها ووقت وقتاً من كل يوم، وكان ملازماً لقراء العلم بين يديه سفراً وحضراً وأقام العدل في جميع رعاياه بالكتاب والسنة وإنصاف المظلوم من الظالم. وفي أيامه عظم شأن المولد الشريف وكان قاضي عساكره ابن الشماع المتوفى سنة 833هـ وكانت له وقائع شديدة مع إخوته وغيرهم ودوخ النواحي وقمع الثوار وجاءته الوفود من الشرق والغرب ووافته بيعة فاس، وانضم له ملك المغرب. وبالجملة فهو درة سلكهم ومجد ملكهم. وتوفي قرب جبل ونشريس من عمل تلمسان فجأة يوم الأضحى سنة 837هـ فكتم حفيده وولي عهده موته حتى تمت بيعته، ودفن بتربة أسلافه الغربية من مقام أبي محفوظ محرز بن خلف. والحفيد المذكور هو محمد المنتصر بن المنصور بن أبي فارس ودخل تونس في أبهة عظيمة يوم عاشوراء من سنة 838هـ وجددت له البيعة وأفاض العطاء وعمّ إحسانه، وله حروب مع الثائرين ومآثر منها ابتداء المدرسة المنتصرية وأتمها أخوه بعده وتوفي في صفر سنة 839هـ وعلى عهد السلطان أبي فارس انتهى تأريخ ابن الشماع المذكور. وله مع الإمام البرزلي المذكور نزاع في شأن العقوبة بالمال فابن الشماع يقول بالمنع وخصمه يقول بالجواز وألّف كل منهما رسالة في الرد على صاحبه وتأييد مقالته.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء عيسى الغبريني والوانوغي والأبي والزعبي وابن الشماع والقلشانيان محمد وعمر والبرزلي وابن ناجي وابن عقاب.

الطبقة الثامنة عشر

لما توفي محمد المنتصر بويع لأخيه أبي عمرو عثمان، ولما استقام أمره خالفه الأعراب وحاصروا الحاضرة وله حروب مع الثائرين وأخيراً كان الظفر حليفه واستقام أمره وهو آخر رجال دولة بني أبي حفص وتتمة أنجادهم وفرسان جدالهم وصاحب المآثر الباذخة مثل ميضاته المعروفة إلى الآن بميضاة السلطان جو في جامع الزيتونة وإتمام مدرسة أخيه المنتصر ومدرسة جوار مقام الشيخ محرز وخزائن الكتب بالمقصورة الشرقية من جامع الزيتونة وغير ذلك مما عفت رسومه. وبالجملة فهو ختام الدولة الحفصية ونظام المحاسن الفاخرة ببلاد إفريقية. وتوفي أواخر رمضان سنة 893هـ وعلى عهده سنة 872هـ كان وباء جارف بلغ مَن مات به في اليوم أربعة عشر ألفاً وعلى عهده كانت وفاة الشيخ فتح الله العجمي في شوال سنة 847هـ وكان انتهاء تاريخ الزركشي سنة 882هـ.

فصل

تقدم أن الطاغية الإسباني استولى على معظم الأندلس أواسط المائة السابعة وانحاز المسلمون إلى غرناطة وجنوب الجزيرة، وبعد ذلك صارت هاته الجهة محل مطامع هذا العدو، والأمراء المسلمون هناك إلى الانقسام والتنافر وتعارض الأغراض والشهوات من الأمراء والثوار بتلك الجهات الذين لم يعتبروا ما في الانقسام من المضار وفعلاً وقع فإن الطاغية اغتنم الفرصة وأخذ في محاصرة جهات غرناطة. ولله در خاتمة أدباء الأندلس أبي الطيب الشريف الرندي، إذ قال يندب بلاد الأندلس، ويحرك العزائم من أهل الإسلام لنصرة الدين؛ القصيدة المشهورة التي أولها:

لكل شيء إذا ما تمّ نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

وقد ألف في الغرض العالم النحرير الوزير الشهير أبو يحيى بن عاصم كتاباً سماه «جنة الرضى في التسليم بما قدر وقضى» وهو كتاب مفيد عجيب ومضى الكلام على هذا في المقصد في ترجمة هذين الشيخين. وجرت أمور وحروب بين المسلمين والطاغية حتى استولى على ما بقي بالأندلس شيئاً فشيئاً فكان الاستيلاء على مالقة سنة 893هـ وعلى غرناطة والحمراء سنة 897هـ بعد حصار أصاب المسلمين فيه شدة الجوع وتكاثر الكروب وتفاقم الخطوب فكاتبوا الطاغية في الصلح واشترطوا شروطاً وهي سبعة وستون شرطاً منها التأمين على النفس والمال

والأهل ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم ومنها أن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك إلى غير ذلك من بقية الشروط. ثم إنهم نقضوا تلك الشروط شيئاً فشيئاً ونكثوها عروة عروة إلى أن آل الأمر إلى تمكين الكردينال كيمينيسي من إعدام جميع آثار المسلمين وأمر بإحراق ثمانين ألف كتاب بخط اليد في ميادين الرحبات العامة بغرناطة ولما حلّ بالمسلمين ما حلّ خرجوا إلى فاس ومليلة والريف وغيرها منهم ابن الأزرق وبنو داود المذكورون في فهرسة ابن غازي وأبو عبد الله الوادي آشي. ثم وقع إكراه الباقي على التنصر أو الخروج فخرج الكثير منهم ووصلوا لإفريقية الشمالية سنة 1017هـ والتي بعدها، وكانوا خلقاً كثيراً وانتشروا في المغرب الأقصى والأوسط وإفريقية وسيأتي إن شاء الله مزيد كلام عليهم في الطبقة الحادية والعشرين. ولم يبقَ بالأندلس، بعد إكراههم على ما ذكر، مَن يجهر بكلمة التوحيد والأذان وجعلت في المساجد والمآذن النواقيس والصلبان بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن فلا راد لما قضاه الملك الديّان.

في خلاصة تاريخ العرب: المطرودون من إسبانيا منذ فتح النصارى غرناطة إلى سنة 1609هـ ثلاثة ملايين، كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة. فدرست معالم عز إسبانيا.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء أحمد القلشاني وأحمد حلولو والرصاع ومحمد الزنديوي.

الطبقة التاسعة عشر

لما توفي السلطان أبو عمرو في التاريخ المذكور بويع لحفيده أبي زكرياء يحيى بن محمد المسعود بن أبي عمرو فقام بالأمر وخرج لتمهيد النواحي وفي أثناء اشتغاله بما ذكر اشتغل بأمر تونس عمه عبد المؤمن حين وقع الافتراء بموته وشاع حتى تواتر في رجب سنة 894هـ ثم تبين خلافه وقدم من مغيبه ودخل الحاضرة وجددت بيعته وفر عمه عبد الموفق ثم وقع الظفر به وقتل في خبر طويل ووافته بيعة أهل الأطراف واستقام أمره إلى أن هلك في طاعون سنة 899هـ وبويع لأبي عبد الله محمد بن الحسن بن محمد المسعود وكان فطناً ذكياً محباً للخير وأهله إلا أن دولتهم بلغت سن الهرم وأذنت بالانقراض لخروج الأكثر عن طاعته فملك عروج باشا أخو خير الدين الآتي ذكره الجزائر وملك النصارى طرابلس سنة 914هـ وبقيت

تحتهم حتى فتحها درغوث باشا كما ملكوا بجاية سنة 910هـ وبقيت لهم أيضاً حتى أفتكها صالح باشا واضطربت أحوال الدولة من يومئذ. ومن آثار هذا السلطان المقصورة الشرقية بالجامع الأعظم وأوقف بها كتباً جمة وهي المعروفة الآن بالعبدلية نسبة له وتوفي وإفريقية في اضطراب سنة 932هـ وبويع لابنه الحسن وسار سيرة حسنة ثم انقلب لأسوأ سيرة فازداد الارتباك والاضطراب في البلاد وخرج عن طاعته سوسة والقيروان وملك صاحب الجزائر وقسنطينة وتغلب العرب على البلاد وقويت شوكتهم وكان خير الدين وأخوه عروج قدماً من جزيرة مدلى للحاضرة على السلطان المذكور فقبلهما بالجميل ولهما وقائع وغزوات برية وبحرية شهيرة وبعد فتح الجزائر وغيرها أقام خير الدين والياً عليها ووقع توجيه البيعة للسلطان سليم العثماني وانتشر ذكره وبعد صيته بالمشرق والمغرب ثم قصد تونس واستولى على بنزرت وخطب بها للسلطان العثماني ولما بلغ ذلك الحسن الحفصي أيقن بالغلبة وفر بما خف ودخل خير الدين الحاضرة بلا قتال سنة 935هـ ثم لما ثار عليه بعض أهل تونس خرج منها بعد أن سكن الثائرة وأمن الناس وبأثر ذلك رجع الحسن لتونس ووقعت حروب بينه وبين خير الدين وأخيراً انتصر عليه خير الدين ووقع الإعلان بطاعة السلطان سليمان وساس خير الدين الرعية ولما أيس الحسن من نصرته على خير الدين ذهب لإسبانيا مستصرخاً بطاغيتها وأجابه لذلك وأمده بأسطول وقدم الحاضرة وقامت الحرب على ساق حتى انهزم خير الدين لأن غالب الناس مالوا لسلطانهم سليل ملوكهم ودخل الحسن الحاضرة والنصارى وأمنوا الناس فلم يرعهم وهم في أمان إلا هجوم النصارى عليهم على حين غفلة فاستباحوهم قتلاً وأسراً ونهباً. يقال: قتل في هاته الواقعة ثلث أهل تونس وأسر الثلث ونجا الثلث وكل ثلث ستون ألفاً وهاته الواقعة تسمى بوقعة الأربعاء وأشار إليها العالم ابن سلامة في قصيدته التي يتشوق فيها إلى تونس ويندب أطلالها ويذكر أيامها الرافلة في حلل الدعة وكيف تغيرت وتبدلت أحوالها وبقي الحسن مع النصارى تحت الذل والهوان وشاركوه في البلد وملكوا حلق الوادي وشيدوا به حصناً أقاموا في بنائه نحواً من أربعين سنة ثم خرج الحسن لاسترجاع القيروان من الثائرين عليه ولما هزموه شر هزيمة ذهب لإسبانيا طالباً من الطاغية الإعانة على استرجاع القيروان كإعانته على أهل تونس قبل فخيب الله سعيه. وستأتي بقية أخباره.

تنبيه: اعلم أنه بانتهاء المائة التاسعة أخذ العلم بتونس في القهقرى والرجوع إلى الوراء بعد أن كان سوقه نافقة في دولة أبي عمرو المذكور وتداول في مدته ومدة أخيه محمد خطط العلم جماعة وافرة منهم أبو عبد الله بن قليل الهم وأبو عبد الله

محمد الزواغي وأبو البركات بن عصفور وأبو عبد الله البنوتي وتداول خطط القضاء والفتيا جماعة منهم أبو عبد الله الرصاع وأبو عبد الله القلشاني وأبو عبد الله الزنديوي وابنه أبو الحسن وغيرهم من فرائد تاج تونس وزينة جمالها المونس ثم في أوائل المائة العاشرة كانت دولة السلطان أبي عبد الله محمد بن الحسن الحفصي وهو الذي بنى المقصورة المعروفة بالعبدلية وملأها بالخزائن وملأ الخزائن كتباً وجعل عليها نظاراً وجعل النظر في ذلك لإمام الجامع وهو يومئذ أبو البركات بن عصفور وتوفي هذا السلطان وتولى بعده ابنه الحسن وفي أيامه دخل خير الدين تونس ثم خرج منها في خبر طويل الذيل وكان من رجال الدنيا والآخرة وفي أخباره تأليف مستقل، ثم انقطع الخبر وعمي الأثر وطوي بساط أخبار العلماء والفضلاء لما دهم إفريقية عموماً والحاضرة خصوصاً أواسط المائة العاشرة من الفتن والإحن فتقلص ظل الدولة الحفصية عنها وبلوغها غاية الهرم حتى تجاسر عليها الثوار من كل جانب وامتدت يد الطاغية الإسباني ولا زالت في ارتباك الأحوال ومكابدة المصائب والأهوال وخرج منها في ذلك الكثير من العلماء والفضلاء إلى المشرق والمغرب منهم أبو عبد الله ماغوش المذكور بهاته الطبقة هاجر إلى المشرق وأبو الفضل خروف الآتي اسمه في الطبقة الآتية هجر إلى فاس وفي نزهة الحادي نقلاً عن المنجور في فهرسته أن أبا الطيب الظريف التونسي كان واعظاً بجامع الزيتونة رحل لفاس بعد أخذ تونس فخاطبه قاضي الجماعة بفاس أبو الحسن علي بن هارون بمنظومة منها:

جادك الغيث إذا الغيث انهمرْ   حضرةَ الأنس البديع المؤنسِ
لم يكن إلا كلمح بالبصر   أو بريق لاح لي من تونس

فأجابه أبو الطيب بأبيات منها:

أيها الشيخ الفقيه المعتبر   سيد القطر وصدر المجلس
قد تفضلتم بنظم كالدرر   حل من قلبي محل النفس

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء أبو الحسن الزنديوي وأبو عبد الله ماغوش.

الطبقة العشرون

قد ذكرنا فيما تقدم البعض من أخبار الحسن الحفصي، ولنرجع لذكر بقيتها والاستيلاء العثماني باختصار فنقول: إن الحسن لما ذهب لإسبانيا مستعيناً بطاغيتها

على فتح القيروان وخاب سعيه اغتنم ابنه أبو العباس فرصة مغيب والده وقدم من بونة وهو يومئذ عامل عليها إلى تونس ودخل قصبتها على حين غفلة ولما اتصل الناس بخبره بايعوه وسار سيرة حسنة ولما بلغ والده خبره عظم عليه ذلك وبذل مالاً جسيماً للطاغية فوجه معه أسطولاً لنصره ونزل بحلق الوادي ووقع القتال بين المسلمين والنصارى وكانت الدائرة على عسكر الطاغية وأما الحسن فمر بجزيرة شكلى فأدركه أبو الهول أحد رؤساء الأعراب وأخذه وأتى به إلى ابنه فاعتقله ثم أذهب بصره ثم فر وهو على تلك الحالة إلى القيروان ومات هناك واستقل ابنه أبو العباس وظهرت كفاءته لولا هرم الدولة ثم قدم للحاضرة علي باشا صاحب الجزائر واستولى عليها وأخذ البيعة للسلطان سليم ورتب حراستها، وأما أبو العباس فإنه فر بما خف من أهله وذخائره إلى حلق الوادي وذلك سنة 977هـ ولبثوا على ذلك ثلاث حجج فالعرب مالكة للضاحية والنصارى للثغور ثم جاء أسطول عظيم من قبل الطاغية بسعي من أبي العباس المذكور ولما وصل أطلعه قائده على كتاب من موجهه ومضمونه يعينه على طلبه بشرط المقاسمة في الحكم والجباية فأنكر ذلك وأنف منه وانتقل إلى بلومو من صقلية وبها توفي ثم حمل إلى مدفنه بزاوية الشيخ الجليزي بالحاضرة. والشرط المذكور قبله أخوه محمد وآل الأمر بعد ذلك إلى دخوله الحاضرة مع العدو وقاسمه الملك مقاسمة الغالب مع المغلوب واشتد الخطب بما آل بالمصائب العظيمة والنوائب الجسيمة على العباد والبلاد من هتك الأستار والعبث بالفساد حتى خرج أهل تونس إلى الجبال والغابات والبوادي ونالهم من الجوع والعطش ما هو مبسوط في كتب التاريخ تقشعر منه الجلود وعاثت عساكر الإسبان في الأرض وربطوا خيولهم بجامع الزيتونة واستباحوا ما به وبالمدراس من الكتب العلمية وألقوها في الطرقات يدوسها العسكر بخيولهم وهذا هو السبب في قلة وجود تآليف الفحول من هذا القطر فإنها ذهبت شذر مذر وفي هاته الواقعة نبشوا قبر ولي الله أبي محفوظ محرز بن خلف وستر الله جسده الكريم فلم يجدوا به إلا التراب إلى غير ذلك مما ينبو عنه السماع ويبكي العيون دماً ويذيب القلوب ألماً وفعلوا مثل ذلك بالمدائن المهدية والمنستير وغيرهما من المحارس والقصور تخريباً وقتلاً وأسراً ومات نحو الثمانين ألفاً وأسر مثلها الطاغية المذكور ثم تداركها الله بالتفات السلطنة العثمانية فأنقذتها من مخالب هذا الطاغية في جمادى الأولى سنة 981هـ وهذا الفتح من أهم الفتوحات الإسلامية والمآثر الخالدة في إفريقية لهاته الدولة السنية خلد الله ذكرها وأيد ملكها وفخرها وكان هذا الفتح على يد وزيرها الشائع الصيت المعروف بالفضل والنجدة والشجاعة والثبات والرأي الصائب والفكر

الثاقب سنان باشا بعد قتال استشهد فيه الكثير من الأبطال وأمراء الأجناد وكانت الدائرة على الأعداء والبغاة وظفر هذا الوزير بمحمد الحفصي المذكور واعتقله إلى أن هلك في اعتقاله وانقرضت بانقراضه هاته الدولة، والله سبحانه وتعالى الفعال لما يريد لا راد لأحكامه وأفعاله فكان ابتداؤها سنة 603هـ وانقراضها سنة 981هـ وسبحان الباقي الذي لا يحول ولا يزول. والسبب في ذلك هو ما أشرن إليه فيما سلف، وهو أنه لما فسدت طباعهم واختل حالهم وامتلأ صاعهم وكانت دولتهم على حالة الهرم واستغاثوا بأعداء الدين فكان مآلهم سلب النعم وإحاطة النقم. فانظر واعتبر لحال هاته الدولة على ضعف ساحة أرضها، وقلة أنهارها وأشجارها كيف ابتداء أمرها واتساع مجال ملكها وأملها من أملها من أهل المشرق والمغرب ومدوا إليا يد البيعة ودانوا لها بالطاعة، واعتصموا بالانتساب إلى سلطانها، وأتته بيعة الأشراف من بيت الله تعالى وحرمه الآن ومهبط الوحي حيث كانت أقرب إلى خلال الخير وأثل ملوكها في الحاضرة المصانع الواسعة والأبنية النافعة كالزوايا في الطرق لأبناء السبيل والتكايا والمساجد والمدارس والمكاتب لقراءة القرآن العظيم ورتبوا الكتب العلمية في أماكن محفوظة على قانون خاص إعانة لأهل العلم وطلابه والمستشفيات، إلى غير ذلك مما بقي أثره ولم ينسَ خبره. وفي أيامهم نفق سوق العلم وظهر من الراسخين فيه من هذا القطر أعلام مصنفاتهم تشهد لهم بذلك. وكان من الحضارة بتونس ما اقتضاه طبع العمران والثروة وحال البلاد بما لا ينافي سذاجة الدين فتوالت الوفود على سكنى هاته الحاضرة من سائر الجهات على اختلاف الملل والنحل والأصناف يجذبهم مغنطيس العدل فزادوا في أسباب العمران من البناء والغراسة وغير ذلك. وانظر واعتبر كيف كانت عاقبة أمرها وانقلاب أحوالها بعد تلك القوة وعزة السلطان وعلو الكعب من انتقاض الجهات وكثرة الثوار واستطالة أيدي الأعراب في البلاد بالنهب والبغي والفساد حتى استعان آخر ملوكهم بالعدو الأجنبي وآل أمره كالمسجون في حجرة لا يملك إلا موضع قدميه ثم إلى سجنه وموته تحت أقفاله عقاباً له وزجراً لأمثاله الناسجين على منواله وما قررناه في حق ملوك هاته الدولة وعلمائها هو ملخص ما أسلفناه.

واعلم أن ملوك بني أبي حفص كانوا يجلون العلماء، ومجالسهم بهم عامرة وموائدهم مزدانة بهم باهرة وفي ذلك مصلحة لهم عظيمة ومنزلة رفيعة فخيمة إذ بوجودهم والالتفات إليهم وتعظيمهم تنشر راية العلم وتحفظ الشريعة المطهرة واللغة العربية الفصيحة. وكان غالبهم محافظاً على الشرع العزيز ممتثلاً لأوامره. وكان بتونس أربعة قضاة قاضي الجماعة هو المعبر عنه في الشرق بقاضي القضاة وكان بها

مفتون منهم من يكون متصدراً لها كتابة ومنهم من يتصدر للأخبار فقط والأحكام جارية في مجاري عزها الشامخ يرتاح لها ويخضع القوي والضعيف والأمير والأمور والخاصة والجمهور وتنفذ على يد قاضي الجماعة. وفي المائة التاسعة ظهرت رتبة المفتي وصارت أرفع درجة من رتبة القاضي وإذا أشكل على القاضي بعث للمفتي يسأله. وكان هؤلاء الملوك يجعلون يوم الخميس لاجتماع القاضي والمفتين بمجالسهم وتنفذ بين أيديهم الأحكام الشرعية في كل أسبوع وكانت لهم عناية تامة واهتمام خاص بجمع الكتب العلمية على اختلاف أنواعها والتغالي في اقتنائها وحفظها في الخزائن بقصورهم للمطالعة وبالمدارس وجامع الزيتونة لنفع العموم بها وتقدمت الإشارة إلى ذلك وأنه كان في خزانة أبي عبد الله المنتصر ستة وثلاثون ألف مجلد وما وقع تحبيسه من أبي فارس وأبي عمرو وأبي عبد الله فليراجع في محاله وفي الرزنامة التونسية أن جامع الزيتونة كان مستبحراً بالعلوم على اختلاف أنواعها عقلية ونقلية مقاصد ووسائل حتى كان يقال إن حذاء كل سارية من سواريه مدرساً وفي خزائنه ما يزيد على المائتي ألف مجلد وأبو فارس عبد العزيز حبس وحده ما يزيد على الثلاثين ألف مجلد ووضعها في خزائن زين بها جامع الزيتونة حبسها على العلماء والمتعلمين وحبس عليها ما تحتاج إليه للإصلاح وعلى المناول والمتعهد لها أرضين وزياتين ونوه المؤرخون بشأنها. ثم تلاه السلطان أبو عمر وعثمان فجمع خزائن أخرى تقارب خزائن أبي فارس وبنى لها مقصورة متسعة وملأها بالخزائن وملأ الخزائن كتباً وحتى الآن تعرف بمقصورة الكتب وفي هذا الزمان يخزن بها الزيت وتلاهما السلطان أبو عبد الله محمد بن الحسن فبنى مقصورة متسعة وهي المعروفة بالعبدلية وملأها بالخزائن وملأ الخزائن كتباً وجعل نظرها لإمام الجامع ثم على عهد آخر ملوكهم ألقيت تلك الكتب بالطرقات فداستها أقدام الرجال وحوافر الخيل والبغال وذهبت شذر مذب وبقيت المدارس والمساجد خالية من كتب العلم وضعف العلم بذهاب رجاله وضعفت الدولة باستيلاء الطاغية. وانتهى الخبر عن هؤلاء باستيلاء العساكر التركية. وسنقص عليك خبرهم إن شاء الله.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء محمد خروف ومحمد الأندلسي وأحمد العيسي.

الطبقة الحادية والعشرون

تقدم أن الدولة العثمانية احتلت إفريقية سنة 981هـ ومن الواجب ذكر رجال هاته الدولة وما آل إليه حال إفريقية بعد تلك النوائب والكوارث ليكون المطالع

على بصيرة من ذلك فنقول: اعلم أن بهذا الفتح رفع الله عن أهالي هذا الوطن النوائب والمصائب والإحن ولسان حالهم يقول: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وذلك أنه لما مهد الوزير سنان الراحة وقطع دابر البغاة والمثيرين للفتن وعزم على الرجوع لدار الخلافة هو وأركان حربه وأمراء أجناده رتب عسكراً لحراسة البلاد وتأمينها وجعل على كل مائة أميراً يسمى الداي ومعناه بالعربية خال كناية عن تعظيم المنادى ورتب أمير لواء لضبط الوطن وجباية المال يسمى الباي ومعناه بالعربية العامل وعين لذلك رمضان باي وجعل النظر في العسكر إلى الآغا ومعناه السيد والنظر العام لحيدر باشا وخطب باسم السلطان سليم ابن السلطان سليمان وضرب السكة باسمه وسافر بعد ذلك لدار الخلافة واستمر الحال على ذلك إلى أن ثار الجند على كبار الديوان سنة 999هـ وطلبوا إقامة داي للنظر في حال عموم العسكر وقدموا أحد أبطالهم إبراهيم رودسلي (آغا) في تلك الخطة نحو الخمس حجج ولم يستقم له أمر وسافر للحج وتولى بعده موسى فمكث سنة وسافر للحج ثم تولى داياً عثمان داي وخرج لتمهيد النواحي وجباية المال ورتب قوانين الرعايا في دفتر سموه بالميزان وباشر الأمور بنفسه وكانت فيه شهامة وسياسة وشجاعة واتخذ الأساطيل وصار في منعة من العدو وله آثار حميدة وكان على عهده طاعون جارف وعلى عهده في سنة 1017هـ والسنة بعدها قدمت الأمم الجالية من الأندلس فأوسع لهم العطاء وأباح لهم السكنى بالحاضرة وبلدان المملكة وبناء القرى في أراض استعمروها فبنوا أكثر من عشرين قرية واغتبط بهم أهل الحاضرة وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم ولم يزل هذا الداي عزيزاً مطاعاً إلى أن توفي سنة 1019هـ ودفن بجوار الشيخ أحمد بن عروس وفي خلال مدته ارتفع صيت رمضان باي المذكور وعظمت كفاءته في قمع الثوار وتمهيد الجهات وجباية الأموال واستخلف جماعة على الأعمال وسماهم بيات جمع باي منهم رمضان هذا وحسين باي ومراد باي جد بني مراد الآتي ذكرهم ولما توفي تولى عوضه دايا صهره يوسف وهو مشهور بالفضل والسؤدد وله آثار كثيرة شاهدة بذلك منها جامعه المعروف بجامع سيدي يوسف بسوق الترك ولم يزل حميد الحال حسن السيرة إلى أن توفي سنة 1047هـ عن سن عالية ودفن بجامعه المذكور ورمضان باي المذكور توفي سنة 1022هـ وتولى مكانه مراد باي المذكور وكان ذا صرامة وكفاءة ثم سمت همته لرتبة الباشا فراسل في ذلك الدولة العلية فأسعفته وأتاه التقليد ونزل لابنه حمودة عن سفر الإمحال سنة 1041هـ وتوفي في هذه السنة ودفن بتربة جوار الشيخ أحمد بن عروس.

تنبيه: قد علمت ما حلّ بإفريقية من المحن وأن العلم ضعف بذهاب رجاله وبأثر ذلك وقع الاحتلال العثماني فابتدأت حينئذ ترجع عمرانها وتستجد شبيبتها وصادف وفود مئات آلاف من الأندلس وجالية غرناطة وعمروا نيفاً وعشرين قرية بين كبيرة وصغيرة لكن التراجع كان بطيئاً بالنسبة لبث العلوم لأنه لما آل الأمر لهاته الدولة وكان الذين قدموا من الأتراك لإفريقية غير منتظمي التصرف إلا القليل منهم لم يقع منهم التفات لتدارك العلم الذي كاد أن يضمحل في ذلك العهد ثم عاد لهذا القطر المأنوس ما انقطع عنه شيئاً فشيئاً إلى هذا الوقت على ترتيب الطبقات الآتية فكل طبقة هي أرقى من التي قبلها. قال الشيخ حمودة بن عبد العزيز في باشيه: خرج من الأندلس ألوف لفاس وألوف لوهران وتلمسان وجمهورهم جاء لتونس فعمروا بها القرى الخالية واستحدثوا قرى سكنوها واستقرت حاضرتهم بالحاضرة فاستحكمت فيهم الحضارة التي عوائدها مرتكزة في طبائعهم واستحدثوا بها صناعة الشاشية التي تقصدها التجار من سائر الأقطار وقصدها الترك من بلاد الخلافة وغيرها ومن مصر فارتفعت بهم أوج العلا ووردت عليهم العلماء من الآفاق فتخرج بهم الكثير من العلماء وشرع أمراؤها في اتخاذ المصانع وتوفير الملك. انتهى بتصرف واختصار. وقال: قد كان العلم لأول دولة الترك مرتفعاً منها بالمرة حتى ورد عليها المولى أحمد أفندي من أرض الروم في أول المائة الحادية عشر على عهد عثمان داي وكان متفنناً في العلوم فأخذ عنه جماعة من أهلها منهم الشيخ محمد الغماد وأبو يحيى الرصاع والشيخ محمد براو وارتحل للمغرب الأقصى وافداً على سلطانها مولاي أحمد الذهبي فوجده يقرىء المطول للمولى سعد الدين بالجامع كل يوم فأوسعه مبرة وإكراماً ثم عاد لتونس فكان يقول: وجدت بجامع القرويين سبعة عشر كرسياً يقرأون التفسير وكلهم عن التفسير بمعزل إلا أن ملكهم يفهم الخطاب ثم ارتحل بعد ذلك إلى بلاده فكانت بها هاته الطبقة التي ذكرناها ومَن عاصرهم كأبي الفضل عظوم وغيره وانتشر بها العلم. انتهى.

وكانت القضاة تجيء إلى تونس من دار الخلافة والغالب عليهم العجمة ومذهبهم مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه فاحتاجوا حينئذ إلى نائب يكون بين يدي القاضي فيكون بمثابة قاضي الخصومات والقاضي التركي بمثابة قاضي الجماعة واحتاجوا أيضاً لمجلس كما جرت به العادة في دولة بني أبي حفص يجعلونه بين يدي الباشا في هذه الدولة وكان يحضر بالمجلس أربعة من المفتين والمراد من حضورهم الأخبار بالأمور الشرعية إذا سئلوا عنها والقاضي ينفذها وأول مَن تصدر بتونس مفتياً حنفياً الشيخ أبو الحسن علي الشريف وباحتلال الدولة التركية أخذ

المذهب الحنفي في الظهور بعد انقطاعه من مدة المعز الصنهاجي حسبما تقدمت الإشارة إلى ذلك في ترجمته.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء أبو الفضل عظوم وأبو النجاة النفاتي وأبو الغيث القشاش وأبو الحسن الرصاع وتاج العارفين البكري.

الطبقة الثانية والعشرون

لما توفي مراد باشا المذكور سنة 1041هـ قام مقامه ابنه حمودة باشا فمهد الأمور ورتبها أحسن ترتيب وكان كريماً حسن السيرة والتدبير محباً للعلماء مقرباً لهم مؤثراً مجالستهم ومباحثتهم شجاعاً قمع الثوار ودوّخ جميع العرب ورتب أوجاق الصبايحية بتونس والقيروان وباجة والكاف لتأمين السبل واتسعت الجباية وله مآثر مأثورة وآثار ضخمة مشهورة منها بناؤه الجامع المشهور قرب ضريح الشيخ أحمد بن عروس ومنارته الغريبة الشكل العجيبة الإنشاء لا نظير لها في المغرب ومنها المستشفى بحومة العزاقين واعتنى بتشييد باردو أحد منتزهات بني أبي حفص وطلب من الدولة العلية تقليد منصب الباشا فأتاه سنة 1068هـ ونزل عن سفر الإمحال لابنه مراد واستخلفه مكانه وعقد لابنه محمد الحفصي على القيروان وسوسة والمنستير وصفاقس وعقد لابنه حسن على باجة وفي آخر الأمر طلب الاستعفاء فأعفي ومال للراحة وتخلى عن البلاد لأولاده إلى أن توفي في شوال سنة 1076هـ ومن شعرائه أبو عبد الله محمد العروي السوسي وله فيه القصائد الطنانة وكان أديب وقته وشاعره من غير مدافع وله ابن نجيب قدمه والده في حياته للفتيا وكان يروي البخاري بحضرة والده لمجلس الباشا والحاصل أن هذا الباشا حسنة من حسنات الزمان وهو المؤسس المجد لبنيه والآثار الخالدة بعده ولما توفي استقل بالأمر بعده ابنه مراد باي المذكور وانفرد بالكلمة واستقام أمره وضعف أمر الدايات في وقته وصاروا أتباعاً له وسنذكر أسماء الدايات في فصل خاص. ومن مآثره المدرسة المنسوبة له غربي الجامع الأعظم وأول مدرس أقيم بها الشيخ محمد الغماد وتوفي سنة 1086هـ وبويع لابنه الأكبر محمد ثم إن عمه محمد الحصفي أغرى أخاه علياً بطلب المشاركة فأصغى له وطلبها فأنف محمد من ذلك ولهذا الخلاف اتفق الأعيان على أن يكون الأمير العم محمد الحفصي وبايعوه بعد خلع محمد المذكور وفراره للكلف وذلك في رجب من السنة 1086هـ ونفذت أوامره بعد ذلك ثم اضطرب أمره وأشهد على نفسه بالخلع وراسل محمداً بذلك وقدم الحاضرة وجددت له البيعة بباردو في شوال من السنة وتوجه العم بعد ذلك للآستانة وأما علي فإنه توجه لقسنطينة وأخذ

في جمع الجنود لقتال أخيه ثم قدم العم من الأستانة ومعه سبعة مراكب مشحونة بالعساكر ومتقلداً منصب الباشا من السلطان محمد خان فجمع محمد باي أهل الحل والعقد بجامع الزيتونة للنظر في هاته النازلة وكان من أمرهم الاتفاق على رد العم وكاتبوا الدولة بأن سبب عدم قبوله هو عدم أهليته وبناء على ذلك رجع العم لدار الخلافة وكان من أمره ما سنذكره وأما علي فإنه قدم بجند من الأعراب وخرج له أخوه محمد في جنده ووقع القتال بينهم فكانت الهزيمة على محمد وفرّ إلى الكاف ودخل علي لتونس وتمت له البيعة وبعد ذلك وقعت بينه وبين أخيه حروب واضطرب الحال وبينما هم كذلك إذ قدم العم محمد الحفصي من دار الخلافة متقلداً منصب الباشا من السلطان محمد أيضاً ودخل الحاضرة في حفل عظيم ووفد عليه علي وهنأه بذلك وصارا على وفاق ثم صارت بينهما وحشة وخرج العم لقتاله باتفاق مع أخيه محمد وبعد قتال كانت الهزيمة عليهما وفرّ العم للقيروان والأخ للمنستير وفي أثناء ذلك قدم صاحب الجزائر لإطفاء نار الفتنة وعقد الصلح بين ثلاثتهم وانعقد على تمليك علي وإقامة العم باشا تبعاً لأمر السلطان واستقرار محمد بالقيروان ويبقى ابنه أحمد رهناً عند عمه علي وبناء على ذلك رجع علي والعم للحاضرة ثم صدر الإذن من الدولة العلية سنة 1090هـ بإبعاد العم لأرض الروم وأبعد لتلك الجهة إلى أن توفي سنة 1097هـ وصفا الجو لعلي ثم أساء السيرة بعد ذلك وتحرك له أخوه محمد في جموع ووقع القتال وفي أثناء القتال اغتال علي ابن أخيه الرهين وفرّ إلى الكاف واتبعه أخوه محمد بحملة عظيمة وانضمت له محلة الجزائريين الذين جاؤوا لنصره وفرّ علي لصفاقس بعد انهزامه ودخل محمد الحاضرة ولما رأى ما يشعر باستبداد الذاي راسل أخاه علياً في الصلح واصطلحا على مقاسمة البلاد فكانت حصة محمد باجة والقيروان والمنستير وحصة علي الكاف ووسلات وسوسة وبقية الساحل وارتحل محمد لتلقيه وعزما على قتال الداي حيث استبد بالحاضرة وهو أحمد شلبي وخرج هذا الداي بمحلة لقتال محمد وآلت بعد القتال بانهزام محمد وراسل الأخوان بعد ذلك صاحب الجزائر إبراهيم خوجة واشترطا له شروطاً على إعانتهما فخرج بنفسه في حملة وعامل قسنطينة في محلة أخرى وسار إليه الأخوان واجتمعوا بالحريرية وألحوا في الحصار على تونس إلى أن استولوا عليها وأسروا الداي شلبي وجددت البيعة للأخوين وذلك في رجب سنة 1097هـ وولوا الحاج بقطاش دفايا وبعد أيام قلائل ظهر للجند عدم إمكان الشركة ونادوا بلسان واحد بولاية محمد وقتلوا علياً وأحمد شلبي وارتحل بعد ذلك الجزائريون بعد توصلهم بما اشترطوا وانفرد محمد باي بالأمر وصفا له الجو وخرج لتدويخ النواحي وجباية

الأموال وتأمين السبل ثم ثار عليه محمد بن شكر ووقعت له حروب معه آل الأمر إلى انهزامه وفراره للصحراء واستولى على تونس وسائر البلاد بإعانة من صاحب الجزائر وتصرف في العباد بالقتل والنهب والفساد وآسف الناس فراق محمد باي واستكانوا تحت سطوة هذا الجبار ثم ثار عليه أهل سوسة والقيروان وبعثوا لمحمد باي ينادونه وقدم وانضم إليه خلائق لا يحصون وخرج إليه ابن شكر فالتقوا على وادي برق الليل فكانت الدائرة على ابن شكر ومات مذموماً مدحوراً وذلك سنة 1106هـ واستولى محمد باي على جميع ما معه ودخل القيروان ثم تونس وسر الناس بقدومه واستبشروا وهادن صاحب الجزائر بواسطة الولي العالم الشيخ علي عزوز ومن مآثره المباني الضخمة القاطعة بعلو مقداره منها جامعه الفخيم البديع المنظر والشكل أمام ضريح ولي الله الشيخ محرز ومات قبل إتمامه فأتمه أخوه رمضان باي وله مدارس بالكاف وباجة والقيروان ونفطة وتوزر وقابس وأسواق الشواشية الثلاث والزيادة في قصور باردو والقنطرة على وادي مجردة وأقام على بنائها بنفسه وهي شاهدة له بالمزية العظيمة والرتبة الشامخة وكان مؤثراً للعدل والإنصاف قامعاً لأهل الجور والظلم من عماله وعساكره محباً لأهل الفضل والعلم وبقي في أمن ودعة إلى أن وافاه أجله في ربيع الأنور سنة 1108هـ وعظم المصاب به وفي مدة أخيه علي أنهى صاحب المونس تاريخه وقد استوفى في مونسه أخبار رجال هاته الدولة وعلمائها وكانت مشاهدة عيان كما استوفاها الشيخ حمودة بن عبد العزيز في باشه.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء أبو الحسن النفاتي وأبو بكر البكري وأبو الفضل المسراتي وأبو العباس الشيف وأبو الحسن الغماد.

الطبقة الثالثة والعشرون

لما توفي الأمير محمد باي سنة 1108هـ تمت البيعة لأخيه رمضان فأقر الناس على مراتبهم ومهد البلاد وجبى الأموال وكان عاكفاً على الملاهي، وكان له مغنٍّ اسمه مزهود استولى عليه وفوض أمره إليه وأقبل على لهوه وتصرف مزهود بالقتل وغيره وتمادى على ذلك حتى قتل العلامة حمودة ابن الشيخ محمد فتاتة افتياتاً على سيده فنفرتهما القلوب وارتفعت الأكف بالدعاء بهلاكهما فهلكا وسنقص عليك خبرهما، وكانت أم رمضان كافرة ماتت على دينها فبنى لها الكنيسة قرب باب قرطاجنة ودفنها بها والشيخ حمودة المذكور كان مختصاً برمضان باي قبل الولاية وبعدها سفراً وحضراً لحسن محاضراته ولطف آدابه ووثوق علمه وذوقه وفهمه. ثم سعى مزهود في إبعاده عنه وخلا له الجو وكان في عهد الإمام تاج العارفين البكري

وابنه أبي بكر يقع تدريس البخاري بجامع الزيتونة رواية ودراية في رجب وشعبان ورمضان إلى السادس والعشرين منه ولما توفي أبو بكر تغيرت تلك القاعدة وصارت رواية لا غير تبركاً لأن ولديه أبا الغيث وأبا الحسن لم يبلغا مبلغ والدهما وجدهما، ولما أبعد الشيخ حمودة المذكور عن رمضان باي رجع لأصله وتصدى لإقرائه دراية وغيره من العلوم بالجامع على حين لم يكن به من يقرأه دراية وكان راويه يومئذ الشيخ محمد زيتون فاجتمع عليه خلائق لا يحصون وصار له بذلك صيت. ولما رأى مزهود ذلك تغير وأرسل إلى أبي الغيث المذكور إمام جامع الزيتونة ليمنعه من إقراء الحديث بالجامع إذ ربما يؤول به الأمر إلى طلب الإمامة بالجامع فأرسل له أبو الغيث بإبطال درس الحديث وأظهر الغضب منه حيث لم يمتثل لإبطاله بعدم إقامة صلاة العصر بالجامع فلم يمتثل لإبطاله وانتقل لإقرائه بمسجد سوق البلاط فازداد مزهود بذلك بغضه وأغرى به رمضان باي ومنعه من الخروج من داره ولم يكفه ذلك حتى أرسل إليه حرساً هجموا على دار الشيخ وأخرجوه بترويع أمه وأبيه وأهله وبنيه وأوقعوا به ما بلغ به الشهادة ولاقى من الله الحسنى وزيادة. ورمضان باي لا علم له بشيء من ذلك غير أنه لما بلغه الخبر لم ينكر على مزهود ولا عاتبه. وجمع مزهود في تلك الليلة طائفة من الأوباش أصحابه وصنع صنيعاً اجتمعوا فيه على كل فاحشة فرحاً بقتل الشيخ وكان قتله سنة 1109هـ من الأهوال العظيمة والمصائب الجسيمة وتأسف عليه والده العالم المشهور والخاصة والجمهور. وقابلوا تلك المصيبة بالصبر والابتهال بالدعاء إلى الكبير المتعال عليه وعلى سيده وتوسل والده في دعائه بسيد الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام في قصيدة أولها:

إليـك رسـول الله وجـهـت آمـالـي ... وألقيت يا سؤلي ببابك أحمالي

فاستجاب الله دعاءهم فلم يمضِ قليل من الأشهر حتى شتت الله أمر مزهود وسيده وأشياعه كما سنذكره إن شاء الله وذلك أنه لما قتل الأمير الباشا أبو الحسن عليّ ترك ابناً اسمه مراد تحت كفالة عمه محمد باشا ثم تحت عمه رمضان المذكور ثم خوّفه منه مزهود وأشار عليه بالقبض عليه فحبسه وسمل عينيه وعالجه طبيب سراً وفرَّ من السجن لسوسة وقام بنصره بعد ذلك أهل وسلات وغيرهم ومالت الجموع إليه وبايعوه في رمضان سنة 1110هـ ووجه حينئذ من أخرج رمضان وقتله ثم أحرقه وألقى رماده في البحر فلا خبر له وكانت مدته ثلاثين شهراً فأعمل أولاً السيف في مزهود وشيعته وعزل أبا الغيث البكري عن الإمامة ثم أقبل على سيرته الشهيرة من قتل الإنسان والحيوان وانتهاك الحرمات والمجاهرة بالفواحش وقتل بنفسه الشيخ المفتي محمد العواني الشريف وشوى من لحمه وأكله مع ندمائه ولما أراد قتله قال

له: أنصحك أن من قتل عالماً آيس من الحياة وفعل بغيره مثل ذلك وقد نزع الله من قلبه الرحمة يؤتى إليه بالرجل فيقوم إليه بنفسه ويجذبه ويقطع أعضاءه ويشق بطنه ويدخل يده لإخراج أمعائه وكبده وكان له سيف يسمى البالة فلا يكاد يخليه يوماً من إراقة دم وإذا لم يقتل أحداً يقول إن البلة جاعت فيقتل من يعرض له، وله حروب مع الجزائريين كانت الدائرة فيها عليه «وعلى الباغي تدور الدوائر» ولم يستقم له حال إلى أن أفتك به إبراهيم الشريف بمواطأة من أمراء الجند وذلك في محرم سنة 1113هـ وأرسل من قتل بقية آل مراد وكانت مدته ثلاثة أعوام وأربعة أشهر وانقرضت بانقراضه دولة آل مراد وكانت مدتها ألف شهر.

تنبيه: اعلم أن الخلق عيال الله ومتى استعمل على الرعية الأراذل والسفهاء وأهل البطالة والإعلان بالشهوات كان ذلك داعياً إلى فساد نياتهم وضعف ديانتهم وانهماكهم في شهواتهم. في سراج الملوك: أقوى الأسباب في إصلاحهم أن يستعمل عليهم الخاصة منهم وذوي الأحكام الراجحة والمروءات القائمة والأذيال الطاهرة فمتى كانت رياسة العامة بيد سراتهم حصلت سعادتهم:

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وفيه: إن أدعى خصال السلطان إلى صلاح الرعية وأقواها أثراً في تمسكهم بأديانهم وحفظهم لمروآتهم إصلاح السلطان نفسه وتنزهه عن سفاسف الأخلاق وبُعده عن مواضع الريب وترفيع نفسه عن استصحاب أهل البطالة والمجون واللعب واللهو والإعلان بالفسوق.

إذا غدا ملك باللهو مشتغلا ... فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة ... لما غدا وهو برج اللهو والطرب

رجوع وانعطاف

لما أفتك إبراهيم الشريف بمراد بايعه رؤساء الأجناد وقدم الحاضرة وتم له لأمر وجاءه تقليد منصب الباشا وكان كاهيته المولى حسين بن علي تركي وله حروب مع الجزائريين وغيرهم وأخيراً هزموه وأسروه فكانت ولايته ثلاثة أعوام وشهرين وكانت سيرته أولاً حسنة ثم طفق في ظلم الرعية فذبح أبناءهم ونساءهم واستصفى أموالهم وكاد أن يستأصل العرب وإبلهم وخيلهم لشدة بغضه لهم ولظلمه لم تطل مدته ولو دامت لأهلك الحرث والنسل، ومعلوم أن الظلم إذا دام دمر والعدل إذا دام عمر. قال أبو العتاهية:

أمـــا والله إن الـــظــلـــم لـــوم ولـكـن الـمـسـيء هـو الـظـلـوم
إلـى ديّـان يـوم الـديـن نـمـضـي وعـنـد الله تـجـتـمـع الـخـصـوم
سـل الأيـام عـن أمـم تـقـضـت فـتـخـبـرك الـمـعـالـم والـرسـوم

ولما وقع بإبراهيم الشريف ما ذكرناه وقع الاتفاق على تولية كاهيته حسين بن علي تركي وقبلها بإلزام بعد تمنع وتمت له البيعة في ربيع الأنور سنة 1117هـ. كان والده علي تركي وبه يلقب قدم من جزيرة كندية إلى الحاضرة في أوائل دولة بني مراد فولاه قيادة أزمة الأعراب وكان من أهل الكفاءة والنجدة وتوفي سنة 1113هـ ونشأ ابنه المذكور في خدمة الأمراء المراديين وتقلد الولايات الجليلة وتسنم الخطط الرفيعة كخطة خزنة دار وكاهية الخلافة وولاية الأعراض والجريد وهو باني الملك الحسيني جعلها الله كلمة باقية في عقبه أبد الآبدين. توارث الملك بنوه كابراً عن كابر إلى هذا الوقت على الترتيب الآتي بيانه وله حروب مع القائمين عليه كان الظفر حليفه ورسخت قدمه وكانت أيامه مواسم ثم ثار عليه كفيله ابن أخيه علي باشا بن محمد بن علي تركي. كانت ولادته سنة 1101م فتبناه عمه الأمير المذكور وأحسن تربيته وتهذيبه وليس له إذ ذاك أولاد وأولاده أمير أمراء الأمحال سنة 118هـ وزوّجه ابنته وأجراه مجرى الأولاد إلى أن وهب الله له ولياً من لدنه يرث ملكه فولد له المولى محمد باي ولما بلغ من العمر خمسة عشر عاماً أولاه باي الامحال وأولى ابن تربيته باشا فأنف علي باشا من ذلك وهرب هو وابنه يونس إلى وسلات وذلك سنة 1140هـ وخرج عمه لقتال آل أمره لفراره مع ابنه للجزائر وساءت حاله ثم أمده صاحب الجزائر بعسكر قدم به سنة 1147هـ ولما قدم هذا العسكر الحاضرة خرج الأمير بعسكره ووقع القتال بين العسكرين آل الأمر بانهزام الأمير وفراره إلى القيروان ولحق به أبناؤه واعتصموا بها ودخل غالب بلاد الساحل في طاعتهم ودامت الحرب بينهم وباشر أكثرها يونس باي ولما ضاق الخناق على أهل القيروان بطول الحصار خرج الأمير منها بمن بقي معه وبأثر خروجه استشهد وذلك في صفر سنة 1153هـ وحمل ودفن بتربته بالحاضرة وأما أبناؤه فإنهم توجهوا للمغرب وسيأتي خبرهم وهذا الأمير هو الذي أحيا رسوم العلم بعد إعفائها وأيقظ أجفان طلبته بعد إغفائها بالتفاته إلى أهل العلم بالصلات المتوالية والإكرام لهم والتعظيم والمجالسة وله في التزام الأحكام الشرعية قدم راسخة يحمل العامة والخاصة عليها فيما يجري بينهم من المعاملات وكانت أيامه كالخصب بعد الجدب والأمن بعد الرعب والسلم بعد

الحرب. سعدت المملكة وأهلها به وامتلأت أيديهم بالمكاسب فأثاروا الأرض وعمروها وأغرى عن العمل ما قوي به الأمل ووقع التنافس في الصنائع وغيرها مما هو محمود والناس على دين ملوكهم، وفي أيامه كان سوق العلم نافقاً والعلماء الفحول كثيرون منهم الشيخ محمد زيتونة المذكور كان يبعث إليه ويستشيره فكان إذا أتاه يخرج إليه لتلقيه خارج البيت ويأخذ بيده ويقوده ويجلسه حذوه ولا يحضر معهما ثالث في الغالب، ومن مآثره الجليلة إحياء مدينة القيروان ومساجدها وزواياها وبناء مدرسة النخلة والمدرسة الحسينية وجامعه الشهير، وأول صلاة أقيمت به ظهر يوم الأحد رابع عشر شوال سنة 1129هـ وأنشأ مدارس بصفاقس ونفطة والقيروان وفسقية الملاسين وغير ذلك مما هو كثير وقد ذكرت ترجمته مفردة ومضافة وأتى على أكثرها أبو عبد الله محمد سعادة في كتابه المسمى بقرة العين في فضائل الأمير حسين والمؤرخ الشيخ حسين خوجة المتوفى سنة 1169هـ في تاريخه بشائر أهل الإيمان والشيخ عبد الرحمٰن الجامعي في الدرر المديحية في الدولة الحسينية والوزير حمودة بن عبد العزيز في باشيه قال فيه: قد ألمّ أبو عبد الله محمد الوزير السراج في حلله السندسية بأخبار المولى حسين بن علي باي بلغ فيه إلى سنة 1144هـ غير أن الجزء الرابع أحرقه علي باشا لما اشتمل عليه من أن القصد منه في قيامه على عمه بجبل وسلات فلا يوجد منه عين ولا أثر. انتهى.

وفي الاستطلاعات البريزية اتفق لي أني تذاكرت مع أحد علماء باريز في التواريخ العربية المختصة بالمملكة التونسية ومنها تاريخ الوزير السراج وأنه لا توجد منه نسخة كاملة عندنا لوقوع إحراق الجزء الأخير ولما ذكرت له ذلك أطلعني على ديوان كتب مكتبة المونيك في البافرة من ألمانية فإذا به نسخة تامة مؤلفة من أربع مجلدات.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء سعيد الشريف ومحمد قويسم ومحمد الغماد ومحمد فتاتة وعلي النوري وعبد العزيز الفوراتي وإبراهيم الجمني ومحمد زيتونة والوزير السراج ومحمد الخضراوي.

الطبقة الرابعة والعشرون

لما بلغ أهل الحاضرة انهزام الأمير الباشا حسين في الواقعة التي قدمنا ذكرها بايعوا ابن أخيه الأمير الباشا علي باي في صفر سنة 1148هـ ولما استقل بالأمر أرهف الحد وحكم السيف في شيعة عمه واشتدت سطوته وعظم سلطانه وصادر

الأمة بالمال الكثير وعرضت في مدته محاربات فاز فيها بالظفر ووقعت بينه وبين دولة فرنسا وحشة آلت إلى صلح، وفي سنة 1159هـ قدم الإخوة أبناء الأمير حسين من الجزائر ومعهم محلة أميرها باي قسنطينة إلى الكاف وامتدت أعناق الآمال إلى الإسعاف ووافتهم نجوع العرب بالمدد وبالرجال والعدد لولا ما غدر به أمير المحلة فردها بدون كبير قتال وغره في ذلك ما وصله من المال وتفرقت جموع الحاشدين وأسفوا من شماتة الحاسدين ومات من شدة الأسف أحد أبناء الأمير محمود وكان بطلاً مقداماً شهماً هماماً ثم تفرقت كلمة أبناء علي باشا بسبب الحسد وأدت هاته التفرقة إلى حصول وحشة بين الأمير يونس ووالده وبسبب ذلك باشر لسعي بنفسه بمعاضدة ابنه سليمان ويونس نبذ بالعراء ثم قام على أبيه وانقسم الناس إلى قسمين قسم مع الباشا وقسم مع ابنه يونس وقامت الحرب على ساق داخل الحاضرة وصوبت المدافع على الدور والمساجد والجوامع ونال الناس الرعب من كور المدافع وأصابت قنبلة سارية من سواري جامع الزيتونة وعظم الخطب وآل الأمر إلى انخذال يونس وفراره إلى قسنطينة ثم إن ثالث الإخوة محمد فوق سهمه لأخيه سليمان لما خشي من وراثته الملك بعد أبيه لما يرى لأبيه من إيثاره عليه لما فيه من الأهلية فعاجله بالإطعام فمرض أسبوعاً وفاضت نفسه على حين لم يكن والده متوقعاً ذلك فتوفي مسموماً سنة 1168هـ وأعلم أبوه بصنيعه بأخيه وتحقق أن الله أذاقه بأس ولده محمد لإعدامه لعضدي نصرته يونس بالفرار وسليمان بالممات وكان ذلك من مبادىء انتقام الله منه والله عزي ذو انتقام ولازمه الأسف. وهذا الباشا كان مع سفكه للدماء وامتهانه للخاصة وإضراره للمملكة بمظالمه معدوداً من العلماء وله شرح مهم على تسهيل ابن مالك ويقال إن شيخه أبا عبد الله الخضراوي كانت له يد في تأليفه وقرظه علماء عصره منهم أبو الحسن علي البارع بقوله:

لله شـرح لـلأمـيـر مـوضـح ... لـم يـتـصـف بـصـعـوبـة الـتـلـويـح
سـهـل الـتـنـاول بـالـخـفـاء مـصـرح ... قـد فـاق فـي الـتـسـهـيـل والـتـصـريـح
فـإذا افـتـقـرت إلـى كـتـاب مـوضـح ... فـكـتـابـه الـمـغـنـي عـن الـتـصـريـح

وله ولوع بجمع الكتب واكتسابها وله مآثر جليلة منها تربته التي بالقشاشين ومدرسته الباشية والسليمانية نسبة لولده سليمان وقدم لمشيختها الشيخ محمد الغرياني وهاته الأبنية حول الجامع الأعظم ومدرسة بير الأحجار ومدرسة حوانيت عاشور وقدم لمشيختها الشيخ عبد الله السوسي وأوقف على جميع ذلك أوقافاً وجعل جرايات للشيوخ والتلامذة إعانة على طلب العلم الشريف واعتنى بتحصين البلاد

وجهز الثغور وأجرى السقايات العظيمة النفع وهدم الحانات ومنع بيع العنب لمن يعصره خمراً وبنى مباني ضخمة بباردو ولما امتلأ مكياله ولاقى من عقوق بنيه ما صنعه لعمه جزاء وفاقاً وقيدته هموم فقد ولديه وصارت النفوس شعاعاً من تصرفات ابنه محمد باي حنوا إلى بني ملكهم حنين الغريب إلى الوطن وكاتبهم الكثير من أهل الحل والعقد يحثونهم على القدوم للقيام بشأنهم فقدموا ومعهم محلة من الجزائر بما انضم إليهم من العشائر حتى نزلوا قبلي الحاضرة ولج الباشا وابنه محمد في القتال حتى انهزما معاً وقتل محمد قرب الملاسين وأسر الباشا ثم قتل بعد أيام في ذي الحجة سنة 1169هـ وقد استكمل استقصاء خبره وخبر عمه وأبناء عمه المؤرخ الشيخ محمد بن يوسف الحنفي الباجي في تاريخه المسمى المشرع المكلي بدولة أبناء علي تركي ودفن بتربته ورثاه كاتبه الشاعر المفلق محمد الورغي بقوله:

مضت دولة الباشا علي كانه ... من الدهر يوماً في البرية ما عاشا
أتته المنايا وهو في عظم قوة ... وجيش كثيف مثله قط ما جاشا
فصار دفيناً بعدما كان دافناً ... فقلت وقد أرختـه دفن الباشا

وبأثر ذلك دخل الحاضرة الأمير الباشا محمد بن حسين باي وأخوه علي في يوم مشهود خفقت فيه الرايات والبنود في ذي الحجة سنة 1169هـ فهرعت الخاصة والعامة إلى بيعتهما واطمأنت الأنفس وقرت العيون بعود الدر إلى معدنه وجلس محمد على كرسي المملكة فزانه بعدله وإحسانه وكان من سمحاء الملوك وصدور الأدباء وفحول الشعراء له ديوان شعر بديع وقصائد نبوية وتوسلية تدل على حسن وثوقه بالله وأوليائه أما قصيدتاه الميمية والقافية فهما غاية في الإبداع وقد سمى أولاهما محركات السواكن إلى أشرف الأماكن ومطلعها:

هل زورة تشفي فؤاد متيم ... يا أهل مكة والحطيم وزمزم

وشرحها قاضي محلته وأستاذه الشيخ محمد بن محمد الشافعي الشريف بجزأين ضخمين التزم في شرح كل بيت منها خمس فنون اللغة والنحو والمعاني والبيان والبديع فهو شرح مشحون علماً وأدباً وأما القصيدة القافية فشرحها الشيخ صالح الكواش وقيل ابنه محمد الكواش وكانت أيامه على قصرها مواسم بواسم وتوفي في جمادى الثانية سنة 1172هـ ورثاه الشيخ محمد الورغي المذكور بقصيدة مطلعها:

هذا ضريح للإمام الأمجد ... فخر الملوك السيد ابن السيد

وآخرها:

بشرى له إذ جاء في تاريخه يا حسن حور زينت لمحمد

وأطال الثناء عليه الوزير حمودة بن عبد العزيز في باشية بما هو أهله وبعد انتقاله للدار الآخرة اجتمع أهل الحل والعقد على بيعة أخيه الأمير الباشا علي ولما تمت له أقر رجال دولة أخيه على مناصبهم وقرر الأمور على ما كانت عليه واستعمل من الرفق والحنان ما جلب به جمع القلوب واصطفى بمجلسه العلماء ودخل في زمرتهم ما يوسعهم براً وإكراماً مؤدياً لحقوق احترامهم الواجب مع ما له من الذكاء والمشاركة في العلوم وحب المحاورة وملازمة صحيح البخاري بنفسه وحصل على إجازات عامة من الشيخ عبد الحفيظ تلميذ الشيخ أحمد بن نصر وغيره وبالجملة فإنه كان ملكاً شجاعاً عاقلاً ذا صيانة وعفاف ونجدة وحلم وكرم أقام في دولته سوق العلم والأدب فكثرت فيه الشعراء وتنافسوا في مدائحه بدواوين من الشعر وأولاهم من الجوائز والصلات ما هو كثير أفرد له وزيره أبو محمد حمودة بن عبد العزيز تأليفه الباشي في مجلد ضخم جمع فيه مفاخر مملكته ودولته واستوفى من خصاله الحميدة وقصائد مديحه ما لم يخطه غيره من المؤرخين وفي سنة 1173هـ ثار عليه إسماعيل ابن الأمير يونس وتحصن بجمال شيعتهم من قبل وكانت له حروب معه شاقة بجمال ووسلات وآل الأمر إلى فراره وانحلال عرى عصابة أهل وسلات وبعدما دانوا له بالطاعة فرقهم على قرى إفريقية وأصبح جبلهم خاوياً على عروشه من يومئذ إلى هذا العهد وأما إسماعيل المذكور فإنه فر إلى الجزائر وتوفي هناك سنة 1184هـ ووقع بينه وبين دولة فرنسا حرب ثم وقع صلح بينهما، من مآثره الأثيرة الخالدة مدرسته الشهيرة وتربته حذوها وهي مدفن آل هذا البيت إلى هذا العهد ومنها تكيتان مشهورتان للفقراء والمساكين وبناء المحكمة الشرعية والمياه العذبة التي أجراها للحاضرة وبناء سور القيروان ونظم مكتبة بالكتب أنيقة بمسجد دار الباشا حصل بها النفع وغير ذلك ومن مآثره بالمنستير الإصلاحات بالجامع الأعظم وتأسيس الجامع الحنفي وبناء سور الربط لجوفي وبناء مقام الإمام المازري بعد نقله من مدفنه الأول وإقامة مدرس به وبناء مقام أبي علي يونس بن السماط بعد نقله أيضاً من مدفنه الأول وفي أيامه وقع إبطال تولية القضاء من الحضرة العلية ونصب قاضياً حنفياً من الحاضرة وقاضياً مالكياً يفصلان ما خف من القضايا ويراسلان بما أشكل عليهما المفتين من المذهبين ويعقد في كل أسبوع مجلساً لفصل تلك القضايا

ومن مفاخره تعطيل الخمر والتنكيل بالخمارين وهدم الحانات وإجراء الصدقات وعهد بالولاية لابنه حمودة وراسل الدولة العلية في ذلك وجاءته الخلعة والتقليد في محرم سنة 1191هـ وتمت له البيعة وتوفي آمن السرب عالي الكعب سنة 1196هـ.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء حمودة الريكلي ومحمد سعادة ومحمد الشحمي وقاسم المحجوب ومحمد الغرياني ومحمد الورغي ومحمد بن سعيد ومحمد الطوير.

الطبقة الخامسة والعشرون

لما تخلى المولى علي باشا عن الملك لابنه حمودة بايعه أهل الحل والعقد في التاريخ المذكور فاستقام أمره ورسخت قدمه وكان والده بلغ الغاية في تربيته وتهذيبه وتأهيله للإمارة على يد فحول من علماء دولته عارفين بالرياسة والسياسة منهم وزيره حمودة بن عبد العزيز فنشأ في دوحة الإمارة شهماً ورمى في كل غرض من أغراضه سهماً فكان في سلسلة الجيد الحسيني واسطة عقد ودرة يتيمة ذا همة باذخة وحال شامخة حازماً حامياً للذمار غير متحمل للعار خبيراً بسياسة البلاد نصوحاً لها حسن التدبير محباً للعلماء والصالحين يباشر المهمات بنفسه مقتصداً في شخصياته حافظاً لأموال المسلمين عن غير مصالحهم لا تأخذه في الله لومة لائم وحارب البلنسيان سنة 1204هـ ثم انفصل معهم على صلح وأرسل وزيره يوسف صاحب الطابع إلى دار الخلافة فأحكم وصلته معها سنة 1210هـ وفي سنة 1218هـ لما كانت مجاعة كبرى بإفريقية وجه العالم الطائر الصيت الشيخ إبراهيم الرياحي لحاضرة فاس بمكتوب إلى سلطانها الشريف المولى سليمان في استمداد الميرة فأعظم السلطان مقدمه وأمده بمطلبه. وتقدمت الإشارة إلى ذلك في ترجمة هذا الشيخ وكانت له حروب مع الجزائريين آلت بانهزام جيشه، ولما بلغه خبر الهزيمة هاله الأمر فنهض رجال دولته كالوزير يوسف صاحب الطابع ومن تابعه من الوجوه كالهمام محمد الجلولي وهوّنوا عليه الخطب وجهزوا في الحين من أموالهم محالاً أخرى وخرجت تلك الأمحال لنظر وزيرهم المذكور في احتفال مشهود في أفخم شارة وأحسن زي والتقى بجيش الجزائريين وبعد قتال انتصر هذا الوزير واستولى على محلتهم بما حوت من الذخائر والنفائس ورجع مؤيداً منصوراً غانماً في ربيع الأنور سنة 1222هـ وزينت البلاد وتوالت الأفراح ومن ذلك اليوم نزعت البلاد أطمار مهانة الجزائريين ولبست ثياب العز وأصبحت رافلة في جلابيب أمنها وهو

الذي حكّم المذهب المالكي في ثبوت الأهلة وكان يشق على المتعمقين من مقلديه تقليد المذهب الحنفي حتى كانوا يصومون ويفطرون سراً إذا لم يكن ثبوت ذلك على قواعد مذهبهم وهم السواد الأعظم قال: كلهم على هدى من ربهم ورحمة وحسبنا تقليد إمام دار الهجرة لا سيما وأهل مذهبه هم السواد الأعظم في المملكة فأمر القاضي المالكي بمباشرة ذلك ولم يزل العمل جارياً بذلك إلى هذا العهد، وله مآثر كثيرة كالأبراج الضخمة والقشل الكثيرة داخل الحاضرة وخارجها والسوق القريب من سوق التركي، وقصره المطل عليه البالغ الغاية في الاحتفال وهو من أفخم الآثار يباهي به في الأقطار، وكانت له أساطيل لنكاية العدو في غاية المنعة وبالجملة فإن هذا الأمير تصرف في المملكة تصرف الأب الشفوق على أبنائه، وأحيا لها ذكراً وفك لها أسراً. وتوفي عالي الكعب عظيم الجاه بعيد الصيت فجأة ليلة الجمعة مفتتح شوال سنة 1229هـ وفي يوم الجمعة الموافق ليوم المولد النبوي من السنة أقيمت صلاة الجمعة بجامع الحلفاوين الذي أنشأه وزيره أبو الخيرات يوسف صاحب الطابع وحضر هذا الأمير الصلاة به في وجوه دولته وكان يوماً مشهوداً ووضع به أربع خزائن من نفائس الكتب العلمية في يوم كان جامع الزيتونة لا كتب به وأوقف عليه وعلى المدرسة المؤسسة حذو هذا الجامع أوقافاً طائلة وله غير ذلك من الآثار الخالدة والمرافق الجليلة والسبل النافعة والصدقات الجارية مع ما اشتهر به من محبة العلماء والصالحين ومات شهيداً في خبر طويل في صفر سنة 1230هـ على عهد المولى محمود باي الآتي ذكره وفي ليلة العيد التي مات فيها المولى حمودة تمت البيعة لأخيه عثمان باتفاق من أهل الحل والعقد وكانت أيامه على قصرها أيام خصب ورخاء واستشهد بعد خلعه ليلة عاشوراء سنة 1230هـ وبويع لابن عمه الأمر محمود باشا ابن المولى الباشا محمد ابن المولى حسين بن علي صبيحة الليلة المذكورة وباشر الأمر برفق وأمنت في أيامه السبل ودانت لطاعته القلوب وكان مفضالاً ذا حلم وحنان محمود الأخلاق طيب الأعراق سمحاً مشتهراً بالكرم وفعل الخير إلا أن الإمارة وافته على كبر سن مع المرض فمال للراحة وفوض الأمر لبنيه. ومن آثاره البيت الذي أنشأه بقصر باردو الذي لم يسبق نظيره في البلاد جعل سقفه من البلور المعقود بالصفائح المذهبة بإتقان بديع وألبس حيطانه الرخام المنمق المرونق على أبدع شكل وأجمل منظر وأنفق الأموال العظيمة في جلب الأقوات الكافية لسد خلة المملكة في مجاعة عام ست وثلاثين وذلك عقب الطاعون الفتاك الذي دام أكثر من عامين. وكانت مدته في أمن وسرور إلى أن توفي في رجب سنة 1239هـ بعد أن عهد بالإمارة لابنه المولى حسين باشا وتمت له البيعة بعد وفاة

والده وقام بالأمر أحسن قيام. ومن الحوادث التي كانت في أيامه إمداد الحضرة السلطانية بالعساكر والميرة. إعانة على قتال العدو المحارب لها. ومنها عقد صلح مع دولة الصاردو بعد وقوع الوحشة. وفي محرم سنة 1246هـ استولت فرنسا على الجزائر ثم على باقي الثغور شيئاً فشيئاً وقدم بعض أهلها لحضرته فأوسع لهم الكنف وأحلهم على الغبطة والأمان وفي سنة 1247هـ رتب الجند النظامي وأحكم أساسه ورتب قوانينه وابتنى لسكناه قشلة المركاض وهي من المباني الضخمة، وفي السنة وافته الخلعة النظامية السلطانية وكان لباسه لها في يوم مشهود ومحفل عظيم وهو المجدد لرباط المنستير وفي أيامه وقع مسك الغيث وجزع الناس من ذلك وطاشت أفكارهم ولما رأى هذا الأمير شدة الحال أمر العلماء بقراءة صحيح البخاري بجامع الزيتونة فاجتمعوا وفرقوا أسفاره في جماعتهم وختموه في يوم واحد وهو أول مَن سنّ هاته السنة وجرى العمل إلى هذا الوقت بقراءته على نحو ما ذكر عند الشدة. وكان شهماً هماماً وقوراً محباً لمعالي الأمور محافظاً على شارات الملك كريم النفس لطيف الأخلاق شجاعاً كثير العطايا أمنت في دولته العباد والبلاد، توفي في محرم سنة 1251هـ.

تنبيهات

الأول: كان في عهد الأمير المولى محمود باشا المذكور طاعون جارف دام أكثر من عامين مات فيه في بعض الأيام آلاف ثم أعقبته مجاعة. وللدول في شأن الطاعون قوانين جرى بها العمل براً وبحراً لاتخاذ ما يلزم لقطع عدواه على زعمهم وتعرف بالكرنتينة ووقعت محاورة في أن ذلك بين أبي عبد الله محمد المناعي المذكور بهاته الطبقة وبين العلامة الهمام العمدة الإمام محمد بيرم شيخ الإسلام الثاني فهو يقول بالجواز والمناعي يقول بالمنع وألّف كل رسالة حافلة في الاستدلال على رأيه بالنصوص الفقهية. والحاصل في ذلك أن العلماء افترقوا في هذا الطاعون إلى قسمين: قسم يرى الاحتفاظ وعدم الخلطة وربما ساعده بعض ظواهر الشرع العزيز منها «فرَّ من المجذوم فرارك من الأسد» مع دليل التجربة فإن غالب من تحفظ حفظه الله مع اعتقاد أن المؤثر هو الفاعل المختار وكان هذا ينظر إلى رأي سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإلى هذا مال شيخ الإسلام. ومنهم مَن لا يرى هذا الاحتفاظ وربما ساعده بعض ظواهر الشرع العزيز كقوله: ﴿لا عدوى﴾ ويرى التسليم إلى ما جاء في القدر. ومن القدر لا يغني الحذر. وهذا رأي سيدنا أبي عبيدة رضي الله عنه وإليه مال المناعي. وهاته المحاورة أشار إليها الشيخ رفاعة الطهطاوي

في صدر رحلته وتعرض للمسألة مؤلف الاستقصاء في استقصائه ومال إلى المنع، كما تعرض لها الشيخ محمد السنوسي في استطلاعاته. والشيخ رفاعة المذكور اجتمع به الشيخ أحمد بن أبي الضياف في باريز سنة 1263هـ حين توجه لها مع الأمير أحمد باشا باي.

الثاني: وقعت محاورة أيضاً بين هذين الشيخين في كورية الأرض وبسطها فالبسط للمناعي والكورية لخصمه ورجح بأدلة ذكروها، وهذا الخلاف مبسوط في روح المعاني عند قوله عزّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ وقد مال الكثير من المتأخرين إلى الكورية ومنهم الشيخ محمد الكنتاوي بأرض أزوات بالمغرب من بلاد تنبكتو وكان من أعلام العلماء الأئمة الفضلاء، ألف مختصراً في فقه مالك ضاهى به مختصر خليل وألفية ضاهى بها ألفية ابن مالك، وله مصنفات في كثير من العلوم الظاهرية والباطنية وله أوراد وأحزاب كأحزاب الإمام الشاذلي. مات سنة 1229هـ وخلفه حفيده المسمى باسمه.

الثالث: اعلم أنه كان للأمراء الدايات نفوذ عظيم ولبعضهم آثار مجيدة خالدة من أوائل المائة بعد الألف إلى أواخرها وتقدم ذكر بعضهم ثم انحط نفوذهم، وإليك أسماءهم على نسق تتميماً للفائدة ناقلاً ذلك من كناش بخط الإمام الهمام شيخ الإسلام بيرم الرابع ونصه ببعض تصرف: هذا ترتيب الدايات من حين الفتح العثماني. اعلم أن ذلك الفتح لست مضين من جمادى الأولى سنة 981هـ على يد سنان باشا وعندما أجمع على العود إلى الروم رتب بالبلد أربعة آلاف من العسكر وانتخب منهم أربعين رجلاً وجعل نظر كل مائة إلى واحد من الأربعين واستمر الأمر على ذلك الترتيب إلى سنة 999هـ وقد ظهر من أولئك الأربعين جور عظيم فثار عليهم الجند ووقعت مقتلة عظيمة ثم حصل الاتفاق على تقديم واحد يتولى الأمر ويلقب بالداي فأول مَن ولي ذلك إبراهيم داي رودسلي فمكث نحو الخمس سنين ثم سار إلى الحج وعاش إلى ما بعد الستين وألف. وولي بعده موسى سنة 1009هـ فمكث سنة وذهب للحج فأرسل العسكر إليه أن لا يعود وتولى عثمان دايا بعده وعلى عهده كان قدوم الأمم الجالية من الأندلس وذلك في سنة 1017هـ وهو أول مَن انفرد بالكلمة من الدايات، ومن مآثره قنطرة على طريق بنزرت وتوفي سنة 1019هـ. وتولى بعده يوسف دايا ومآثره شهيرة توفي في 23 رجب سنة 1049هـ. وتولى بعده أسطى مراد وهو من الأعلاج وله مآثر شهيرة في البحر إذ كان من رؤسائه وهو المحدث لمرسى غار الملح لحصار قليبة وتوفي سنة 1050هـ، وتولى بعده أحمد خوجة وكان قبل ولايته رئيس خوجات الديوان ومن مآثره البرج الثاني

بحلق الوادي وتوفي سنة 1057هـ وهو صاحب التربة أمام مسجد سيدي علي بن زياد، وتولى بعده الحاج محمد لاز، ومن مآثره قنطرة قرب الشيخ أبي حميدة على طريق القيروان، توفي في 13 شوال سنة 1063هـ وهو صاحب التربة بالقصبة الشهيرة بتربة لاز، وتولى بعده الحاج مصطفى لاز وفي أيامه هجم الإنكليز على غار الملح وأحرق مراكب كانت بها ثم وقع صلح معه وبسبب ذلك بنيت أبراج به وجابية، ومن مآثره المسجد المعروف بمسجد لاز وتوفي في 10 ذي الحجة سنة 1075هـ. وتولى بعده الحاج مصطفى قركوز وكان ظلوماً وعزل لخلل بعقله في ذي القعدة سنة 1076هـ ودفن داخل القصبة خوفاً عليه من أولياء الذين قتلهم أن يخرجوه من قبره. وتولى بعده الحاج محمد أغلي وهو محبس الكتب على مفتي الحنفية وعزل سنة 1080هـ، وتولى بعده الحاج شعبان خوجة وقبل ولايته كان رئيس خوجات الديوان وعزل في ذي الحجة سنة 1083هـ وتوفي بزغوان وجيء به ودفن بتربته المقابلة لمسجد الطراز. وتولى بعده الحاج محمد منتشالي ووقع خلعه بعد أحد عشر شهراً وأرسل لزغوان وبها توفي وجيء به ودفن بدريبته المشهورة. وتولى بعده الحاج علي لاز ووقعت بينه وبين الأمير مراد بن حمودة باشا فتنة عظيمة تعرف بواقعة الملاسين فكانت الغلبة لمراد وقتل الداي في منتصف صفر سنة 1084هـ فكانت مدته ثلاثة أشهر، ومن ذلك التاريخ استقل مراد باي وصار الداي يولي من قبل الباي، فولى مراد دايا الحاج مامي المعروف بالجمل وهو صاحب التربة بزنقة الخمسة بسيدي القبة وعزل في فتنة الأميرين الأخوين محمد وعلي ابني مراد في أواخر ذي الحجة سنة 1088. وتولى بعده الحاج محمد بشارة وكان رئيس خوجات الديوان وبعد ثلاثة أشهر عزل وأعيد الحاج مامي الجمل فمكث أياماً واضطربت عليه الأحوال وتكررت غلبة كل من الأخوين محمد وعلي وتعاقب العزل والنصب فسلم الحاج مامي والتجأ إلى زاوية الشيخ بلغيث القشاش وأخرج منها بصورة أمان وسير به إلى علي باي بنواحي الكاف وكان ذلك آخر العهد به، وتولى أوزن أحمد وبعد ثلاثة أيام ظهر أن علياً باي نصب دايا من جملة العسكر الذين معه بالمحلة وهو محمد المعروف بطباق، كان قبل ولايته من رؤساء البحر فلما سمع به أوزن أحمد خلع نفسه وذلك سنة 1088هـ ثم عزل علي باي محمد طاباق سنة 1092هـ وقتله خنقاً وولى أحمد شلبي في شوال سنة 1093هـ فسار أولاً برفق ثم رام الاستبداد بالأمر لما رأى من الفتن بين الأخوين وإذ ذاك اصطلح الأخوان وظهرت بينهما وبين الداي محاربات فكانت الغلبة له فاستنجد الأخوان بالجزائريين وهو أول استنجاد وقع من ملوك تونس بهم فحاصروا الداي المذكور بتونس مدة تقرب من سنة إلى أن وقع فراره ثم

إمساكه وحبسه ثم قتله في رجب سنة 1097هـ خنقاً وفي اليوم قتل الأمير علي باي وتولى دايا الحاج بقتاش خوجة وكان رئيس خوجات الديوان وهو صاحب التربة المجاورة للسلسلة ببطحاء القصبة، وبعد مدة من ولايته قدم عليه وظيف الباشا لك من جناب السلطنة فجمع بينه وبين الداي لك وبقي على ذلك إلى أن توفي سنة 1105هـ وتولى حفيده علي دايا وسار سيرة حسنة وبقي عليها إلى أن وقع قتال بين الجزائريين وبين محمد باي ببحيرة الكاف وكانت الهزيمة عليه وذلك في 5 ذي القعدة سنة 1105هـ وفر الأمير إلى تونس فوجد الداي المذكور ركب البحر فاراً إلى الروم وتولى مكانه إبراهيم خوجة وأعاد الجزائريون محاربة محمد باي وحاصروه بتونس حتى فر منها وتولى صهره محمد بن شكر الإمارة وعزل الداي المذكور وولى مكانه الحاج محمود فمكث ثلاثة عشر يوماً وعزل وولى مكانه محمد طاطارا فمكث خمسة أشهر وتغلب محمد باي على ابن شكر وقتل طاطارا وولى مكانه يعقوب وكان قد طعن في السن فعزله وولى مكانه محمد خوجة رئيس خوجات الديوان وكانت ولايته في ربيع الأول سنة 1107هـ وعزله مراد المعروف ببوباله في رمضان سنة 1110هـ وولى محمد آغة الصبايحية ثم عزله في ربيع الأول سنة 1112هـ وولى مكانه محمد قهواجي وعزله إبراهيم الشريف سنة 1114هـ وولى مكانه قرة مصطفى وهو صاحب التربة أمام دار إسماعيل كاهية بحومة يوسف داي، ثم عزله ولقب نفسه بالوالي. ولما ولى الأمير حسين بن علي في 27 ربيع الأول سنة 1117هـ ولي مكانه صاري محمد خوجة وهو المعروف بالأزعر فوقعت بينه وبين الأمير حسين بن علي مخالفة أفضت إلى قيام العسكر على الداي وعزله وقتله وذلك في 17 رمضان سنة 1117هـ؛ فولى مكانه قرة مصطفى المذكور وتوفي في تلك السنة وبعده الحاج علي سافر وهو صاحب الدار الكائنة برأس الشبارلية وقد أخبرني الجد أنه كان قبل الولاية إماماً للأمير حسين بن علي حتى إنه كان يلبس وهو داي فرجية الفقهاء أحياناً وتولى بعده الحاج محمود في سنة 1153هـ وبعده الحاج علي سنة 1154هـ وبعده عمر ولم تطل مدته وبعده محمود وتوفي أواخر صفر سنة 1156هـ وبعده حيدر خوجة وبعده الحاج عبد الله وبعده علي سنة 1166هـ وتوفي سنة 1168هـ ودفن بالجلاز أمام تربة القلاشنة وبعده علي كردغلي ووقعت وقعة الجزائريين التي قتل فيها علي باشا وعزله محمد بن حسين باي وولى مكانه الحاج حسين المورالي وتوفي سنة 1173هـ ودفن بتربته بحوانت عاشور وولي بعده الحاج حسين قارة دنغزلي وهو والد الشيخ إبراهيم الشهير بولد لاغه المشهود له بالولاية ومدفنه ومدفن ابنه بالتربة قرب السبابطية وبعده مصطفى الشهير بالزغواني وبعده حسين بن محمد وتوفي سنة 1196هـ وبعده إبراهيم

بوشناق سنة 1199هـ ثم عزل سنة 1220هـ وبعده أحمد البوندي وعزل في محرم سنة 1237هـ وتوفي بعد عزله بثلاثة أيام ودفن بتربة بحوانت عاشور وبعده فيض الله وكان قبل ولايته آغة بيت المال وتوفي بعد عزله في شعبان سنة 1238هـ ودفن بتربة إبراهيم بوشناق وبعده عمر بن محمد وتوفي سنة 1247هـ ودفن بتربة الحجار وبعده حسن وتوفي فجأة في ربيع الثاني سنة 1248هـ ودفن مع الداي قبله وبعده مصطفى وعزل في جمادى الثانية سنة 1258هـ وبعده أحمد آغه. انتهى. وقد أتى على ذكرهم صاحب الخلاصة النقية انظره.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء حمودة بن عبد العزيز وصالح الكواش وعمر المحجوب وأخوه محمد ومحمود مقديش وحسن الشريف ومحمد المناعي وإسماعيل التميمي.

الطبقة السادسة والعشرون

لما توفي المولى الأمير حسين باشا تمت البيعة لأخيه المولى مصطفى باشا فابتدأ الأمر من حيث انتهى أخوه وأقر رجال الدولة على مراتبهم وكانت أيامه أيام سكون وهدوء وأمن وعافية وأعاد المجلس الشرعي إلى عادته من الاجتماع بحضرته يوم الأحد من كل أسبوع. وكان ذا ذهن وقاد وفهم مصيب لما يرد عليه من النوازل. وهو أول من لبس النيشان من بني المولى حسين فوافاه من الدولة نيشان أمير أمراء في شعبان سنة 1251هـ ومعه سيف محلى ولبسهما في يوم مشهود وهو أول من صاغ نيشان الافتخار ونقش عليه اسمه بحجر الديامنت وألبسه وزير الأمور الخارجية. وفي شعبان سنة 1252هـ استأذن الشيخ إبراهيم الرياحي في السفر لبيت الله الحرام وأسعفه لذلك حسبما تقدمت الإشارة لذلك في ترجمة هذا الشيخ. وتوفي هذا الأمير في عاشر رجب سنة 1253هـ وفيه تمت البيعة لابنه المولى المشير أحمد باشا باي وبمجرد ما تمت له البيعة شرع في إعادة شباب الدولة وتضخيمها وباشر بنفسه دقيق أمور الدولة وعظيمها ومهد الأحوال وجنّد الجنود وجبى الأموال وخلّد آثاراً ارتقى بها مرتقى شامخاً معلوماً باذخاً وجمع من العسكر النظامي ما يزيد على الثلاثين ألفاً وبنى لهم القشل والأبراج العظيمة وأسكنهم بها. وفي سنة 1254هـ أرسلت له الدولة العلية الخلعة السنية ونيشان المشيرية وذلك على عهد السلطان محمود خان فتلقى لباس المشيرية في موكب مشهود، وفي السنة جعل مرتباً لأهل المجلس الشرعي المالكي مثل المجلس الشرعي الحنفي وفي السنة توجه الشيخ إبراهيم الرياحي لدار الخلافة في مهم وتقدمت الإشارة إلى ذلك في ترجمة هذا

الشيخ. وفي سنة 1256هـ وجه عنايته للعلم الشريف وإعانة طلابه بما بقي أثره وكتب على صفحات الأيام خبره فاشترى كتباً كثيرة لها بال وأضاف لها كتب آله الموضوعة بخزائن أسلافه وأمر شيوخ المجلس الشرعي والعلماء بالحضور بجامع الزيتونة لقبولها ولما وصلت تولى العلماء تطبيقها على أسمائها وجعل برنامج لها ثم وضعت في خزائنها العشرين زين بها صدر الجامع على يمين المحراب وشماله وكتب على كل مجلد منها رسم تحبيسه وأباح للمنتفع به إخراج الكتاب من موضعه مدة عام فقط ورتب لها وكيلين يأتي كل أحد منهما إلى الجامع على التناوب لمناولة الطلبة ما يحتاجونه وفي رمضان سنة 1258هـ رتب ثلاثين مدرساً بهذا الجامع نصفهم من الحنفية ونصفهم من المالكية وعين لهم جراية من بيت المال كما رتب اثني عشر مدرساً ست حنفية وست مالكية هم دون الرتبة الأولى في المرتب على أن يقرىء كل واحد منهم بالجامع درسين في أي فن وفي أي وقت تيسر ومن تخلف من غير عذر شرعي لا يستحق المرتب أيام تخلفه إلا يومي الخميس والجمعة وشهر رمضان وأيام العيدين وجعل النظر في ذلك لشيخي الإسلام الحنفي والمالكي والقاضيين الحنفي والمالكي وعين لهم جراية من بيت المال بشرط أن يأتي كل واحد من الأربعة يوماً إلى الجامع لتحريض المتكاسل وكتب في ذلك منشوراً بالذهب وعلقه عند باب الشفا من الجامع وميز هؤلاء المدرسين بأن يأتوا في الأعياد مجتمعين يؤمهم كبير أئمة الجامع ويقبلهم بعد أهل المجلس الشرعي ولم يزل يوجه إليهم العناية حتى ظهر العلم وتجدد شبابه وسال سيله وعبّ عبابه وانفتح للاجتهاد بابه وظهر بالحاضرة أعلام جلة نجوم أهلة من حنفية ومالكية هم شموس وبدور تتجمل بهم المحافل والصدور. وفي ذي القعدة سنة 1262هـ توجه لباريس وكان الاحتفال به هناك عظيماً ورجع لتونس في محرم سنة 1263هـ وفي السنة بعدها منحت دولة فرنسا إدخال السلك البرقي للمملكة التونسية على شروط انعقدت بينهم في ذلك ولما وقعت الدولة العثمانية في الحرب مع الروس جهز لها آلافاً من العسكر النظامي بجميع لوازمهم وجهها إعانة لخليفة الإسلام على عهد السلطان عبد الحميد خان. وهو أول من اتخذ من ملوك هاته الدولة عمل المولد النبوي بإحياء ليلته والحضور لقراءته صباحاً بجامع الزيتونة في شارة عظيمة وحفل فخيم وهو عمل مشكور وكان شهماً حازماً ذا صولة عظيمة يعطي العطايا السنية ولم يزل في صولته ساعياً في تضخيم دولته إلى أن أصابه فالج ثم وافته المنية في رمضان سنة 1271هـ وانعقدت البيعة بوفاته لابن عمه المولى لمشير محمد ابن المولى حسين باشا ابن محمود باشا نشأ هذا في عز دولتي جده وأبيه. وفي ذي الحجة سنة 1272هـ رجعت عساكر

الجهاد الذين توجهوا لدار الخلافة الإسلامية فتلقاها بغاية البر والإنعام والمبرة والإكرام وأسقط على الرعية الكثير من الإداآت والضرائب وساعده البخت بحصول الخصب العظيم الذي بعد العهد بمثله واجتهد في تأمين الرعية في الحواضر والبوادي وحصل بذلك الاطمئنان واعتنى بالمجلس الشرعي فبنى دار الشريعة المطهرة وجعل الحكم فيها يومياً يحضر هناك القاضيان المالكي والحنفي ويحضر مع كل واحد منهما في كل يوم مفت من شيوخ مذهبه ويجتمع جميع أهل المجلس في كل يوم خميس وفتحه في الخامس عشر من ربيع الأنور سنة 1273هـ وهو الذي أمر بجلب ماء زغوان للحاضرة وإقامة مجلس بلدي بها وبنى بين قصور باردو قصراً تحار دونه الألباب أتى فيه من بدائع الأبنية بالعجب العجاب وهو الآن خزينة الآثار العتيقة والتحف المستظرفة ويعرف بالمتحف العلوي وهو أول من ضرب سكة الذهب وكانت قبل مسكوكات الفضة والنحاس لا غير وفي محرم سنة 1274هـ أصدر منشور عهد الأمان لسائر السكان في حفظ النفس والمال والعرض وعم بذلك أهل الملل الملك وجمع أعيان العلماء ورجال الدولة للمفاوضة في هذا العهد، وفي سنة 1276هـ صدر الإذن بتأسيس مطبعة لصحف الأخبار والكتب وكان شهماً ثبتاً حازماً بحاثاً على الرعية كثير العطايا سليم الطوية وتوفي في صفر سنة 1276هـ وانعقدت البيعة بعده لأخيه المولى المشير محمد الصادق باشا باي وأعمل الحزم في إنجاز مشروع أخيه بإتمام القوانين التي انبنى عليها عهد الأمان وجمع خاصة العلماء والأعيان فاستكملوا وضعها، وفي صفر سنة 1277هـ خرج من مملكته إلى الجزائر حين قدم إليه أمبراطور فرنسا لإحكام علاقة المجاورة بين المملكتين وأكرم الأمبراطور نزله ولما رجع رتب المجالس لتنفيذ قانون عهد الأمان وفي السنة كان نشر جريدة الرائد وفي السنة بعدها وصل ماء زغوان للحاضرة وفي سنة 1280هـ رتب إعانة قدرها اثنان وسبعون ريالاً على عموم الأفراد وصدرت بذلك أوامره وحين انتشر هذا الخبر بالمملكة لم يقع قبولها واختلف صنيع الأهالي فالعقلاء رفعوا الشكوى طالبين التخفيف وغيرهم ولا سيما الأعراب وسكان الجبال تجاهروا بالعداوة وأشهروا السلاح وتعمدوا البغي والفساد في البلاد وزعيم هاته الطائفة علي بن غزاهم أصله من ماجر واشتدت بذلك وطأة الاضطرابات والإحن والهرج والفتن وقامت المملكة على ساق حتى صارت دار حرب وإذ ذاك صدر أمره بإيقاف العمل بقانون عهد الأمان وإسقاط إعانة الاثنين والسبعين ريالاً وخرج الوزير رستم بمحلة في طلب رئيس البغاة علي بن غزاهم ووقع القتال بين الفريقين وآل الأمر إلى انهزام البغاة وفرار علي بن غزاهم إلى خارج حدود المملكة وخرج الوزير أحمد

زروق إلى الساحل بمحلة هو أميرها ووصل الساحل في جمادى الأولى من السنة وانتصر على البغاة وظفر بالرؤساء منهم الدهماني البوجي وقتلهم وقدم عليه وفود أهل الساحل منقادين نادمين من جملتهم وفود المنستير يؤمهم العلماء أهل المجلس الشرعي فقابلهم بشدة وحكم الأغلال في أعناقهم وأرجلهم وأولهم رئيس المجلس الشرعي الشيخ أبو عبد الله محمد الجدي بوزقرو وشدد تنكيله وأمر بإزالة عمامته في ذلك لمجلس بلفظ مستهجن ووفد صفاقس فقابلهم بأقل من مقابلة أهل المنستير ورئيسهم الشيخ عبد العزيز الفراتي وسجنهم في جملة من سجن وحكم يد النهب في الأموال وتفنن في سلبها حتى بلغ السكين العظم والسيل الربا فكأنه مأمور بإيقاد فتنة من جمر رمادها وأغرمهم أموالاً أفنت الطارف والتالف ورهنوا أملاكهم عند الوافدين على المملكة وعند طائفة من اليهود وأصبحت بلاد الساحل خاوية على عروشها وذهب هذا الصقع الذي هو عمران هاته المملكة كأمس الدابر ولم يبق به إلا من هو مثقل بالديون ويده فارغة من الكسب ثم ذهب بحملته لصفاقس وقابس ثم رجع لتونس بعد استيفاء ما أفنى اللحم والشحم وانتهى إلى العظم وللشيخ مصطفى بن عزوز المذكور بهذه الطبقة يد في إطفاء هاته الثورة بتوسطه بين الدولة وابن غزاهم المذكور وازدادت المصائب وتكررت النوائب في سنة 1284هـ والسنة بعدها بحصول المجاعة التي بعد العهد بمثلها والمرض الذي أفتك بكثير من الأهالي حتى صار وبائياً ولم يستقم حال البلاد والعباد إلا بعد عشرات من السنين ولهاته الأسباب صارت مالية الدولة في خطر من الديون التي تراكمت عليها وتداركها بتركيب لجنة تعرف بالكمسيون المالي رئيسها الوزير خير الدين وذلك سنة 1286هـ وفي سنة 1284هـ أمر بصنع نيشان عهد الأمان وفي سنة 1287هـ قسم إدارة الدولة إلى أقسام وهي الوزارة الكبرى ووزارة المال ووزارة العمالة ووزارة الخارجية ولها النظر على الحرب، وفي سنة 1288هـ وجهت له الدولة العلية بواسطة الوزارة الخيرية فرمانها العالي مع سيف مرصع ونيشان مجيدي وفي سنة 1289هـ أذن بمجلس النظافة يجري عمله على مقتضى قانون ذي فصول وفي السنة بعدها أقام مجلساً للصحة يجري عمله على مقتضى قانون ذي فصول وفي سنة 1291هـ جعل قشلة العطارين سجناً وجعل له حفظة لتنظيفه وأجرى عليه مؤنة كافية وجعل لذلك قانوناً خاصاً وفيها جعل قانوناً للفلاحة وفيها أضاف إلى خزائن جامع الزيتونة ست خزائن وملأها بالكتب النفيسة وأجراها على قانون المشير أحمد باشا وصار به أكثر من عشرة آلاف مجلد وفي السنة أحدث مكتباً عاماً أوقف عليه أوقافاً لها بال وسمي بالصادقية وأجراه على نظام المكاتب الحديثة لتعليم أبناء الأهالي العلوم الدينية

واللغات الأجنبية والمعارف الأوروبية وجعل لذلك قانوناً اجتمع على ترتيبه أعيان علماء العصر مشتمل على فصول وأجرى به ما يلزم للتلامذة من أكل وكسوة وفراش وفيها أصدر قانوناً مؤلفاً من ستين فصلاً لتنظيم ديوان الشريعة المطهرة اجتمع على تأليفه شيوخ المجلس الشرعي وبه تعينت مراسم خطة القضاء والإفتاء بالحاضرة وبلدان المملكة والأعمال التي يجري عليها عمل الوكلاء والأعوان والخصماء وفيها وضع قانوناً لضبط حجج الإشهاد في دفاتر خاصة يجري عليها عمل شهود المملكة وفي السنة أذن بجمع أوقاف المملكة لنظارة جمعية بالحاضرة تجعل من تحت نظرها وتصرفها وكلاء يقومون بلوازم شعائر الأوقاف وما يفضل من ذلك يدخل في خزينة الجمعية تدفع منه مرتبات مشايخ المجالس الشرعية والقضاة بالمملكة وعملها يجري على مقتضى قانون مؤلف من فصول. وفي السنة كان إجراء لنور الكهربائي بالحاضرة ولما رأى النقص الحاصل في مداخيل الدولة والفتور الحاصل في العلم أمر بجمع المدرسين وشيوخ المجلس الشرعي بجامع الزيتونة واستنهض همتهم العلمية وزاد لهم في الجراية وذلك في سنة 1287هـ ثم في 1292هـ استدرك ذلك بقانون علمي يؤلف من 67 فصلاً اجتمع على تأليفه أعيان علماء العصر وجعل النظارة العلمية لنظر حسين الجركسي وزير الاستشارة والمعارف والنافعة وجعل للنظارة العلمية نائبين عنه من أعيان المدرسين يباشران النظر على أعمال الجامع كل يوم وعن الامتحان العام لسائر طبقات التلامذة للحصول على شهادة في ماي من كل سنة ومن أحرز بعد الامتحان على رتبة التطويع وهي رتبة تؤهل صاحبها لإقراء العلوم تطوعاً بجامع الزيتونة بعد استصداره إذناً من شيوخ النظارة العلمية وهم شيخا الإسلام والقاضيان الحنفي والمالكي وتخول صاحبها تعاطي الشهادة بعد الحصول على أمر علي من أمير البلاد وبذلك تكاثرت الدروس والمدرسون وأقبل الطلبة على العلم والمدرسون الذين لهم جرايات والمتطوعون على التعليم وهي مزية فاخرة له خالدة.

وحاصل ما قدمناه في شأن العلم والعلماء أن جامع الزيتونة أدام الله عمرانه هو الكلية الوحيدة بإفريقية والكعبة التي يؤمها طلبة العلم من الجهات ومنها يتخرج الفحول من العلماء والمدرسون به هم الذين يبثون في الأمة روح الشرع العزيز وقواعد الدين الحنيف والتمكين من اللغة العربية الفصيحة التي أصلها مكين وموردها عذب معين. وفي السنة وقع إحياء المكتبة المعروفة بالعبدلية نسبة لأبي عبد الله الحفصي التي بصحن الجنايز من الجامع المذكور وضع فيها ما يزيد على الثلاثة آلاف مجلد من نفائس الكتب منظمة على أسلوب عجيب وترتيب غريب حتى أن الراغب للكتاب يتناوله ويطالعه أو ينسخه بأيسر وجه وحصل بذلك نفع عظيم للطلبة

لا سيما الغرباء وجعل لها ثلاثة قيمين تستمر إقامتهم سائر اليوم على التناوب وأجرى عليهم الجرايات الكافية وجعل لذلك قانوناً به ستة عشر فصلاً. وفي السنة واصل بين المملكة التونسية وسائر ممالك الدنيا بسلك البرق الذي يبلغ به الخبر في طرفة عين ومد سكة الحديد بين تونس وحلق الوادي وباردو ثم من تونس إلى أطراف الحدود الغربية. وفيها كانت الدولة العلية في حرب مع الروسيا فوجهت إليا إعانة بالمال وغيره لها بال. وفيها وقع تحرير قانون في خدمة العمال وقانون للمتعينين للأعراب وغيرهم تجري عليه إدارة خدمة العمال ومقدار ما يأخذه المتعينون من المجرمين. وفي سنة 1296هـ وقع منه زيادة الاهتمام بحفظ الصحة فعين قشلة البشامقية مستشفى وأقام بها أطباء ومرافق وتحسينات وعين له ما يلزم لإقامة شؤونه من أوقاف صاحبة الخيرات الرفيعة الشأن والمكانة عزيزة عثمانه فجاء على أحسن نظام وأكمل إحكام على مقتضى قانون ذي فصول 41 وهو المعروف بالمستشفى الصادقي. وفي السنة صدر الإذن بإقامة مجلس شورى تحت رياسة الوزير الأكبر للنظر في مهمات الدولة الداخلية والخارجية وهاته التأسيسات خلدت له جميل الذكر وغالبها كان بسعي من الوزير السياسي الخطير أبي الخيرات خير الدين مؤلف كتاب أقوم المسالك في أحوال الممالك ومن مأثره مبانيه البالغة في الرونق الغاية وفي الإتقان والاحتفال النهاية منها زاوية الشيخ أبي محفوظ محرز سنة 1279هـ وزاوية الشيخ إبراهيم الرياحي سنة 1290هـ وقصره المعروف بقصر السعيد بباردو عديم لنظير بهذا القطر وقد باشر الحكم بنفسه بإنصاف وكان محباً للعلماء والأولياء وتعظيم الأشراف وفي سنة 1298هـ احتلت دولة فرنسا المملكة ونصبت حمايتها عليها بمقتضى معاهدة انعقدت بباردو وكانت وفاة هذا الأمير سنة 1299هـ.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء محمد البحري والسنوسي وابن سلامة وإبراهيم الرياحي ومحمد النيفر وأخوه صالح والطاهر بن عاشور وابن ملوكة ومحمد البنا وأحمد الغماري وابن أبي الضياف وعلي العفيف.

الطبقة السابعة والعشرون

لما توفي المشير محمد الصادق باي بويع لأخيه المولى أبي الحسن علي باشا باي في ذي الحجة سنة 1299هـ وكان من أفاضل أمراء هاته الدولة محط الرحال ومنبع صالح الأعمال عارفاً برجال دولته مطلعاً على أحوال مملكته محباً للعلماء والصلحاء كريم الأخلاق مساعداً على إحداث كثير من الإدارات على النظام المعهود الآن وكذلك من أتى بعده. وعلى عهده أسست المدرسة الخلدونية وشحنت بعدد

غير قليل من نفائس الكتب في فنون من العلوم الدينية والعصرية. وعلى عهده كان تجديد منارة جامع الزيتونة فجاءت على أبدع شكل وأجمل منظر وكان الاحتفال عند انتهاء البناء في 26 رمضان سنة 1312هـ حضره هذا الأمير وآل بيته والخاصة والجمهور وأرخها شيخنا أبو النجا سالم بو حاجب وكتب ذلك على جدرانها في قصيدة أولها:

نال فوزاً بمناه كل ساع ... كي يرى شمول فضل ذي اتساع
في بيوت أذن الله بأن ... ترفع الأركان فيها ليطاع

ومنها في مدح هذا الأمير:

ثم في أيام مولانا الذي ... ملأت غرُّ مزاياه الرقاع
حضرة الباشا عليّ من له ... في قلوب الخلق للود ازدراع

ومنها بيت التاريخ:

ولسان الصدق قد أرخه ... لمنار الدين حق الارتفاع

قيل إن هذا الجامع لا يخلو من رجل موصوف بعلم ظاهر أو شرف زاهر أو صلاح باهر ولهذا الأمير تأليف سماه مناهج التعريف بأصول التكليف وتوفي في ربيع الأول سنة 1320هـ وبويع لابنه المولى محمد الهادي باشا باي وكان شهماً هماماً عالي الهمة كريم الأخلاق ذكياً ميالاً للعدل ومحبة العلماء وعلى عهده كانت زيارة رئيس الجمهورية الفرنسوية للإيالة التونسية المفخم مسيو لوبي في أبريل سنة 1903هـ الموافق لأوائل سنة 1321هـ وأقام ثلاثة أيام كانت مواسم بواسم ورد له هذا الأمير الزيارة في صائفة العام التالي وما حصل لهذين الزائرين جمع في مجلد وتوفي في ربيع الأنور سنة 1324هـ وارتقى كرسي المملكة الأمير المحبوب المولى محمد الناصر باشا باي ابن المشير محمد باشا باي وعلى عهده في 25 شعبان سنة 1328هـ صدر منشور من الشيخ القاضي المالكي محمد القصار لقضاة الجهات بثبوت الأهلة على طريق سلك البرق وجرى به العمل وهذا المنشور خلد له جميل الذكر وفي سنة 1329هـ كانت الدولة العلية في حرب مع إيطاليا في طرابلس وانتهت باحتلالها لهاته الأيالة وفي السنة بسطت دولة فرنسا حمايتها على المغرب الأقصى وفيها كانت زيارة فخامة رئيس الجمهورية الفرنساوية مسيو فليار للمملكة التونسية فقوبل بالتبجيل والتكريم وللعالم المؤرخ محمد ابن الشيخ الأكتب البشير بن الخوجة تأليف حافل في هاته الرحلة في مجلد سماه

الرحلة الفليارية وزار في أثنائها بعض المدن والمتلوي من عمل قفصة الذي به الفسفاط وهو عبارة عن طبقة من الأرض مادتها ترابية صالحة لتسميد الغروس والمزروعات وهي من الكنوز التي حصلت بها ثروة عظيمة لهاته المملكة قال بعضهم: هذ كنز لا يفنى وثروة لا تبلى، وأسست لها شركة أسست سككاً حديدية رابطة بصفاقس وغيرها. وفي سنة 1340هـ موافق 1922م كانت زيارة رئيس الجمهورية الفرنساوية لإفريقية الشمالية وهي عبارة عن المغرب الأقصى والجزائر والمملكة التونسية فقام بهاته الرحلة أعظم عظماء هاته الجمهورية مسيو ميلران ابتدأها من الدار البيضاء مرسى مدينة على البحر المحيط وأنهاها بجربة الغربية من الحدود الطرابلسية في أبهة وحفل عظيم ساقت المقادير هذا الرئيس الخطير لهاته الجهات التي منظرها جميل زاهر وعمرانها في تزايد باهر حافلة كالعروس آهلة بنحو الثلاثة عشر مليوناً من النفوس ووصل القطر التونسي الذي لا يقل سكانه عن المليونين في غرة رمضان الموافق للرابع والعشرين من أبريل سنة 1340هـ موافق 1922م ولقي من الإقبال فوق ما يقال. وما حصل له في هاته الرحلة لو تتبع لملأ مجلداً ضخماً. وفي يوم الاثنين السادس عشر من ذي القعدة وفي 10 يولية من السنة انتقل إلى رحمة الله هذا الأمير المحبوب فكان انتقاله روح الله روحه من أعظم الرزايا وأشد البلايا، كان كريم الأخلاق والسجايا، سخياً كثير العطايا، عادلاً محباً للرعايا، سائلاً عن أحوالهم ميالاً لإجابة مطالبهم وسماع أقوالهم. محباً لدولة فرنسا، وهو أول مساعد لها ومعاضد على تجنيد العساكر التونسية لاحتلالها المغرب الأقصى وخصوصاً في الحرب الكبرى فإنه عاضدها بما عنده من النفس والنفيس ووقع الاعتراف له بهذا الفضل. نقلت جريدة الزهرة في عددها 6486 المؤرخ في التاسع عشر من ذي القعدة المذكور ما نصه: ورد في رسالة برقية من باريس أن صحف العاصمة الفرنسوية برزت طافحة بالثناء على حضرة سيدنا محمد الناصر باي الذي كان معيناً صادقاً لفرنسا في أصعب الظروف وأشدها عليها، وقد ذكرت جريدة الجورنال أن باريس كانت استقبلت الباي المتوفى بمزيد الحفاوة والانعطاف. ثم قالت: إنه قام بوظيفته على غاية ما يرام، حتى إذا جاءت ساعة الخطر العظيم نهضت المملكة التونسية جمعاء للدفاع عن فرنسا المتهددة فجهزت خمساً وستين ألف مقاتل وثلاثين ألف شغال وتكبدت خسائر لا تقل عن خمس وأربعين ألفاً بين قتيل وجريح فهذه قائمة يمكن أن يفتخر بها قوم لا يكاد يبلغ عدد الرجال القادرين منهم على حمل السلاح ثلاثمائة ألف. انتهى.

وفي اليوم الموالي لوفاته كان الحفل بجنازته بالغاً الغاية ودفن بتربة أسلافه الكرام مأسوفاً عليه من الخاص والعام وفي عشي يوم الوفاة وقعت البيعة بقصر باردو المعمور بغاية من الإجلال والفرح والسرور لابن عمه الأمير الجليل الحري بالتعظيم والتبجيل المولى الأمير محمد الحبيب باشا باي ابن المأمون بن حسين باشا باي وهو حفظه الله من الأمراء الذين يفتخر بهم أمراء هذا البيت مملوء الجراب بالمعارف والآداب، موصوف بصفات الكمال ونعوت الجلال، وقام بالأمر على الوجه المطلوب ومالت لمحبته القلوب إلا أن الإمارة وافته على كبر سن مع مرض أنهك قواه واستمر على حاله إلى أن توفاه الله صبحية يوم الاثنين ثالث رمضان سنة 1347هـ وبعد زوال اليوم جرى انعقاد البيعة في سراية باردو المعمورة في حفل عظيم وموكب فخيم لولي النعم المستجمع لمكارم الأخلاق والشيم المفكر الكثير الفضائل، الأمير المعظم والملك المفخم مولانا أحمد باشا الثاني ابن المولى الباشا علي ابن المولى الباشا حسين، وقد دبت وقتئذ حميا المسرة في الضمائر وجالت أفراس الأفراح في ميادين الأكابر والأصاغر وقامت خطباء الأقلام تصدح بالبشائر وصحف الجهات تعلق بالبشارات أجرى الله على يده الصالحات ثم تلقى الجناب العالي بيعة الوفود التي وردت إليه وأمانيها سعادة دولته ورفاهية مملكته في احتفالات فائقة وأنشدت بين يديه الخطب والقصائد الرائقة لو جمعت لكانت مجلداً. رحم الله السلف، وأدام دولة الخلف.

تنبيه: من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء: أحمد الورتناني والشاذلي بن صالح وأحمد الشاهد والطاهر النيفر وأخوه الطيب وعمهما محمد وحسين بن أحمد وعمر ابن الشيخ ومحمد النجار وسالم بو حاجب والطيب النيفر.

خلاصة

بها الأدوار التي حصلت لدول إفريقية

قد انتهى ما جمعته بهذه التتمة ومن وقف عليها علم الأدوار التي حصلت في دول إفريقية والأطوار. إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب والاعتبار. وخلاص ذلك وما وقع من الأدوار هنالك هو أن إفريقية يسكنها البربر منذ عهد بعيد جداً ولم يحفظ لهم تاريخ على وجه التحقيق وفيهم من زعماء الرجال ما قد علم وتداولتها دول بعد دول والمعروف منهم (القرطاجنيون) ومنهم هنبال البطل الشهير الذي ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعة بنيانهم فاجتاز إليهم جبال البرنية بجيوش جرارة وجند كثيف ينازعهم في صميم بلادهم ويستنزل أقيالهم من منصات مجدهم فالرومان فالوندال فالروم البيزنطيون فالإسلام.

أول أمير دخل إفريقية عبد الله بن سعد بن أبي سرح البطل الجليل شهد فتح مصر واختط بها وكان صاحب الميمنة في الحرب مع عمرو بن العاص وكانت له مواقف محمودة وكانت ولايته سنة 25هـ بعهد من الخليفة الثالث سيدنا عثمان رضي الله عنه وفتح إفريقية سنة 27هـ وهي من أعظم الفتوح. ثم معاوية بن حديج ثم عقبة بن نافع ثم مسلمة بن مخلد وهو أحد الرجال الأربعة الذين قال فيهم الخليفة الثاني سيدنا عمر: مقامه من الرجال مقام الألف، الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم. وهو أول من جمعت له إمارة مصر وإفريقية وبعث مولاه أبا المهاجر لإفريقية عوض عقبة المذكور ثم رجوع عقبة ثم زهير بن قيس البلوي بعهد من عبد الملك بن مروان الخليفة العظيم الذي استقصى لنفسه الخلافة وأجرى أمور الملك مجرى السداد والطمأنينة ثم حسان بن النعمان ثم موسى بن نصير ومولاه طارق اللذين دوخا ممالك هنبال القديمة في إفريقيا الشمالية وقطعا بجندهما القليل البالغ اثني عشر ألف مقاتل مضيق القارة الأوروبية ففتحا مملكة الأندلس وقضيا على دولة القوط بالدمار. ثم محمد بن يزيد ثم إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ثم يزيد بن أبي مسلم ثم بشر بن صفوان ثم عبيدة بن عبد الرحمٰن ثم عبد الله بن الحبحاب ثم كلثوم بن عياض ثم حنظلة بن صفوان ثم تغلب على إفريقية عبد الرحمٰن بن حبيب ثم محمد بن الأشعث ثم الأغلب بن سالم ثم المهالبة ثم هرثمة بن أعين ثم محمد بن مقاتل ثم الأغالبة ثم العبيديون ثم

الصنهاجيون ثم الحفصيون ثم الإسبان ثم الترك وهم دايات وبشوات وبايات منهم آل بيت مراد باشا ثم إبراهيم الشريف ثم حسين باشا بن علي تركي باني البيت الحسيني واستمرت باقية في عقبه بعد وفاة ابن أخيه علي باشا حتى الآن وعلى عهد محمد الصادق باشا باي نصبت فرنسا حمايتها وتولى بعده أخوه علي باشا باي ثم ابنه محمد الهادي باشا باي ثم محمد الناصر باشا باي ثم محمد الحبيب باشا باي ثم أحمد باشا باي الثاني أيده الله بالسبع المثاني.

فائدة

في روح المعاني ما نصه: في بعض كتب الله المنزلة أنا الله ملك الملوك مالك الملك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي فإن العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة وإن هم عصوني جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم. انتهى. نقل ذلك عند قوله جلّ جلاله وعز كماله ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾.

صلة

اعلم أن في الإسلام الكثير من عظماء الرجال والأمراء اشتهر في التاريخ ذكرهم وعظم أثرهم كخالد بن الوليد فاتح العراق العربي وبعض الشام وأبي عبيدة بن الجراح فاتح الشام وسعد بن أبي وقاص فاتح العراق العجمي وهادم عرش الأكاسرة والأحنف بن قيس فاتح خراسان وعمرو بن العاص فاتح مصر وعبد الله بن سعد فاتح إفريقية ومسلمة بن مخلد موسى بن نصير فاتح الأندلس وأضرابهم في كل جيل إذا علمت ذلك علمت مراتب الناس في الدنيا بنسبة الأعمال وهي تتفاوت بتفاوت الرجال فرب شخص بعيد السمعة عظيم كبير وآخر لا في العير ولا في النفير.

ولـم أر أمـثـال الـرجـال تـفـاوتـا إلى الفضل حتى عد ألف بواحد

بل رب شخص تقوم به الدولة وتسعد الأمة وآخر تهلك به الدولة وتشقى الناس وإنما قامت الدول واتصلت بالشعوب أسباب السعادة بأفذاذ من الرجال مشهورين كبرت نفوسهم أن تخلد إلى الدنايا وترضى بالحقير من الشهوات فطمحت بهم إلى غايات الكمال فنالوا بذلك حياة لا تفنى وغادروا في الوجود آثاراً لن تزول. ولبعضهم آثار حسنة حتى الآن تقدم ذكرها منها جامع عقبة رضي الله عنه بالقيروان.

في روح المعاني عند قوله عز من قائل: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي اجعل لنفسي ذكراً صادقاً في جميع الأمم إلى يوم القيامة وحاصله خلد صيتي وذكري الجميل في الدنيا وذلك بتوفيقه للآثار الحسنة والسير المرضية لديه تعالى المستحسنة التي يقتدي بها الآخرون ويذكرونه بسببها بالخير ثم قال: واستدل الإمام مالك بهذه الآية على أن لا بأس أن يحب الرجل أن يثني عليه صالحاً وفائدة ذلك بعد الموت على ما قال بعض الأجلة انصراف الهمم إلى ما به يحصل له عند الله تعالى زلفى وأنه قد يصير سبباً لاكتساب المثنى أو غيره نحو ما أثنى به فيثاب فيشاركه فيه المثنى عليه كما هو مقتضى مَن سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا يخفى عليك أن الأمور بمقاصدها انتهى. وأسأل الله العظيم أن يجعل علمي وعملي لوجهه الكريم وينفعني به إنه هو البر الرحيم.

تنبيه: اعلم أن ما جمعته بالشجرة اقتطفته من: (1) روح المعاني لأبي الفضل محمود الألوسي و(2) الموطأ للإمام مالك و(3) شرحه لأبي عبد الله محمد الزرقاني و(4) البخاري و(5) شرحه فتح الباري للحافظ ابن حجر و(6) الإصابة له و(7) مسلم وشرحه و(8) إكمال الإكمال لأبي عبد الله الأبي و(9) المدارك للقاضي عياض و(10) الشفا له و(11) شرح الشهاب الخفاجي عليه و(12) الاستيعاب للحافظ ابن عبد البر و(13) طبقات أبي العرب لمحمد بن تميم و(14) طبقات قضاة قرطبة لأبي عبد الله الخشني و(15) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي و(16) صلته لأبي القاسم خلف بن بشكوال و(17) تكملتها لأبي عبد الله محمد بن الأبار و(18) تكملة التكملة له أيضاً و(19) بغية الملتمس في علماء الأندلس لابن عميرة الضبي و(20) فهرسة أبي بكر بن خير و(21) التشوف لرجال التصوف لأبي يعقوب يوسف الشاذلي المراكشي و(22) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لأبي زكرياء يحيى المراكشي و(23) البيان المعرب لابن عذاري المراكشي و(24) جزء من كتاب أبي عبيد البكري و(25) وفيات الأعيان للقاضي ابن خلكان و(26) فوات الوفيات لأبي عبد الله محمد بن شاكر الكتبي و(27) رحلة أبي الحسين بن جبير و(28) رحلة أبي محمد عبد الله التجاني و(29) سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي و(30) بداية المجتهد لأبي عبد الله محمد بن رشد و(31) مقدمة ولي الدين بن خلدون و(32) تاريخ أبي عبد الله محمد الزركشي و(33) عنوان الدراية لأبي العباس الغبريني و(34) معالم الإيمان لأبي القاسم بن ناجي و(35) الديباج لأبي إسحاق بن فرحون و(36) نيل الابتهاج لأبي العباس أحمد بابا و(37) الاعتصام لأبي إسحاق الشاطبي و(38) بغية الوعاة في طبقات النحاة للحافظ السيوطي و(39) حسن

المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة له أيضاً و(40) جذوة الاقتباس لأبي العباس بن أبي العافية و(41) نفح الطيب لأبي العباس المقري و(42) الأول من أزهار الرياض له أيضاً و(43) البستان لأبي عبد الله بن أبي مريم و(44) الأنيس المطرب لأبي عبد الله العلمي و(45) نزهة الحادي لأبي عبد الله اليفرني و(46) خلاصة الأثر لأبي عبد الله محمد المحبي و(47) المؤنس لأبي عبد الله بن دينار و(48) الحلل السندسية لأبي عبد الله الوزير الأندلسي و(49) بشائر أهل الإيمان لحسين خوجة و(50) حجة الله البالغة لأبي العباس الدهلوي و(51) كشف الظنون لملا كاتب جلبي و(52) رحلة أبي سالم العياشي و(53) رحلة أبي العباس بن ناصر و(54) رحلة الحسين الورتيلاتي و(55) التاريخ الباشي لأبي محمد حمودة بن عبد العزيز و(56) تاريخ أبي الثناء محمود مقديش و(57) تاريخ أبي العباس بن أبي الضياف و(58) رحلة الشيخ رفاعة التهطاوي و(59) الخلاصة النقية لأبي عبد الله محمد المسعودي و(60) خلاصة تاريخ العرب للعالم سيديو و(61) الفتوحات الإسلامية لأبي العباس أحمد دحلان و(62) الاستقصا لأبي العباس أحمد الناصري و(63) تاريخ الشيخ عبد الرحمٰن الجبرتي و(64) عناية أولى المجد لأبي الربيع سليمان سلطان المغرب و(65) ذيله شذور العسجد لأبي محمد عبد الحفيظ الفاسي و(66) تعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم محمد الحفناوي و(67) مفتاح السنة للأستاذ محمد عبد العزيز الخولي و(68) الشرب المحتضر لأبي الفضل جعفر الكتاني و(69) سلوة الأنفاس لابنه أبي عبد الله محمد و(70) مسامرات الظريف لأبي عبد الله محمد السنوسي و(71) الاستطلاعات له أيضاً و(72) حسن البيان لأبي عبد الله محمد النيفر و(73) أشهر مشاهير الإسلام لرفيق بك العظم و(74) نور اليقين لأبي عبد الله محمد الخضري و(75) التشريع الإسلامي له و(76) المحاضرات له أيضاً و(77) الأول من اليواقيت الثمينة لأبي عبد الله محمد البشير ظافر و(78) طبقات الصوفية للعارف الشعراني و(79) كشف الغمة له و(80) لطائف المنن والأخلاق له أيضاً و(81) فهرست أبي الحسن النوري و(82) فهرست أبي عبد الله الأمير و(83) فهرست أبي الحسن خليفة و(84) فهرست أبي حفص عمر بن الشيخ و(85) فهرست أبي عبد الله المهدي الوزاني وفهرست أبي عبد الله الغرياني وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان وغير ذلك مما وقع العثور عليه في الشروح والحواشي والوقوف على كثير منها وقع بواسطة بعض الفضلاء جزاهم الله عنا أحسن الجزاء حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الجغرافية

اعلم أنه تقدم الكلام في الفريدة الأولى من المقدمة على علم الجغرافية وفضيلته وأقسامه وأنه مرتبط بعلم التاريخ ارتباطاً وثيقاً ومتعلق به تعلقاً عريقاً فهما أخوان يتعاونان وفرسا رهان يتسابقان لا يستغني بأحدهما عن الآخر. وهو علم يبحث فيه عن هيئة الأرض وأحوالها ووصف ما عليها من جبال وأنهار ومدن وسكان وما شاكل ذلك، وحيث تقدم لنا ذكر ما لزم ذكره من العلم الأول وجله يتعلق بإفريقيا ناسب أن نذكر هنا باختصار ما كان من علائق إيالة تونس من جهة العلم الثاني تتميماً للفائدة فنقول:

ينقسم سطح الكرة الأرضية إلى قسمين عظيمين: يابس وماء. فاليابس يشغل ربع سطح الأرض والماء يشغل ثلاثة أرباع سطحها. وينقسم كل من اليابس والماء إلى خمسة أقسام يعبر عن كل قسم من أقسام اليابس بالقارة.

أقسام اليابس خمسة: إفريقيا، وآسيا، وأوروبا، وأمريكا، وأستراليا.

فإفريقيا يحدها شرقاً المحيط الهادىء وغرباً المحيط الأطلانطيقي ويفصلها عن آسيا البحر الأحمر وترعة السويس وعن أوروبا البحر الأبيض المتوسط.

التعريف بالقطر التونسي

هذا القطر يسمى إفريقية وهو أحد الممالك الأربعة الواقعة في شمال قارة إفريقيا غرب القطر المصري وهي: طرابلس الغرب، وتونس، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى.

جغرافية إيالة تونس

يحدها شمالاً وشرقاً البحر الأبيض المتوسط وجنوباً طرابلس الغرب والصحراء الكبرى وغرباً الجزائر.

جبالها

هذا القطر جزء من سلسلة جبال الأطلس التي تخترق هذا القطر وغيره ينقسم إلى عدة فروع أشهرها جبل مطماطة وجبل عين دراهم وجبل الرقبة وجبل الرصاص وجبل زغوان وهو أعلاها يبلغ ارتفاعه نحو 1300 متر.

أنهارها وبحيراتها

ليس بها إلا نهر واحد يذكر وهو نهر مجردة الذي ينبع من ولاية قسنطينة التابعة للجزائر ثم يخترق هذا القطر من الغرب إلى الشرق ويصب في البحر الأبيض المتوسط بقرب غار الملح ولا يحمل القوارب، وفيها عدة جداول وعيون وثلاث بحيرات وهي بحيرة الحاضرة وبحيرة بنزرت وبحيرة الكلبية بين القيروان والساحل.

هواؤها معتدل في الجهة الشمالية ويغلب الحر في الجهة الجنوبية وإذا هبت ريح الجنوب على أي جهة في أي وقت تحدث الحرارة. ويشتد البرد في الشتاء ولكن لا لدرجة تجمد المياه ولا ينزل الثلج إلا نادراً في بعض الجهات.

مساحتها تبلغ 45 ألف ميل مربع.

عدد سكانها أكثر من المليونين منها بعاصمة الإيالة نحو المائتي ألف نفس غالبهم مسلمون.

معادنها قليلة ويستخرج منها الرصاص والفضة والقصدير والزئبق والحديد والفحم الحجري والرخام الأحمر والأخضر والفسفاط وهو كنز لا يفنى حصل منه نفع عظيم للعملة وغيرهم.

حيواناتها:

يوجد بها من الأهلية الخيل والبغال والحمير والبقر والضأن والمعز والإبل ومن غيرها الغزال والخنزير ومن الوحوش الضبع والنمر والذئب والوعل وغير ذلك.

زراعتها:

تنقسم أراضي الإيالة باعتبار الخصب إلى ثلاثة أقسام:

فالجهة الشمالية الجبلية هي الأكثر خصباً وتربتها جيدة ويزرع فيها القمح والشعير والفول وغير ذلك وأهم جبالها عين دراهم ونفزه والمقعد بها غابات كثيفة غنية تستخرج منها الخفاف والأخشاب الصالحة لبناء السفن أو غيرها.

والجهات الوسطى والشرقية الجنوبية خصبها باعتبار قلة الأمطار وكثرتها ولكن الأرض من طبعها منبتة للغاية وبها غابات واسعة بالزيتون والمعاصر كثيرة لعصره وهي السبب في ثروة أهالي تلك الجهة أعني بذلك الساحل الذي مبدأه قرية أبي فيشة ومنتهاه قرية المحرص ويزرع بها غالب الأشجار ذات الثمار الطيبة كالبرتقال والتفاح والخوخ والإجاص والتين والعنب واللوز وغير ذلك والحبوب كالقمح والشعير والفول والبطاطس واللوبيا والحمص والعدس وكافة أصناف البقول.

أما الأنحاء الجنوبية فهي عبارة عن أراضي شاسعة ولا تمطر فيها السماء إلا نادراً وببعضها واحات ماؤها منهمر بها أشجار كثيرة وأغلبها النخيل الجيد الثمرة الرائجة داخل الإيالة وخارجها وهاته الواحات ذات منظر طبيعي بهيج وهي قفصة وتوزر ونفطة وقابس ونفزاوة وجرجيس.

صناعتها:

الصنائع المحتاج إليها كثيرة وأكثرها الاعتماد فيها على الآلات القديمة والعصرية آخذة في التقدم وأشهرها استخراج الروائح الطيبة ونسج الحرير المتقن والشاشية واستخراج زيت الزيتون من معاصره الكثيرة بالآلات العصرية وفي الزيت والمنسوجات العمومية والقمح والشعير والفول رواج وما عدا ذلك انحط رواجه لمزاحمته بما يرد من خارج الإيالة.

والبضائع الواردة من الخارج كثيرة جداً منها المنسوجات القطنية والحريرية وآلات النقل وجر الأثقال وآلات الفلاحة وجلب المياه والأخشاب والحديد وآلات الأسلحة والفحم الحجري والنحاس والفضة والذهب والفخار بأنواعه وزيت الغاز والسكر والشاي والبن والفلفل وغير ذلك مما هو كثير.

وليس للحكومة ولا للأهالي سفن تجارية وأغلب التجارة داخلاً وخارجاً بيد الإفرنج واليهود.

طرقها منظمة عمت الجهات وكذلك المواصلات بالسكك الحديدية وغيرها وبذلك حصلت الراحة في السفر ونقل البضائع وراجت التجارة في الجهات وعمّ النفع سائر سكان المملكة.

معارفها ولغتها وديانتها

تدرس العلوم الدينية مقاصد ووسائل كالقرآن العظيم والتفسير والحديث رواية ودراية والفقه وأصوله والمنطق واللغة والنحو والمعاني والبيان والبديع والصرف

والآداب والحساب والتاريخ في جامع الزيتونة وبه من التلامذة نحو ألفي تلميذ وقليل من العلوم الدينية بالحواضر وبعض القرى والحكومة أنشأت مكاتب بالعاصمة وجهات الإيالة لتعليم اللغة الفرنساوية ومبادىء العلوم العصرية وأما المعارف العصرية العالية فهي قليلة.

لغة الأهالي العربية الشريفة والديانة الإسلامية وغالبهم على مذهب الإمام مالك. أشهر مدنها بنزرت وهي مرفأ أمين جداً تحميه حصون قوية والقيروان وكانت عاصمة البلاد ولم تزل موضع احترام وسكانها ما يقرب من العشرين ألف نفس. وصفاقس وهي مرسى تجارية عصرية رتبتها ثانية بالنسبة للعاصمة وسكانها بأحوازها يربون على خمسة وسبعين ألف نفس ويليها مرسى سوسة وسكانها يربون على عشرين ألف نسمة ثم المنستير والمهدية وقابس وهي موانىء على البحر المتوسط وجرسيس ومدنين وحومة السوق بجربة وقفصة وتوزر ونفطة والكاف وباجة وسوق الأربعاء وتبرسق وتستور ومجاز الباب وماطر ورأس الجبل وطبربة وزغوان ونابل وقليبية ومنزل تميم والحمامات وقرنباليا وسليمان والنفبضة والقلعة الكبرى وجمال وقصور الساف وواجم الذي به المسرح الروماني العجيب البناء والصنع. وهاته البلدان يتراوح سكانها من الخمسة آلاف نفس إلى اثني عشر. أما بلد مساكن وبلد المكيتن بالساحل فكل واحد منها سكانه نحو الخمسة عشر ألف نفس.

الحكومة

إيالة تونس حكومة ملوكية وراثية للأكبر سناً من العائلة المالكة وهي تحت الحماية الفرنساوية من جمادى الآخرة عام 1299هـ ومايو سنة 1881م بمقتضى معاهدة باردو المنعقدة بين دولة الحماية ودولة الصادق باشا باي واتفاقية المرسى الإضافية المنبرمة مع دولة الحماية ودولة علي باشا باي في شعبان عام 1301هـ وفي يونية سنة 1883هـ وبمقتضى ذلك فإن إدارة الشؤون التونسية ترتبط بوزارة خارجية فرنسا التي ينوب عنها بالمملكة التونسية مفوض يسمى المقيم العام مولى من طرف رئيس الجمهورية الفرنساوية ويسمى وزير الخارجية للحكومة التونسية بأمر من سمو الباي.

صاحب السيادة والملك هو الملك المعظم الملقب بالباشا باي الذي له حق وراثة الملك وعند انتصابه على كرسي المملكة يحتفل به ليقر له بالملك سراة الأمة من علماء ووجهاء وغيرهم ولحكومة فرنسا حق المراقبة على أعمال سموه والإدارات التونسية وإذا رأت بعض إصلاحات أو تنقيحات تعرض ذلك على سموه

بواسطة جناب المقيم العام فإذا سمح بذلك ورآه سداداً يصدر أمره المطاع بتنفيذها ويراقب أعمال التنفيذ جناب المقيم العام الذي له النظر على كافة رؤساء الإدارات وله السلطة على القوة الحامية للبلاد البحرية والبرية.

تاريخ إيالة تونس

اعلم أنا بينا في التتمة تاريخ الإيالة بأبين بيان وأشبعنا القول في ذلك وأتينا في آخرها على خلاصته ولنأت هنا على خلاصة الخلاصة وهي الخاتمة فنقول:

هذا القطر توالت عليه دول أربع قبل الإسلام وهي القرطاجنيون فالرومان فالوندال فالروم البزنطيون.

وبعد الفتح الإسلامي تولاه أمراء من الصحابة والتابعين ثم سبع دول وهي دولة المهالبة من عام 151هـ إلى عام 181 هجرية وكانت تابعة للعباسيين مع التصرف المطلق داخلاً ثم دولة الأغالبة من عام 181هـ إلى عام 297هـ ثم دولة الفاطميين من عام 297هـ إلى عام 365هـ وكانت الإيالة حينئذ مستقلة تماماً ثم دولة صنهاجة من عام 365هـ إلى عام 602هـ إلا أنها كانت تظهر الخضوع تارة للفاطميين وطوراً للعباسيين وفي سنة 602هـ خلفتها دولة الحفصيين الذين كانوا مستقلين ثم دولة الترك في عام 981هـ وتركت لها استقلالها الداخلي ولقب حكامها بالداي والباشا الذين انتهى حكمهم سنة 1117هـ حيث تولتها العائلة الحسينية وأولها حسين باشا بن علي تركي وهي في قبضتها إلى أن دخلت تحت حماية دولة فرنسا وفي هذا الوقت أميرها الأفخم ومليكها الأعظم سمو أحمد باشا باي الثاني المؤيد بالسبع المثاني.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم

الخاتمة

الكلام على المنستير الذي فضله شهير وقدره خطير ومحله في النفوس أثير وهو مسقط رأس العبد الفقير ومنبت غرسه ومجمع أهله وأنسه ومحل استقرار الأخيار كابن يونس والمازري وابن العطار نوه المؤرخون وغيرهم بشأنه وبالخصوص التواريخ المختصة بالمملكة التونسية ووقفت على بعضها وسنقص ما اقتطفته منها. في الشفا عند ذكر ما يتعلق بمكة المشرفة ما نصه: حكي أن قوماً أتوا سعدون الخولاني بالمنستير وأعلموه أن كتامة قتلوا رجلاً وأضرموا عليه النار طول الليل فلم تعمل فيه وبقي أبيض البدن فقال: لعله حج ثلاث حجج حرم الله شعره بالثلاث حجج قالوا نعم قال حدثت أن من حج حجة أدى فرضه ومن حج ثانية داين ربه ومن حج ثلاث حجج حرم الله شعره وجسده على النار. انتهى.

قال الشهاب الخفاجي قوله المنستير بميم ونون وسين مهملة ومثناة فوقية وراء مهملة وهو لفظ رومي معناه عندهم خانقاه للرهبان على الطريق ينزل فيه أبناء السبيل والذي سمعناه منهم بفتح الميم وألف مع سكون السين وكسر التاء الفوقية وياء تحتية وقد يخفف بحدق الألف والياء وهو مما لا شبهة فيه عندهم فقوله في القاموس منستير بضم الميم وفتح النون موضع بإفريقية معبد الزهاد والمنقطعين وبلد آخر بإفريقية أهله من قريش بينه وبين القيروان ست مراحل وموضع بشرق الأندلس. انتهى.

مخالف لما صح سماعاً فإن ظنه عربياً فهو خطأ وإن قال عُرّب وغُير كان عليه أن ينبه عليه. وقال التلمساني إنه بضم الميم والنون ويجوز كسر نونه والعامة تفتحها وعليه اقتصر الشمني وهي بلدة بساحل البحر أو حصن رباط بإفريقية له سور بناه هرثمة بن أعين بعثه الرشيد لإفريقية سنة 179هـ. انتهى شهاب. وقال ابن خلكان

عند ترجمة الحافظ النظار أبي القاسم هبة الله بن علي بن مسعود بن ثابت الخزرجي المنستيري المعروف بالبوصيري المتوفى سنة 568هـ ما نصه: منستير بضم الميم وسكون السين وكسر التاء بلدة بإفريقية بناها هرثمة بن أعين الهاشمي سنة 180هـ وكان الرشيد ولاه إفريقية وقدم إليها في ربيع الآخر سنة 179هـ. وقال أيضاً المنستير معبد بين المهدية وسوسة يأوي إليه الصالحون والمنقطعون للعبادة، فيه قصور شبهة بالخانقاهات وعلى تلك القصور سور واحد ذكره ياقوت في كتابه. انتهى.

قلت: ما حققه الشهاب من أن لفظ منستير رومي هو الصواب يؤيده أن بالقرب من القصر شرقيه جزيرة منحوت بها بيوت كانت قبل الفتح الإسلامي مقر الرهبان والمنقطعين للعبادة فيه وبالقرب منه بالقراعية داموس منحوت في جبل على شاطىء البحر يعرف الآن بالكحلية كان أيضاً مقراً للرهبان وقيل كان مقراً في المصيف لبعض أمراء الرومان.

أول مَن ألّف في فضيلة المنستير الشيخ الإمام أبو زكرياء يحيى بن عمر المترجَم في الطبقة السادسة ومن تلامذته العالم المؤرخ أبو العرب محمد بن تميم المترجم له في الطبقة السابعة من تآليفه طبقات علماء إفريقية تعرض فيه لفضيلة المنستير وذكر أحاديث وإليك بعضها:

قال: قال فرات بن محمد العبدي: حدثني أبو زكرياء الخراز بن سليمان قال: سمعت البهلول بن راشد يقول: إن هرثمة بن أعين استشاره في بناء المنستير وعدّد له هرثمة ما بناه في أرمينية وفي غير موضع فقال له البهلول: ما ذكرت شيئاً إلا والمنستير أفضل منه وذلك أنه بلغني عن النبي ﷺ أنه باب من أبواب الجنة. وحدثني فرات قال: حدثني أبو الشيخ المفسر عن عبد الرحمٰن بن زياد عن مطرف عن عبد الله رفعه إلى النبي ﷺ قال: «المنستير باب من أبواب الجنة يقال له الأنف ودونه قنطرة من قناطر الأولين» وحدثني فرات قال: حدثني خلف بن محمد القابسي قال: حدثنا بهلول بن راشد قال: حدثنا عباد بن كثير عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بساحل قمونية باب من أبواب الجنة يقال له المنستير من دخله فبرحمة الله ومن خرج عنه فبعفو الله». وحدثني فرات قال: حدثنا عبد الله بن أبي حسان اليحصبي عن أبيه عن سفيان بن عيينة عن عبد الله بن دينار عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن رابط بالمنستير ثلاثة أيام وجبت له الجنة» قال أنس: بخ بخ يا رسول الله قال: «نعم يا أنس وله في هذه الثلاثة أيام كأجر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين».

قلت: فهاته الأحاديث كما ترى مروية عن فرات وقد أثبت في ترجمته المذكورة في الطبقة السادسة أنه كان أعلم الناس بالناس وأوقع الناس بالناس حتى نسب للكذب. وهاته الأحاديث ذكرها ابن الشباط والتجاني في رحلته وذكرها ابن ناجي وقال: سمعت من شيخنا البرزلي يقول عن شيخه وشيخنا ابن عرفة يغلب على الظن أنها موضوعة.

قلت: وإذا ثبت أنها موضوعة فالمظنون أن واضعها قصد بها الترغيب في المرابطة لما يترتب عليها من مصلحتي الدنيا والآخرة أما في الدنيا فإن فالمراد منها ملازمة النظر في موضع المخافة من العدو وفي الآخرة حصول الثواب الموجب لدخول الجنة. أخرج الشيخان عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها» وأخرج ابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَن مات مرابطاً في سبيل الله تعالى أجري عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن من الفتان وبعثه الله آمناً من الفزع» والرباط والمرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم بحيث يكون ملازمة النظر في موضع المخافة من العدو. وأصل المرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم بحيث يكون الفريقان مستعدين لإنزال فيحارب كل منهما الآخر ثم أطلق على كل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه مرابطاً وإن لم يكن له ما يربط من الخيل. وقوله بخ بخ كلمة تقال عند المدح للشيء والرضى به وتكرر للتأكيد وهي إما مبنية على السكون للوقف وإما للوصل فتكسر وتنون وقد تشدد. والقنطرة لم يزل أثرها قائماً وبالقرب منها من الجهة الجوفية أثر بلدة رومانية بعضها غمره البحر والباقي هو بساتين تابعة للمنستير تعرف بالقديمة هواؤها نقي وحكى بعض المؤرخين أنه كان هناك قصر يعرف بشقانص لا أثر له الآن.

وزبدة القول إن للمنستير الشرف العظيم وقد صرح بذلك غير واحد من المؤرخين قالوا لا شك أن للمنستير فضلاً وشأناً. وفي الحلل السندسية والبيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري الإشارة لذلك وفي رحلة الشيخ الورتيلاتي أنه دخل سوسة ولم يدخل المنستير وهي مدينة عظيمة قوية البركة عظيمة في الزيارة لاحتوائها على طبقة من العلماء وأهل الترجيح من المؤلفين كالإمامين ابن يونس والمازري وغيرهما فإن الوفود تأتي إليها من كل جانب. انتهى وقد ذكرها جماعة من الأدباء منهم أبو عمرو عثمان بن عتيق المعروف بابن عريبة المترجم له في الطبقة الرابعة عشر ذكرها متشوقاً في قصيدة مدح فيها الأمير أبا زكرياء الحفصي منها:

ذكرت جمة والذكرى تهيج لي فأين جمة مني والمنستير
وما مناي لياليها التي سلفت وما مناي محانيها المعاطير

والمراد بجمة المهدية.

فصل
فيما يتعلق بالقصر

قال البكري: إن محرس المنستير المعروف بالقصر الكبير له في يوم عاشوراء موسم عظيم وجمع كبير فخيم وبالمنستير الطواحن الفارسية ومواجل الماء وهو حصن عال متقن البناء والعمل وفي الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلو من خير فاضل يكون مدار القوم عليه وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين عن الأهل والعشائر وقال محمد بن يوسف: هو قصر كبير عال بداخله ربض واسع وفي الربض حصن ثانٍ كبير كثير المساكن والمساجد في طبقات عالية بعضها فوق بعض وفي القبلة منه حصن فسيح فيه قباب عالية متقنة تنزل حولها النساء المرابطات تعرف بقباب جامع وبها جامع متقن البناء وبها حمامات كثيرة وكان أهل القيروان يخرجون إليهم بالأموال والصدقات الجزيلة وبالقرب من المنستير ملاحة عظيمة تشحن منها السفن بالملح إلى البلاد وبقربها محارس متقنة البناء معمورة بالصالحين وليس بإفريقية أجل من محرس المنستير. انتهى.

وفي حسن البيان القصر المذكور سامي بضخامته قصر أجم من الهياكل لما تقدم من الأمم وفاق بإضافة الغرض ومتانة المقصد لأنه بني لمصلحة وهو الرباط وهو قصور ثلاثة شامخة ذات طبقات تشمل مئات من البيوت وقد بنيت بالحجارة العظيمة بأحكم صنعة وإتقان على غاية من الأحكام وفي وسطها مخازن للطعام ومواجل الماء ومستودعات آلات الحرب ومرابط الخيول وحولها القلاع الحصينة والحصون المنيعة يحيط بها أسوار شامخة التي تكاد تطرد الطير عن بلوغ أعلاها سمواً وشحنها العرب بالقوات والخيل والرجال فكان يقصده من جهات إفريقية أهل التقوى والفضل والإحسان. وقال الشيخ مقديش المهدية لم يكن لها جنات ولا بساتين وإنما يجلب إليها من المنستير ما تحتاج من الثمار. وبالمنستير قصور ثلاثة يسكنها العلماء والصالحون والأعراب لا تضرهم في شيء من ثمرهم ولا من عمارتهم لأنها محل رباط وعبادة وأهل المهدية يدفنون موتاهم فيها تبركاً وهاته القصور أبراجها منتظمة مع قرب بعضها بها بيوت بعضها على بعض محكمة البناء وحولها دور يحيط بها سور قد رصص بناؤه.

قلت: القصر الكبير متركب من قصور ثلاثة على الوصف الذي تقدم نقله عن الشيخ محمد بن يوسف ولم ينقص منه إلا القباب وله بابان قبليا المفتح واحد مفتحه في صحن الجامع الكبير الذي هو الآن مطموس والآخر هو مدخل القصر.

وبالمنستير قصران غير القصر الكبير أثبتهما بعض المؤرخين.

أحدهما: يعرف بقصر السيدة وقبرها بمقصورة بمسجد يعرف بالسيدة يزار إلى هذا الوقت أما القصر فلم يبق له أثر ومحله الآن دور بعض بيوتها عتيق جداً باقية على حالها إلى الآن ومن مشمولاته مسجد يشبه في البناء والقدم مسجد السيدة به مغارة تحت الأرض ومقصورة بها قبر والأقرب أنه قبر بعض ملوك صنهاجة ويعرف هذا القبر بسيدي عامر يزار حتى الآن. حكى لي شيخ مسن أنه يسمع سماعاً فاشياً أنه كان وقع شروع في حفر حذو القبر فإذا بنداء من القبر يقول: عامر عامر فمن ذلك الوقت عرف بسيدي عامر ومن مشمولاته أيضاً مسجد يشبه في البناء والقدم مسجد السيدة يعرف هذا المسجد بمسجد الرز والأقرب أنه حرف وأصله المعز ومن مشمولاته أيضاً قبة فيها قبر أبي الحسن علي السراج ويعرف الآن بسيدي السراج يزار.

ثانيهما: القصر الذي به الزاوية المعروفة بسيدي ذويب وفيها قبر معروف به يقال إنه من بيت ملوك بني الأغلب وفيها مسجد عتيق يظهر أنه أقدم من مسجد السيدة ولم يبق من هذا القصر إلا هاته الزاوية وباقيه هو الآن دور وهذان القصران والقصر الكبير ودور تعرف بالزريبة كانت مسورة بسور لم يبق له أثر إلا من الجهة الشرقية فلم يزل قائماً إلى هذا العهد وكان بين هذين القصرين داموس تحت الأرض ممتد إلى الجهة الغربية لا يعرف له حد وبعض الدور مواجلها مقتطعة منه.

عود إلى الكلام على القصر الكبير:

قال الشيخ مقديش: وقف لمصالح المرابطين جميع الأراضي المتصلة بالقصر لمرعى الدواب والزراعة لمن يروم ذلك وغرست جنات عظيمة بكل مثمر، وكانت بساتين قصر الرباط تشمل آلافاً من تلك الأراضي ينتفع بها أهل الرباط جميعاً لا فضل لأحدهم على الآخر، وكان معظم غزاة البحر يركبون منه وقد أحدث العرب عند قصر الرباط مدينة لها عمران عظيم وجنات وزياتين بكيفية عجيبة حتى كانت مدينة المهدية في عنفوان عمرانها وسطوة ملكها وقت الخلفاء العبيديين وملوك صنهاجة عالة على المنستير فيما تحتاجه من الثمار والفواكه وغير ذلك.

في حسن البيان نقلاً عن حاوي البرزلي بعد نقل جواب الإمام المازري عن مخازن بالمستير بالقصر الكبير مملوءة قمحاً وشعيراً لرجال مقيمين بالقصر ولآخرين غيب وعن زوار يغلقون مخازنهم ويخرجون فيقيمون شهرين ونحوهما وعمن له بيت بالقصر وهو يبيت خارجه ويأخذ من المعروف مثل من يبيت بالقصر وعن قوم من المرابطين بأيديهم من الأراضي أكثر مما بيد غيرهم وعن قوم غرسوا غراسة بأرض المنستير ما الحكم فيها؟ وهل إن من حقوق الغارس أن لا يخرج من يده ما غرس في حياته وهل يكون للناظر في ذلك إخراجها من يده في حال دون حال أو لا يكون له ذلك؟ وهل يورث عنه من الغرس ما غرسه؟

قال بعد نقل جواب الإمام عن هذا السؤال ما نصه: دخلتُ رباط المنستير في حدود عام ستين وسبعمائة فرأيته محفوظاً لا تدخله الناس، وكانت أحباسه محفوظة، وكان العرب لا يتعرضونه إلا بخير في دنياهم. ثم بعد ذلك جرت أمور على ما سمعت من تعرض العرب للحبس والدور وثمرات القصر ووقع الانتقاض منهم في المال والرجال وافتتن أهلها مع العرب حتى أدى الأمر إلى تلاشي غرسها ورحيل أهلها حتى صارت الآن لأمير المؤمنين فهي الآن على ما سمعت في عز وعافية، وعادة الله أن قصر الرباط لا يتحمل التخليط بوجه فمتى حدث فيه ذلك عوقبوا، وأما بقية غرسها وبياضها فهم اليوم يملكونه ولا أدري هل توصلوا إليه بحق أو هو كما قال الإمام فعلى هذا في أكل ثمار الموضع نظر إذ هو حبس إلا أن يكون جاء بقصد الرباط فيستحقه من هذه الحيثية، وكذلك تملك رباع البلد الدائرة بالقصر وجميع ما حوله من الأراضي مما ينسب إلى المنستير الذي يسمى القرطين وهو جميع دخلة القصر منسوب إليه انتهى حسن البيان. قلت: جواب الإمام عن السؤال طويل الذيل اشتمل على فوائد كثيرة نقله الونشريسي في معياره بنصه والقرطين مكان بعيد عن المنستير بنحو ثلاثة أميال أراضيه خصبة وقع الاعتناء بغراستها وزراعتها منذ عهد قديم وبها آبار كثيرة ودور اندثرت ومسجد لم يزل قائماً إلى هذا الوقت.

أول من تولى النظر على هذا القصر الأمير أحمد أحد ملوك بني الأغلب حين امتلأ القصر بالمرابطين وأجرى عليهم ما يلزم من النفقة وقد بلغ عدد المرابطين به في مدة سعدون الخولاني شيخ القصر المترجم له في الطبقة السابعة زهاء أربعة آلاف مرابط بين عالم وزاهد وصالح، وكانت ملوك الشيعة تخشاه ولما ضاق القصر على سكانه أضيفت الأراضي التي حوله حتى القرطين للقصر فبنى المرابطون دوراً حوله وغرسوا الأراضي التابعة له للانتفاع بها، وأول دور بنيت هي الدور المعروفة بالزريبة وكانت قليلة في زمن سحنون ولذا قال: إن إقامة الجمعة لا تجب على

أهلها، ثم استمر الحال على ذلك إلى أن آل أمر القصر والأراضي التابعة له إلى ما رأيت في السؤال الوارد على الإمام المازري ثم استمر تزايد بناء الدور والعمران إلى أن صارت مدينة مسورة بسور وذلك أواسط المائة السابعة ثم آل الأمر إلى ما رأيت في حكاية الإمام البرزلي، وفي أوائل المائة التاسعة كان شيخ القصر أبا عبد الله محمد بن أبي زيد المترجم له في الطبقة السابعة عشر وكان به من التلامذة ما يزيد على المائة رحلوا إليه من الآفاق وكل مَن حلّ به يجد مسكناً يأوي إليه ومعلماً يؤدبه ويعلمه القرآن والعلوم الدينية ويجد ما يلزم من أمر المعيشة وهي أمور تعين على طلب العلم ولا يخفى أن أكبر الأعوان وأهمها فراغ البال من أمر المعيشة وكانت الأرزاق تأتي إليهم وإلى من به من المرابطين من أوقافه ومن جهات إفريقية كقفصة ونفزاوة وقابس والجزيرة والقيروان وغيرها ثم قام ابنه أحمد واستمر الحال على ذلك إلى أن استولى عليه الإسبان أواسط المائة العاشرة فهدم منه جانباً بعدما قتل وأسر مَن لا يعد كثرة نقل ذلك الشيخ عظوم في أجوبته ثم أصلحه وأصلح المنار الذي به، وقيل هو الذي أسسه ثم أفتكه منه الترك وصار أمره إلى الانحلال والتقهقر تحت نظر حفدة الشيخ ابن أبي زيد إلى أوائل القرن الثالث عشر صيره الأمير حمودة باشا معقلاً حربياً ونقل الطلبة الذين به لزاوية سيدي ذويب المتقدم الذكر وأجرى على عشرة منهم النفقة من أوقاف زاوية الشيخ أحمد بن أبي زيد المذكور وجعل لهم مؤدباً يعلّم القرآن ومدرّساً يقرىء مبادىء العلوم الدينية جرايتهما من الأوقاف المذكورة ونظرهم لقاضي المكان، ثم إن الباشا حسين بن محمود باي جعل به سنة 1246هـ العساكر النظامية وشحنه بآلات الحرب، وفي أيام المشير أحمد باشا كان به من العساكر النظامية نحو ثلاثة آلاف واستمر الحال على ذلك إلى أن نصبت فرنسا حمايتها على الإيالة التونسية سنة 1298هـ فأزالت ما به من الذخائر وآلات الحرب حيث صارت غير صالحة للدفاع وأغلقته واستولى عليه الخراب واعتبرته وأسوار المدينة الحكومة من الآثار العتيقة وصدر أمرها بالمحافظة عليها تحت نظر جمعية الأوقاف والإدارة الحربية. ولما قامت الحرب الكبرى المشار لها آخر التتمة وقع إسكان جماعة به من أسارى الألمان وتسخيرهم لإصلاح الخراب الذي به وأقاموا به أشهراً ثم نقلوا وسكن به طائفة من جالية دولة الروسيا عند استيلاء جمهورية السوفيات على بلاد القريم مع طائفة من عساكر الاحتلال ثم خرجوا وبقيت به العساكر إلى هذا الوقت، والحاصل أن القصر إلى هذا العهد آثاره تدل على أنه كان في العهد القديم آية دالة على عظمة العرب خالدة إلى الآن.

تلك آثارن تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وهو إلى هذا الوقت على طبقات ثلاث به منارة سامية الارتفاع قامت كأنها عمود مخروط يستطلع منها المستطلع فيرى ما يملأ النفوس بهجة وحسناً فيرى المدينة وما حولها من حدائق الزيتون والبساتين الملتفة كأنها بسيط أخضر جميل المنظر مد البصر يتخلل ذلك البسيط قرى تحف بها حدائق الزيتون يرف غضارة ونضارة ويرى مدينة سوسة العروسة القريبة منها بنحو أحد عشر ميلاً بحراً ويشاهد مبانيها الأنيقة. وبالجملة فإنه لا إشراف كإشرافه حسناً وجمالاً واتساع منظر يروق ويرمي الأبصار بهجة ونوراً، وبالقصر قبور كثير من العلماء والصلحاء وغالبهم مجهول الاسم أو محرّف والمعروف منهم أبو عبد الله بن أبي زيد وأبو الفضل يوسف بن نصر وسعدون الخولاني والشيخ الشريف وبهذا يعرف والشيخ جابر المهدوي وبخارج القصر على يسار الداخل له بيت به قبر الإمام أبي عبد الله بن يونس الصقلي ويعرف بسيدي الإمام وبالقرب منه قبة بها قبر يعرف بسيدي مفتاح عتيقة.

هذا ما يتعلق بالقصر أما ما يتعلق بالمدينة فقد تقدم أن القصور الثلاثة كانت مسورة بسور ثم أزيل وذلك بعد حصول زيادة كثيرة في الدور وأضيفت للقصور وما حولها من الدور وسورت بسور وهي المعروفة الآن بحومة المدينة بها مساجد كثيرة عتيقة منها مسجد يعرف بمسجد الإمام المازري ومسجد يعرف بمسجد أبي يوسف الدهماني به قبر يزار وبالجهة الغربية من هذه الحومة ربض يعرف بالربض الأوسط وبابه يعرف بالباب الجديد به سوق واسع الفناء زاهي البناء وهو مجتمع الناس للتجارة وغيرها وبه الجامع الحنفي ومن الجهة الجوفية منه مسجد عتيق يعرف بمسجد المرأة الصالحة عافية ويشمل هذا الربض حومتين الجبانة والشراقة وبه مقام أبي بكر الحنفي المترجم له في الطبقة الرابعة عشر والشيخ الحياص قديم العهد ومقام الشيخ الهلالي قديم العهد أيضاً ومقام الشيخ المجدوب بو طارة الحنفي من أهل المائة الثانية عشر وبالجهة الغربية من هذا الربض ربض يعرف بالربض الأقصى ويشمل حومتي باب الفرج والطرابلسية به تربة الشيخ عمر القلال من أهل القرن الثاني عشر وفي القديم كان على كل منها سور ثم أزيلت الأسوار الفاصلة بين الربضين وحومة المدينة ولم يبقَ منها إلا السور المحيط بجميعها وأما الربض الجوفي من هذين الربضين فمسور بسور على عهد علي باشا ابن حسين باشا وبذلك صارت مدينة فسيحة الأرجاء لها ربضان جوفي ويعرف بربض الخروبي وبقربه مسجد يعرف بمسجد السراة غمره البحر ولم يبق له أثر وقبلي ويعرف بالقراعية على شاطىء البحر به آلاف المباني الأنيقة فللعين هناك منظر وانشراح وللنفس مزيد انبساط

وانفساح وبه مقام الشيخ منصور بيزيد ومقام الشيخ مسعود الخزرجي قبل مقام الشيخ العربي وهو عتيق جداً وعلى شاطىء البحر داموس منحوت في جبل يعرف بالكحلية يقال إنه كان معداً لمصيف بعض أمراء الرومان أو مقراً لطائفة من الرهبان وبالجهة الغربية من المدينة مع انحراف إلى جهتي القبلة والجوف حدائق الزيتون والبساتين ذات الأشجار الملتفة اليانعة يحيط بجميع ذلك قبلة وشرقاً وجوفاً البحر في شبه شكل مثلث زاويته المدينة ولتلك الأشجار ومنها التي ببساتين شقاقص ثمرات طيبة النكهة سيما التفاح له خاصية من الفضل عجيبة لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت إليك فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه وحسن منظره عن أكلك إياه يهدى للأحبة والأمراء والخاصة من الفضلاء وبالجملة فتربتها نقية وهواؤها صحيح منعش للنفوس والأبدان في كل وقت وزمان وبغالب دورها المواجل والآبار منها ما هو صالح للشرب ومنها ما هو غير صالح وفي سنة 1321هـ أسست الحكومة شركة تعرف بشركة مياه الساحل لجلب الماء المنهمر المتسرب من عيون معينة من ولجة أبي حفنة بعمل القيروان في قنوات الحديد وأنابيب الرصاص يتفرع إلى فرعين كل فرع ينقسم إلى مذانب يخترق بسائط وعمائر وقرى وما من قرية مرّ عليها إلا ولها نصيب من ذلك الماء. فرع ينتهي إلى سوسه، وفرع ينتهي إلى المسنتير وحصل بذلك نفع عظيم ومنحت الشركة الاشتراك فيه لأصحاب الدور والبساتين والحمامات وغيرها بثمن معين من المال يدفع سلفاً في كل ستة أشهر والقدر المستهلك منه يعرف بمنقالة الماء وهي آلة تشبه منقالة الساعة الزمنية.

أهلها معروفون بالذكاء وكرم الأخلاق والتواضع فلا تلقى منهم إلا وجهاً طلقاً وكلمة لينة ولهم كرامة للغرباء وإقبال عليهم. سنتهم في المعاشرة عجيبة وسيرتهم في التزام رتبة الخدمة غريبة مع الكد والجد والوفاء بالعهد. محافظون على عوائد أسلافهم ومعتنون بتهذيب أخلاق أولادهم ولهم اعتدال في معاملاتهم وليس لهم الآن كبير حظ في التجارة لقربها من سوسه المقصودة براً وبحراً لتحسين مرساها التحسين العصري. أما قبل هذا التحسين فقد كان للمسنتير الحظ الأوفر في تجارة الزيت وغيره براً وبحراً.

سكانها زهاء عشرة آلاف نفس ومع قلة هذا العدد بالنسبة للحواضر غيرها فإن كثيراً من الخطط النبيهة بأيديهم فلا يخلو منهم ديوان من دواوين الحكومة وفيها كثير من ذوي البيوتات النبيهة كبيت ابن أبي زيد وبيت مخلوف وبيت مزالي وبيت نويرة وبيت بوزقرو وبها مجلس شرعي متركب من قاض ومفتيين وبها مدرسون خمسة

يقرؤون العلوم الدينية وواحد يقرىء فن القراءات وفيها مكتب تبرع به بعض أهل البر لتعليم أبناء المسلمين القرآن العظيم وبعض مبادىء العلوم الدينية به الآن ما يربو على مائة تلميذ.

وفيها مكتب ذو طبقتين حفيل ينقسم إلى قسمين قسم للذكور وقسم للإناث لتعليم أولاد الأهالي على اختلاف أديانهم مبادىء اللغة الفرنساوية ومبادىء بعض العلوم العصرية به نحو سبعمائة تلميذ وفي سنة 1327هـ أحدث بها مستشفى غاية في الاحتفال مع الاتساع وكثرة المرافق جار الآن على استقامة لاهتمام الحكومة به. أوقف عليه الأهالي ما يربو على ألفي أصل زيتوناً وألفت رسالة لطيفة سميتها بالمازري في فضيلة المستشفيات والطب وتعرضت فيها لترجمة بعض المشهورين بعلم الطب وما لهم من المؤلفات فيه كابن رشد وابن زهر والمازري.

وبالمنستير معمل وآلات لصيد الحوت المعروف بالتن شهرته تغني عن التعريف به والمنستير معدودة عند الحكومة من الحواضر الأربع التي لها مزيد اعتبار القيروان وسوسه وصفاقس وقريب عهد كانت هاته الحواضر الأربع وتونس معفاة من أداء المجبا.

ذكر من بالمقبرة من الفضلاء

المقبرة بفتح الميم وتثليث الباء موضع السرور ومقبرة المنستير بالجهة الجوفية بها قبور كثير من العلماء والزهاد والصلحاء والكثير منهم ذهب اسمه أو غيّر اسمه ورسمه وغالب قبور هؤلاء الأفاضل بالعتيقة غمرها البحر ولم يبق لها أثر فدثرت بسبب ذلك مشاهدهم المباركة وذهب على أهل البلد أسماؤهم ولنذكر ما أمكن معرفة اسمه أو قبره منهم أبو زكرياء الحداد وأبو الحسن الكانشي وابن العطار وابن سعدي وأبو إسحاق الصفاقسي وهؤلاء تقدم ذكرهم في المقصد وابن الفرس من بيت عبد المنعم بن الفرس الأندلسي وأبو علي الدبوسي وأبو الفضل الغدامسي الذي مقامه بالجزيرة قرب المقبرة وتقدم ذكره في المقصد وبالقرب منه قبر الشيخ السنفاج وبالمقبرة مقام الشيخين عبد الغني المزوغي وأبي علي يونس بن السماط وتقدمت الإشارة إليه في المقصد مع أخيه أبي يعقوب يوسف ونقلاً من مدفنيهما الأول إلى المقام المذكور حين خشي عليهما من البحر ومقام الإمام المازري منقوش بحجر فوق الباب أنه نقل ومعه كثير من العلماء وتقدم نقله بنصه في ترجمته بالمقصد وذلك حين خيف عليهم من البحر على عهد الباشا علي ابن الباشا حسين وعلى عهده كان

إصلاح الجامع الكبير وتأسيس الجامع الحنفي وبناء سور الربض الجوفي ومقام أحمد بن أبي زيد المترجم له بالمقصد نقل إليه سنة 1310هـ من مقامه الأول وكان عليه بناء حفيل ضمه البحر إليه بعد النقل ولم يبق له أثر الآن ومقام الصالحة البرقاوية وقبور تحت السور تعرف بقبور بنات السلطان ومقام الشيخ الطرودي وصدر الإذن بنقلته حيث تهيأ البحر لجذبه ومقام جد العبد الفقير الشيخ عمر مخلوف الشريف وهو من فريق أولاد مخلوف الذين ينسبون أنفسهم لذلك وينسبهم الناس إليه خلفاً عن سلف وكان بأيديهم ظهير من أمراء إفريقية في إعفائهم من المطالب الدولية ومن هذا الفريق الشيخ مخلوف الشرياني الذي قبره بشريانة القريبة من صفاقس، قال الشيخ مقديش: ومن مشايخ صفاقس الشيخ مخلوف الشرياني أصله مغربي صحب الشيخ العياشي بطبلبة وهو من أكابر الصالحين والعلماء العاملين له تخميس على بردة المديح وله عقب بأيديهم ظهير من أمراء الحفاصة وأمراء العساكر العثمانية. انتهى.

وقوله مغربي يعني من فرقة بالمغرب أشار لها الشيخ العياشي في آخر رحلته حيث قال: ثم مررنا بأولاد سيدي مخلوف هم فقراء أشراف. انتهى.

والجد عمر مخلوف المذكور مقامه متبرك به كان معتقداً من أكابر الصالحين كثير الكرامات وكان بالحياة أوائل القرن الحادي عشر ومن أخص أصدقائه الشيخ عبد الرحمٰن الجندولي ومقامه بالمقبرة والشيخ منصور بيزيد الذي مر ذكره قريباً والمرأة الصالحة عائشة الفتحية التي مقامها قريب من مقام الجد وهم معروفون بالصلاح معاصرون للشيخ المربي المعتقد الكثير الاتباع أبي شامة عامر ابن الشيخ سالم الشهير بالمزوغي صاحب الزاوية الشهيرة بالساحل بين سوسة والمنستير المتوفى سنة 1049هـ المتولد سنة 929هـ ووالدته ريانة بنت الشيخ نصر الشارف الذي مقامه ببلد الساحلين وبالمقام قبر الشيخ سالم المذكور وكانت طريقة الشيخ عامر جزولية وكان من أصحاب أبي الغيث القشاش وتاج العارفين البكري وتقدم ذكرهما في المقصد وأقام بصفاقس نحو الخمسين عاماً ومنها انتشر ذكره.

وبالمقبرة ألواح وأعمدة من حجر كثيرة منقوش عليها بالقلم الكوفي مبعثرة وأكثر من ذلك ما دس في القبور والحيطان وجعل أعمدة سقف عليها كما هو مشاهد الآن بمقام الإمام المازري وبمقام أبي علي السماط وغيرهما وبعضها مكسر لا يمكن حصول نفع منه بحال.

عود إلى الكلام على قصر السيدة:

في المؤنس أن بني زيري دار ملكهم أولاً المنصورية ثم انتقلوا إلى المهدية في زمن المعز بن باديس ومدفنهم بالمنستير بقصر السيدة وكان لهم ناموس وعساكر عديدة وبلغوا رتبة السلاطين، وقال ابن خلكان نقلاً عن كتاب الجمع والبيان لأبي محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز أنه جرت العادة أن كل أمير من هذا البيت يدفن في قصره ثم ينقل بعد سنة إلى قصر السيدة بالمنستير.

قلت: ومن المقبورين بهذا القصر الذي مر وصفه قريباً وقبرها غير معروف أم ملال قال ابن العذاري هي أخت نصير الدولة باديس بن منصور عمة المعز، وهي أول مَن بايعته وهنأته بالولاية في المهدية، وتوفيت سنة 414هـ انتهى.

ومن المقبورين بالقصر وقبرها معروف لهذا الوقت في مقصورة بمسجد يزار يعرف بالسيدة، قال ابن العذاري: وفي سنة 412هـ توفيت السيدة زوجة نصير الدولة وكفنت فيما لم يذكر أن ملكاً من الملوك كفن بمثله فحكى من حضره من التجار أن قيمته مائة ألف دينار وجعلت في تابوت من عود هندي قد رصع بالجواهر وكانت جنازتها لم ير مثلها وكانت مسامير التابوت بألفي دينار وفي سنة 413هـ أعرس المعز فكان له عرس ما تهيأ لأحد قط من خلفاء الإسلام وشرحه الرقيق في كتابه تركناه اختصاراً. انتهى.

وفي المؤنس أنها جدة المعز توفيت سنة 411هـ وكفنها بما قيمته مائة ألف دينار وعمل لها تابوتاً من العود الهندي مرصعاً بالجوهر وصفائح الذهب وسمر التابوت بمسامير الذهب وزنها ألف مثقال وأدرجت في مائة وعشرين ثوباً وذر عليها من المسك والكافور ما لا حد له وقلد التابوت بإحدى وعشرين سبحة من نفيس الجوهر وحملت إلى المنستير ودفنت بها وأمر المعز بخمسين ناقة ومائة رأس من البقر وألف شاة فنحرت وفرق في مأتمها على النساء عشرة آلاف دينار. انتهى.

قلت: ما صرح به ابن العذاري من أنها والدة المعز مخالف لما في المؤنس من أنها جدته والذي صرح به ابن عذاري هو الصواب وما في تاريخ الشيخ مقديش يؤيده ومحل الحاجة منه كتب الشيخ سيدي محرز بن خلف كتاباً إلى باديس ولما وصل إليه قرأه وعمل بما فيه من النصائح ثم بعثه إلى السيدة وقال لحامله: قل لها هذا كتاب سيدي محرز فاحتفظي عليه ولعل بركته تعود عليك، ولما وصل لها قرأته ثم طيبته وخرزت عليه وكانت حاملاً فولدت المعز في جمادى الأولى سنة 398هـ انتهى.

والمعز تقدمت ترجمته في التتمة وكان ملكاً جليلاً عالي الهمة محباً لأهل العلم كثير العطاء وكان واسطة أهل بيته ولما توفي نقل من قصره ودفن بقصر السيدة وذكرنا قريباً أن المسجد المعروف بالدز محرف والصواب المعز ومن المقبورين بالقصر وقبره غير معروف أبو يحيى تميم بن المعز كانت له فضائل وأشعار كثيرة ومن شعره قوله:

إن نظرت مقلتي لمقلتها تعلم مما أريد نجواه
كأنها في الفؤاد ناظرة تكشف أسراره وفحواه

وقوله:

فكرت في نار الجحيم وحرها يا ويلتاه ولات حين مناص
فدعوت ربي أن خير وسيلتي يوم المعاد شهادة الإخلاص

ولابن رشيق فيه مدائح وكان يجيز الجوائز السنية ويعطي العطاء الجزيل وقصدته الشعراء من الآفاق على بعد الدار كابن السراج السوري وأنظاره مولده سنة 422هـ وتوفي سنة 501هـ ودفن بقصره ثم نقل لقصر السيدة بالمنستير وخلف من البنين أكثر من مائة ومن البنات ستين على ما ذكر حفيده عبد العزيز بن شداد بن تميم ومن المقبورين بقصر السيدة أبو الطاهر يحيى بن تميم المذكور لما تمت له البيعة قام بالأمر وعدل في الرعية وفي أيامه وصل للمهدية محمد بن تومرت قادماً من الحج فنزل بالمهدية وشرع في تغيير المنكر ثم انتقل إلى المنستير ثم إلى بجاية، وقيل إن إقامته بالمهدية كانت في أيام تميم المذكور وتقدم بعض خبره في ترجمة يحيى المذكور في التتمة وفي ترجمة أبي بكر بن العربي في المقصد وكان الأمير يحيى المذكور كثير المطالعة لكتب الأخبار والسير عارفاً بها مقرباً لأهل العلم والفضل وله نظر حسن في صناعة النجوم والأحكام وكان عنده جماعة من الشعراء قصدوه ومدحوه وخلدوا مدحه في دواوينهم، ومن جملة شعرائه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز. وتوفي يوم عيد النحر سنة 509هـ، ودفن بقصره ثم نقل لقصر السيدة على ما جرت به العادة وقام مقامه ابنه أبو الحسن علي وكان جواداً مفضالاً من الأذكياء محباً للعلم والعلماء. وتوفي سنة 515هـ بالمهدية ثم نقل لقصر السيدة على ما جرت به العادة. ولأبي الصلت المذكور منزلة جليلة عنده. ومن شعر أبي الصلت في أبي الطاهر يحيى المذكور القصيدة التي مستهلها:

قضى الله أن تفنى عداك وأن تبقى وتخلد حتى تملك الغرب والشرقا

قال: أنشدت يحيى بن تميم هاته القصيدة وخاصته بين يديه وعبد العزيز بن عمار في الجملة وكان في هاته الصناعة أبصر الجماعة. فقال له يحيى: كيف ترى ما تسمع؟ قال: حسن الحوك محكم السرد. فقال له: أتعرف قائله؟ قال: لا. قال: هو ذلك الجالس يشير إليّ. فعلاه بسبب ذلك فتور ونفور عن الاستماع بحسب ما يعرض من العوام الرعاع عندما ينشدون لمن جمعهم وإياه مكان وزمان وإنما عنوا بامتداح القديم وتعظيم العظم الرميم وسببه الحسد وكثيراً ما يعدون الصواب محالاً والصداء آلاً والقوام اعوجاجاً والعذب ملحاً أجاجاً. انتهى.

قلت: قال بعضهم: المعاصرة أصل المنافرة. وقال شيخنا حسين بن أحمد: المعاصرة حجاب.

وأبو الصلت هذا مقبور بالمنستير وقبره غير معروف وهو ابن الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي يكنى بالأديب الحكيم. في صلة ابن الآبار: خرج من بلاده ابن عشرين سنة يطلب العلم فتفنن في العلم والآداب والعروض والتاريخ وسجن أثناء ذلك ثم تخلص من اعتقاله فنزل بالمهدية على رأس الخمسمائة في كنف أمرائها الصنهاجيين يحيى بن تميم بن المعز وولده على عشرين سنة وكان من أفراد العلماء وفحول الشعراء والأدباء وله تآليف في فنون شاهدة بفضله ودالة على سعة علمه، وقد أوردت له في تأليفي تحفة القادم كثيراً من شعره وكتب إلي أبو جعفر بن عات أن أبا الحسن بن المفضل أنشده بالإسكندرية قال: أنشدني عبد الله بن يوسف القضاعي قال: أنشدني أبو الصلت أمية بن عبد العزيز قال: أنشدني أبو محمد التكريتي من تلامذة الغزالي لأبي حامد هذا ولم أسمعه من غيره، ولا ذكر له أبو الصلت، في الحديقة:

جعلت عقارب صدغه في خده ... قمراً يجلّ سنى عن التشبيه
ولقد عهدناه يحل ببرجها ... فمن العجائب كيف حلت فيه

أفادني أكثر خبره بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عبد الخالق الخطيب بالمنستير توفي سنة 520هـ أو بعدها يسير انتهى.

وفي حسن المحاضرة: أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني الأندلسي قال في العبر: كان ماهراً في علوم الأوائل رأساً في معرفة الهيئة والنجوم والموسيقى والطبيعي والرياضي والإلّهي كثير التصانيف بديع النظم مات سنة 528هـ عن ثمان وستين سنة انتهى.

وقال ابن خلكان: أبو الصلت أقام تحت كنف الأمير يحيى بعد أن جاب الأرض وتقاذفت به البلدان وله فيه مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن وله أيضاً مدائح في ولده أبي الحسن علي وولد ولده الحسن وأخذ عن جماعة من أهل الأندلس وغيرها منهم أبو الوليد الوقشي قاضي دانية وسابق فضلاء زمانه وأهل عصره وأوانه يقال: إن عمره ستون عاماً عشرون بإشبيلية وعشرون بإفريقية عند أمرائها الصنهاجيين وعشرون في مصر محبوساً في خزائن الكتب فخرج في فنون من العلم إماماً وأمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين وله في ذلك وغيره تآليف تشهد بفضل منها كتاب الحديقة على أسلوب يتيمة الدهر للثعالبي وكتاب ذيل به كتاب الرقيق فيما وقع في دولة باديس وأبيه وجده وكان له شعر جيد رقيق جمعه في ديوان خاص وصنف وهو في اعتقال الأفضل وهو بمصر رسالة العمل بالأسطرلاب وكتاب الوجيز في علم الهيئة وكتاب الأدوية المفردة وكتاب تقويم الذهن في المنطق وكتاب الانتصار في الرد على ابن رضوان في رده على حنين بن إسحاق في مسائله وله الرسالة المشهورة التي وصف بها مصر وعجائبها وله غير ذلك وكانت له منزلة جليلة بالمهدية على صاحبها علي بن يحيى بن تميم وولد له بها ولده عبد العزيز وكان شاعراً ماهراً وله في الشطرنج يد بيضاء وتوفي ببجاية سنة 546هـ وتوفي أبو الصلت سنة تسع أو ثمان وعشرين وخمسمائة ونظم أبياتاً أوصى أن تكتب على قبره:

سكنتكِ يا دار الفناء مصدقا ... بأني إلى دار البقاء أصير
وأعظم ما في الأمر أني صائر ... إلى عادل في الحكم ليس بجور
فيا ليت شعري كيف ألقاه عندها ... وزادي قليل والذنوب كثير
فإن أك مجزياً بذنبي فإنني ... بشرّ عقاب المذنبين جدير
وإن يك عفو منه عني ورحمة ... فثم نعيم دائم وسرور

انتهى باختصار. وانظر معه نفح الطيب ورحلة التجاني.

أما نصير الدولة باديس فقد قال ابن خلكان: توفي في ذي القعدة سنة 406هـ عقب سرور حصل له عند عرض عساكره عليه وهو في قبة السلام جالس إلى وقت الظهر وسره حسن عسكره وأبهجه زيهم وما كانوا عليه وانصرف إلى قصره ثم ركب عشية ذلك النهار في أجمل مركوب ولعب الجيش بين يديه ثم رجع إلى قصره شديد السرور فلما مضى مقدار نصف الليل توفي، وفي كتاب الدول المنقطعة أن سبب موته أنه قصد طرابلس ولم يزل على قرب منها عازماً في قتالها وحلف أن لا يرحل

عنها حتى يعيدها قال: فاجتمع أهل البلد عند ذلك إلى المؤدب محرز وقالوا: يا ولي الله قد بلغك ما قاله باديس فادع الله أن يزيل عنا بأسه فرفع يديه إلى السماء وقال: يا رب باديس أكفنا باديس. فهلك في ليلته بالذبحة. انتهى.

قلت: لعل المؤدب محرز كان في تلك الأيام بطرابلس وإلا فهو من أهل تونس وسكانها وهي بعيدة عن طرابلس مسيرة نحو عشرة أيام والذي في المؤنس أنه توفي بالمغرب في قتال زناتة تأمل. وباديس ووالده وجده مدفنهم صبرة وملوك هذا البيت مرت ترجمتهم في التتمة وكان المعز بن باديس يعظم الشيخ محرز بن خلف ويكاتبه من ذلك كتابٌ فاتحته: هذا ظهير كريم من القائم الناصر لدين الله المعز بن باديس إلى الشيخ الصالح الكبير القدر محرز بن خلف إلى آخره وكانت بينه وبين باديس مكاتبات وقد مر قريباً الإشارة إلى ذلك وسترى ما يؤيد ما ذكرناه. انتهى ما قصدناه وتم بفضل الله ما أثبتناه بعدما استعنت به في الإسعاد والإسعاد واستجرت به نعم المجير في المبدأ والمعاد وأنجر الحديث وهو شجون يجر بعضه بعضاً إلى الشيخ محرز فخر الإسلام ومعتقد الخاص والعام ناسب أن نختم هاته الشجرة وختامها مسك بذكر البعض من فضيلته والمرجو من الله الحصول على شيء من بركة من ذكرناه بالشجرة وبركته ومعلوم أنه عند ذكر مثل أولئك السادات تنزل الرحمات والمرجو أيضاً إنزال رحمته ودوام نعمته وإليك ترجمته ومحرز هو أبو محفوظ محرز بن خلف بن رزين بن يربوع بن حنظلة بن إسماعيل بن عبد الرحمٰن ابن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنهم وأفاض علينا من أنوارهم وكسانا بعض حلل أسرارهم الشيخ المعتقد المشهور لدى الخاصة والجمهور بالعلم والعمل والفضل المؤدب المربي العارف بالله الواصل الولي الكامل الكثير الكرامات والمناقب والحسنات كانت له اليد البيضاء في إعزاز السنة وإخماد البدع مع الدين المتين والزهد والورع نفعه الله بنيته وتغمده برحمته. كان مجلسه مجلس وعظ مع كرم أخلاق وحلم يقول الشعر ويجيده وكان في ابتداء أمره يسكن بالمرسى لا يألفه إلا أصحابه فلما سكن تونس انبسط للفقراء والغرباء حتى كثر أتباعه فصار منهم من يصافحه ومن لم يصل إليه فيلتمس أثوابه بيده ويمسح بها على وجهه. أخذ عن واصل بن عبد الله القيرواني المشهور بالعلم والصلاح وروى عن أبي إسحاق الدينوري وكتب إليه أبو بكر الأبهري وروى عنه حاتم الطرابلسي ومن لا يعد كثرة وكانت وفاته سنة 413هـ وقد ناف عن السبعين وضريحه بتونس عليه بناء غاية في الاحتفال والدعاء عنده مجرب الإجابة وهو الذي دعا أبا محمد عبد الله بن أبي زيد لتأليف ما يجب تعليمه لأبناء المسلمين وأجاب دعوته وألّف الرسالة وإليه الإشارة

في خطبتها بقوله فإنك سألتني إلى آخره فأجبتك إلى ذلك وفي المدارك جاء بعض طلبته إليه طالباً منه أن يكتب كتاباً إلى باديس يعرف عنه ما هو فيه فأخذ قرطاساً وكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم حقق الله الحق في قلوب العارفين من عباده ونقل المذنبين إلى ما افترض عليهم من طاعته أنا رجل عرف كثير من الناس اسمي وهذا من البلاء وأنا أسأل الله أن يتغمدني برحمة منه وفضل وربما أتاني المضطر يسأل الحاجة فإن تأخرت خفت وإن ساعدت فهذا أشد وقد كتبت إليك في مسألة رجل من الطلبة طولب بدراهم ظلماً ولا شيء له وحامل رقعتي يشرح إليك ما جرى فعامل فيه من لا بد لك من لقائه واستحِ ممن بنعمته وجدت لذيذ العيش واحذر بطانة السوء فإنهم إنما يريدون دراهمك وشاور في أمرك مَن يتق الله ومَن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ومَن يتق الله يجعل له مخرجاً واستعن بالله فإن من يتوكل عليه فهو حسبه انتهى.

هذا وما قصدت جمعه بهذه الشجرة قد انتهى وبلغت فيه ولله الحمد سدرة المنتهى وأدركت الغاية من ذكر سادات مداركهم سامية ومعارفهم راقية وأنفاسهم زاكية روح الله أرواحهم وأسكننا جوارهم في جنة عالية قطوفها دانية لا تسمع فيها لاغية ونسأله وهو لا تخفى عليه خافية الإخلاص في النية سراً وعلانية وله الحمد باطناً وظاهراً أولاً وآخراً. وصل اللهم وسلم وبارك على أشرف النبيين سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكان الفراغ من ترتيبه وتهذيبه في المحرم سنة 1340هـ ثم وقعت زيادة جمل اقتضاها الحال ونسأله خلوص النية في الأقوال والأفعال.

استدراك

نظراً لما وقع في الأربعين حديثاً الثنائية المذكورة في المقصد ـ آخر الطبقة الثالثة ـ من تحريف ونقص أعيد تحريرها هنا بعد مزيد التحري والاهتمام، ومقابلتها بنسخ من كتاب الموطأ. والعمل على نصها هذا، ولا عمل على ما كتب بآخر الطبقة الثالثة.

تنبيه: أخذ مالك بن أنس رضي الله عنه عن أعلام من أئمة الدين وهم كثيرون جداً واقتصرنا على ذكر شيوخه المذكورين بالطبقة الثالثة وشيوخ شيوخه المذكورين بالطبقة قبلها لأنهم المروي عنهم ثنائيات الموطأ وهي تنيف عن مائة حديث، وأثبتنا أربعين حديثاً منها هنا تبركاً واتباعاً لقوله ﷺ: «مَن قرأ على أمتي أربعين حديثاً كنت له شفيعاً يوم القيامة» وفي رواية «مَن حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كما سمعها كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة»[1] والأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى. وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

ما جاء في صفة النبي ﷺ

1 ـ مالك عن ربيعة بن عبد الرحمٰن عن أنس بن مالك أنه سمعه يقول: كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير وليس بالأبيض الأمْهَق ولا بالآدم ولا بالجَعْد القَطِط ولا بالسّبطِ بعثه الله على رأس أربعين سنة فأقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء[2].

(1) الجامع الصغير للسيوطي ص524 رقم 8636 برواية ابن عباس ورواية رقم (8637) عن أبي سعيد الخدري وصححه.

(2) أخرجه مالك في موطئه كتاب صفة النبي ﷺ باب ما جاء في صفة النبي ﷺ ص(801) حديث رقم 1 مطبعة فضالة المغرب السنة 1996م.

ما جاء في الرؤيا

2 ـ مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[1].

حديث نبع الماء من تحت أصابعه

3 ـ وبه أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتمس الناسُ وَضُوءاً فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء في إناء فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده ثم أمر الناس يتوضؤون منه. قال أنس: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم[2].

الترغيب في الصوفة

4 ـ وبه أنه سمع أنس بن مالك يقول: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً من نخل وكان أحبُّ أمواله بيرُحاء. وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذُخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث شئت قال: فقال رسول الله ﷺ: «بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح وقد سمعتُ ما قلتَ فيه وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: افعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[3].

---

(1) مالك في كتاب الرؤيا، باب ما جاء في الرؤيا، حديث (1) ص829.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل باب في معجزات النبي ﷺ حديث (2279) من رواية أنس بن مالك، وابن حبان في صحيحه حديث (6539) 14/ 477.

(3) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة باب زكاة الأقارب، ومسلم في كتاب الزكاة باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج، مالك في موطئه من كتاب الصدقة باب الترغيب في الصدقة حديث (2).

ما جاء في المهاجرة

5 ـ مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَبَاغَضوا ولا تَحَاسَدوا ولا تَدَابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يَحلُّ لمسلم أن يهاجر أخاه فوق ثلاث ليال»[1].

السنّة في الشراب ومُناولته عن اليمين

6 ـ وبه أن رسول الله ﷺ أُتي بلبن قد شيب بماء وعن يمينه أعرابيٌّ وعن يساره أبو بكر فشرب ثم أعطى الأعرابي وقال: «الأيمنَ فالأيمن»[2].

ما جاء في النهي عن تأخير صلاة العصر

7 ـ مالك عن العلاء بن عبد الرحمٰن أنه قال: دخلنا على أنس بن مالك بعد الظهر فقام يصلي العصر فلما فرغ من صلاته ذكرنا تعجيل الصلاة أو ذكرها فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تلك صلاة المنافقين تلك صلاة المنافقين تلك صلاة المنافقين يجلس أحدهم حتى إذا اصفرت الشمس وكانت بين قرني الشيطان أو على قرن الشيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»[3].

ما جاء في الوليمة

8 ـ مالك عن حميد الطويل عن أنس بن مالك أن عبد الرحمٰن بن عوف جاء إلى رسول الله ﷺ وبه أثر صفرة فسأله رسول الله ﷺ فأخبره أنه تزوج فقال رسول الله ﷺ: «كم سقت إليها؟» فقال: زِنة نواة من ذهب، فقال له رسول الله ﷺ: «أولم ولو بشاة»[4].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب الهجرة وقول رسول الله ﷺ: «لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث» ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر، ومالك في موطئه كتاب حسن الخلق باب ما جاء في المهاجرة حديث (14).

(2) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة باب الأيمن فالأيمن، مسلم في كتاب الأشربة باب استحباب إدارة الماء واللبن ونحوهما عن يمين المبتدىء، ومالك في موطئه من كتاب صفة النبي ﷺ باب السنة في الشرب ومناولته عن اليمين حديث (17).

(3) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب التبكير بالعصر، ومالك في موطئه في باب النهي عن الصلاة بعد الصبح وبعد العصر كتاب القرآن حديث (46).

(4) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب الصفرة للمتزوج ومسلم في كتاب النكاح باب الصداق وكونه تعليم قرآن وخاتم حديد، ومالك في موطئه من كتاب النكاح باب ما جاء في الوليمة، حديث (49).

ما جاء في الحجامة وإجارة الحجام

9 ـ وبه أنه قال: احتجم رسول الله ﷺ حَجَمَه أبو طيبة فأمر له رسول الله ﷺ بصاع من تمر وأمر أهله أن يخففوا عنه من خراجه[1].

ما جاء في الغزو

10 ـ وبه أن رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر أتاها ليلاً وكان إذا أتى قوماً بليل لم يُغر حتى يُصبح فخرجت يهود بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوه قالوا: محمدٌ والله محمدٌ والخميس فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[2].

قطع التلبية

11 ـ مالك عن محمد بن أبي بكر الثقفي أنه سأل أنس بن مالك وهما غاديان من منى إلى عرفة كيف كنتم تصنعون في هذا اليوم مع رسول الله ﷺ؟ قال: كان يهلل المهلل منا فلا ينكر عليه ويكبر المكبر فلا ينكر عليه[3].

ما جاء في تحريم المدينة

12 ـ مالك عن عمرو مولى المطلب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ طلع له أحد فقال: «هذا جبل يحبُّنا ونحبه اللهم إن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم ما بين لابتيها»[4].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب البيوع باب ذكر الحجام، ومالك في موطئه في كتاب الاستئذان باب ما جاء في الحجامة وأجرة الحجام، حديث (26).

(2) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة، مسلم في كتاب الجهاد والسير باب غزوة خيبر، مالك في موطئه في كتاب الجهاد باب ما جاء في الخيل والمسابقة بينهما والنفقة في الغزو، حديث (19).

(3) أخرجه البخاري في كتاب الحج باب التلبية والتكبير إذا غدا من منى إلى عرفة، ومسلم في كتاب الحج باب التلبية والتكبير في الذهاب من منى إلى عرفات في يوم عرفات، حديث 274، مالك في موطئه في كتاب الحج باب قطع التلبية حديث 45.

(4) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء باب حدثنا موسى بن إسماعيل، مسلم في كتاب الحج باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها البركة، مالك في موطئه في كتاب الجامع باب ما جاء في تحريم المدينة حديث (10).

ما جاء في وباء المدينة

13 ـ مالك عن نعيم بن عبد الله المجمر عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال»[1].

ما جاء في سفر النساء

14 ـ مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم منها»[2].

في جامع ما جاء في الطعام والشراب

15 ـ مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الكعبي أن رسول الله ﷺ قال: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة وضيافته ثلاثة أيام فما كان بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه»[3].

ما جاء في سكنى المدينة والخروج منها

16 ـ مالك عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن أعرابياً بايع رسول الله ﷺ على الإسلام فأصاب الأعرابي وعكٌ بالمدينة فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أقلني بيعتي فأبى رسول الله ﷺ ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب فضائل المدينة باب لا يدخل الدجال في المدينة، مسلم في كتاب الحج باب صيانة المدينة من دخول الطاعون والدجال إليها، مالك في موطئه في كتاب الجامع باب ما جاء في وباء المدينة حديث (16).

(2) أخرجه مسلم في كتاب الحج باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، مالك في موطئه في كتاب الاستئذان باب ما جاء في الوحدة في السفر للرجال والنساء، حديث (38).

(3) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، مسلم في كتاب اللقطة باب الضيافة ونحوها، مالك في موطئه في كتاب صفة النبي ﷺ باب جامع ما جاء في الطعام والشراب حديث (22).

فأبى ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي فأبى فخرج الأعرابي فقال رسول الله ﷺ: «إنما المدينة كالكير تنفي خبثها وينصح طيبها»[1].

في جامع ما جاء في الطعام والشراب

17 ـ مالك عن أبي الزبير المكي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أغلقوا الباب وأوكئوا السقاء واكفؤوا الإناء أو خمروا الإناء وأطفئوا المصباح فإن الشيطان لا يفتح غلقاً ولا يحل وكاءً ولا يكشف إناءً وإن الفويسقة تُضرم على الناس بينهم»[2].

في جامع ما جاء في تعجيل الفطر

18 ـ مالك عن أبي حازم بن دينار عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»[3].

ما يتقى من الشؤم

19 ـ وبه أن رسول الله ﷺ قال: «إن كان ففي الفرس والمرأة والمسكن» يعني الشؤم[4].

ما جاء في رؤية الهلال للصوم والفطر

20 ـ مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الحج باب المدينة تنفي شرارها، مالك في موطئه كتاب الجامع باب ما جاء في سكنى المدينة والخروج منها حديث (4).

(2) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة باب الأمر بتغطية الإناء، مالك في الموطأ في كتاب صفة النبي ﷺ باب جامع ما جاء في الطعام والشراب حديث (21).

(3) أخرجه البخاري في كتاب الصوم باب تعجيل الإفطار، مالك في موطئه في كتاب الصيام باب ما جاء في تعجيل الفطر، حديث (7).

(4) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب ما يذكر من شؤم الفرس، مسلم في كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فيه الشؤم، مالك في الموطأ في كتاب الاستئذان باب ما يتقى من الشؤم، حديث (21).

«الشهر تسع وعشرون فلا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فإن غم عليكم فاقدروا له»[1].

قدر السحور من النداء

21 ـ وبه أن رسول الله ﷺ قال: «إن بلالاً ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أم مكتوم»[2].

مكيلة زكاة الفطر

22 ـ مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر من رمضان على الناس صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على كل حر أو عبد ذكر أو أنثى من المسلمين[3].

ما جاء في القرآن

23 ـ وبه أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت»[4].

النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها

24 ـ وبه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتحر أحدكم فيصلي عند طلوع الشمس ولا عند غروبها»[5].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الصوم باب قول النبي ﷺ: «إذا رأيتم الهلال فصوموا» مسلم في كتاب الصيام باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، مالك في الموطأ في كتاب الصيام باب ما جاء في رؤية الهلال للعوم والفطر في رمضان، حديث (2).

(2) أخرجه مسلم في كتاب الصوم باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، مالك في موطئه في كتاب الصلاة باب قدر السحور من النداء حديث (15).

(3) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة باب فرض صدقة الفطر، مسلم في كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير، ومالك في الموطأ في كتاب الزكاة باب مكيلة زكاة الفطر، حديث (54).

(4) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب استذكار القرآن وتعاهده، مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الأمر بتعهد القرآن، مالك في موطئه في كتاب القرآن باب ما جاء في القرآن حديث (6).

(5) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها مالك في الموطأ في كتاب القرآن باب النهي عن الصلاة بعد الصبح وبعد العصر حديث (47).

فضل صلاة الجماعة على صلاة الفذ

25 ـ وبه أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة»[1].

غسل يوم الجمعة

26 ـ وبه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل»[2].

الصلاة في البيت

27 ـ وبه أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة هو وأسامة بن زيد وبلال بن رباح وعثمان بن طلحة الحجبي فأغلقها عليه ومكث فيها قال عبد الله: فسألت بلالاً حين خرج ما صنع رسول الله ﷺ؟ فقال: جعل عموداً عن يمينه وعمودين عن يساره وثلاثة أعمدة وراءه وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة ثم صلى[3].

مواقيت الإهلال

28 ـ وبه أن رسول الله ﷺ قال: «يهل أهل المدينة من ذي الحُليفة ويهل أهل الشام من ذي الجُحفة ويهل أهل نجد من قرن» قال عبد الله بن عمرو: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «ويهل أهل اليمن من يلملم»[4].

من جامع الإيمان

29 ـ وبه أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب وهو

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأذان باب فضل صلاة الجماعة، مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاة الجماعة، مالك في الموطأ في كتاب صلاة الجماعة باب فضل صلاة الجماعة على صلاة الفذ، حديث (1).

(2) أخرجه مسلم في كتاب الجمعة والبخاري في كتاب الجمعة باب فضل الغسل يوم الجمعة، مالك في الموطأ: كتاب الجمعة باب العمل في غسل يوم الجمعة، حديث (5).

(3) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب الصلاة بين السواري في غير جماعة، مالك في الموطأ في كتاب الحج، باب الصلاة في البيت وقصر الصلاة وتعجيل الخطبة بعرفة حديث (206).

(4) أخرجه مسلم في كتاب الحج باب مواقيت الحج والعمرة، ومالك في الموطأ في كتاب الحج، باب مواقيت الإهلال حديث (24).

يحلف بأبيه فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم مَن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»[1].

ما جاء في التعفف عن المسألة

30 ـ وبه أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسألة: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة والسفلى هي السائلة»[2].

في جامع الجنائز

31 ـ وبه أن عبد الله بن عمر قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى يوم القيامة»[3].

تحريم الخمر

32 ـ وبه أن رسول الله ﷺ قال: «مَن شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب عنها حرمها في الآخرة»[4].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور باب لا تحلفوا بآبائكم، مسلم في كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، ومالك في موطئه، كتاب النذور والأيمان باب جامع الأيمان حديث (17).

(2) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، مسلم في كتاب الزكاة باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، مالك في الموطأ، كتاب الصدقة باب ما جاء في التعفف عن المسألة حديث (8).

(3) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب عرض مقعده بالغداة والعشي، مسيم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، مالك في الموطأ: كتاب الجنائز باب جامع الجنائز حديث (48).

(4) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة باب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ مسلم في كتاب الأشربة باب عقوبة من شرب الخمر إذا لم يتب منها، مالك في الموطأ، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر حديث (11).

ما جاء في الخيل والمسابقة بينها

33 ـ وبه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[1].

34 ـ وبه أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي قد أُضمرت من الحفياء وكان أمدها ثنية الوداع وسابق بين الخيل التي لم تُضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق وإن عبد الله بن عمر كان فمين سابق بها[2].

ما جاء في الكلاب

35 ـ وبه أن رسول الله ﷺ قال: «مَن اقتنى إلا كلباً ضارياً أو كلب ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان»[3].

ما جاء في قتل الحيات

36 ـ مالك عن نافع عن أبي لبابة أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الحيات التي في البيوت[4].

بيع الذهب بالورق تبراً وعيناً

37 ـ مالك عن نافع عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا الورق

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، مالك في الموطأ في كتاب الجهاد باب ما جاء في الخيل والمسابقة بينهما والنفقة في الغزو، حديث (44).

(2) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب المسابقة بين الخيل وتخميرها، مالك في الموطأ: كتاب الجهاد، باب ما جاء في الخيل والمسابقة بينهما والنفقة في الغزو، حديث (45).

(3) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد باب من اقتنى كلباً ليس بكلب صيد أو ماشية، مسلم: كتاب المساقاة باب الأمر بقتل الكلاب، مالك في الموطأ: كتاب الاستئذان باب ما جاء في أمر الكلاب، حديث (13).

(4) أخرجه مالك في كتاب الاستئذان باب ما جاء في قتل الحيات وما يقال في ذلك حديث (31).

بالورق إلا مثلاً بمثل ولا تُشفُّوا بعضها على بعض ولا تبيعوا منها شيئاً غائباً بناجز»[1].

ما يكره من الكلام بغير ذكر الله

38 ـ مالك عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر أنه قال: قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحراً» أو قال: «إن بعض البيان لسحر»[2].

ما جاء في إسبال الرجل ثوبه

39 ـ مالك عن نافع وعبد الله بن دينار وزيد بن أسلم كلهم يخبره عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى مَن يجر ثوبه خيلاء»[3].

ما جاء في الطعام والشراب

40 ـ مالك عن أبي نعيم وهب بن كيسان قال: أُتي رسول الله ﷺ بطعام ومعه ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال له رسول الله ﷺ: «سم الله وكل مما يليك»[4].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب البيوع باب بيع الفضة بالفضة، ومسلم في كتاب المساقاة باب الربا، مالك في الموطأ: كتاب البيوع باب بيع الذهب بالفضة تبراً وعيناً، حديث (31).

(2) أخرجه البخاري في كتاب الطب باب من البيان سحراً، مالك في الموطأ: كتاب الكلام باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله، حديث (7).

(3) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ ومسلم في كتاب اللباس باب تحريم جر الثوب خيلاء، مالك في الموطأ: كتاب اللباس باب ما جاء في إسبال الرجل ثوبه، حديث (11).

(4) أخرجه البخاري من طريق عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك عن وهب بن كيسان أبي نعيم وهذا الحديث مرسل وموصول عن مالك عن وهب بن كيسان عن عمر بن أبي سلمة. ذكره البخاري في كتاب الأطعمة باب الأكل مما يليه، الجزء 9 حديث 5379، ومالك في موطئه: كتاب صفة النبي ﷺ باب جامع ما جاء في الطعام والشراب، حديث (33).

التقاريظ

الحمد لله. يقول العبد الفقير إلى ربه اللطيف، محمد مخلوف الشريف: إن من الواجب عليّ إسداء الشكر، ونشر ألوية الثناء وجميل الذكر، إلى أعلام نبهاء، وأئمة فضلاء، مَنُّوا عليَّ بتقاريظهم وأتحفوني بمعانيهم الرائقة؛ وأشعارهم الفائقة. وإليك ما ورد لي من جنابهم، شكر الله سعيهم، وأحسن جزاءهم، فازدان جيد كتابي بما نظموه، وافترّ ثغره بما نثروه، فمنها ما لحضرة صديقنا الملاطف، مطرز لطائف المعارف، بطوارف الطرف واللطائف، روض الأدب الزاهر، والحسب الباهر، الشيخ المفتي بالمنستير محمود ابن الشيخ المفتي بها أحمد موسى مخلوف الشريف:

ظَهَرَ الكِتَابُ كَأَنَّهُ صبْحٌ بَلَجْ ... يَا حُسْنَهُ بِمَحَاسِنِ الدنيَا امْتَزَجْ
أَهْدَى صَبَا نَجْدٍ فأَنْعَشَ مُدْنَفاً ... أمسَى وأصبَحَ مثْلَ ميْتٍ مندرجْ
وبدا السُّرُور به فَعُمَّ وخصَّني ... فكأَنَّ يومَ ظهوره لي يومُ حَجْ
هَذا كتابٌ ضمّ تاريخَ الأُلَى ... قامتْ لِمذْهَبِ مَالِكٍ بهمُ الحججْ
فهمُ الفَطَاحِلُ لا يُشقُّ غُبَارُهُمْ ... وبهم إمامهمُ الحِجازِيُّ ابْتَهَجْ
أَنْشَاهُ نُخْبَةُ عَصْرِهِ قاضي المُنْستِيرِ الذي بذكائِهِ ملكَ المهجْ
الشيخُ مَخْلُوفٌ وما أَدْرَاكَ مَا ... حَدِّثْ عنِ البحر المحيط ولا حَرَجْ
جَمَع المفرق واعتنى وأَظُنّهُ ... لِسَماءِ تحقيقِ الحقائقِ قد عَرَجْ
فَأَتَى به أُعْجُوبَةً في بَابِهِ ... يشفي الفُؤَادَ ويشرحُ الصدر الحرجْ
يشفي ويكفي أنني عايَنْتُهُ ... فرأيتُ كُلّ الصَّيْدِ في الضِّمْنِ انْدَرَجْ
وشّى مقاصده ببعض زوائدٍ ... زانتْ محيَّاهُ كما زَانَ الزَّجَجْ
جَرَّ الحديثُ لها فجاء كأَنَّهُ ... ثَغْرُ المَلِيحَةِ زادَ حُسْناً بالفَلَجْ
وبحسْنِ آدابٍ تَضَوَّعَ نَشْرُهُ ... فكأَنَّ نَفْحَ الطيبِ مِن ذاك الأَرَجْ
قُلْ لِلَّذينَ تَحَيَّرُوا مِنْ بعضِ ما ... وَجَدوه في تلك المَهَامِه من عِوَجْ

وَتَشَكَّكُوا في معضلاتٍ يا لَها : قد جاءكم قولُ المبشّر بالْفَرَجْ
هذا طِرَازٌ ليس يخدْرَكُ شأْوُهُ يُزْرِي بألحانِ المزَاهرِ والهزَجْ
لمَ لا يفوقُ على سواه وربُّهُ فاق السِّوى والمسكُ بعضُ دَم لَزِجْ
أكْبَرْتُهُ وأخَذْت في تَقْريظهِ وعليّ أُرتِجَ فانثنيت كمرتَعِجْ
ثم ادَّكَرْتُ فكانَ تَنْويهي بهِ مِعْشارَ ما في باطني منه اختلجْ
لله ناسِجُ بُرْدِهِ كم جَدَّ في تنقيحه لِلّهِ كم خاضَ اللّجَجْ
سَهِرَ اللّيالي باحثاً ومُفَكِّراً وأنيسُهُ فيها كتابٌ مُنْبَلِجْ
ولَنا لَقَدْ أهْدَى نتيجَةَ عمْرِه في لَحْظَةٍ مِنْ غير تعويضٍ خَرَجْ
لا أنتهِي لا أرْعَوِي عن مدحهِ بالحقِّ أصدَعُ دُون شَكٍّ أو مرجْ
ما لَطَّ حَقّ الناسِ إلاّ جاهِلٌ بَهْذِي على البُسَطاءِ بالقول السَّمِجْ
وَلَقَدْ خشيتُ بأَنْ أموتَ وَلاَ يَرَى مِني لهُ يَوْماً عبُوساً ذا هَرَجْ
يا رَبِّ هَبْ عُمْراً طويلاً تَجْتَلِي حَرْبَ البَسوسِ بهِ على بَعْضِ الهَمَجْ
مَنْ لاَ يُقِرُّ لِفاضِلٍ بِفَضِيلَةٍ فأَنَا لَهُ أضَعُ المِزَجَّ على الوَدَجْ
أسْكَنْتُ أهْلَ العِلْمِ في ثَبَجِ الْحَشا وطعَنت في أعْدَائهم طعْناً بِزِجْ
وأنا الذي عَرَفَ الحقُوقَ لأَهْلِها ولَتلك شِنْشِنَتِي على طُول الأبَج
وَلِذاكَ قَرّظْتُ الكِتابَ بِغَادَةٍ تَسْبي العُقُول لحسن منظرها البَهِج
زينْتها منهُ بجيم جمالِهِ وجعَلتُ خاء الخال في الخدِّ الضرِجْ
فإلَيكَها مِنْ كاملٍ في كاملٍ ما مثلُها في مسمعي يوماً وَلَجْ
حَقٌّ عليَّ فَعْلتُه ولِرَبِّه أسْدَيْتُهُ فالبِشْرُ عِندي مُزْدَوِجْ
يا حضرَةَ الأُستاذِ إنَّ كِتابَكُمْ بلغَ النهايَةَ وارتقى أعلى الدرَجْ
لِلّهِ دَرُّكَ لا عَدِمتُكَ صاحِباً يضَعُ الدَوَا في مَوْضِع النقب اللزِجْ
بَرحَ الخَفاءُ وودّ كلّ مؤرّخ لو أنّه حاذَى نسيجك مُذْ نَسَجْ
ما كان أحسنَ ما صَنَعْتَ وَحَبَّذَا تاريخك الروضُ الأريض المفترَجْ
رَقَّتْ شمائِلُهُ ورق حديثُه نفَعَ الإلهُ بهِ على مَرِّ الحِجَجْ
وجزاك عنهُ جزاءه سُبحانَه فَعَطاؤُهُ هَيْهاتَ تَحكِيه اللجج
وَلَكَ الهناءُ به كتاباً سامياً يحي بهِ مَنْ كانَ في الذَوْقِ اندَمَجْ
قرَّتْ بِهِ عينُ الوَدُودِ وَزادَ في كَمدَ الحَسُود فبات يَلتَقِمُ الحَدَج

والـكـونُ أشـرَقَ مِـن ضـيـاءِ كـمـالـهِ ... والـشمسُ إن طلَعَتْ فما ضَوْءُ السُّرج
تـاريـخـه شـمـسٌ وعَـرْفُ خِـتـامِـهِ ... مِـسـكٌ تـأَرَّج نَـفْـحُـهُ مِـن كُـلِّ فَـج
ثـم الـصـلاةُ معَ الـسلامِ علـى الـنبيّ ... والآلِ والأصْـحـابِ مـا بَـرْقٌ رَعَـج
وبـجـاهِـهِ وبـجـاهِـهِـمْ يـا رَبَّـنـا ... أَقِـلِ الـعِـثـارَ ونَـجِّ مِـن حَـرِّ الـوَهـج

ومنها ما لفضيلة العلامة الأديب، الآتي من سحر البلاغة بكل عجيب. ذي الرأي الصائب، والفكر الثاقب. الشيخ محمد بو شارب باش مفتي قفصه والمكلف بقسم الحساب بوزارة العدلية:

نحمدك اللهم كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، ونشكرك شكراً يؤذن بازدياد برك وبجزيل امتنانك. ونسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن ترسل سحائب صلواتك وتسليماتك، وسوابغ رحماتك وبركاتك، على روح سيدنا محمد في الأرواح، وعلى جسده في الأجساد، وعلى قبره في القبور. ثم على أرواح آل بيته الطاهرين، وأصحابه حماة الدين، وعلى أرواح أتباعهم وأتباع أتباعهم من كل مَن رفع للعلم رمحاً، وأبدى به لدى الظلماء صبحاً. أما بعد، فأقول: إقراراً بأيدي ذوي الجد وإكباراً لجدوى أولي المجد: إني طالعت الأنموذج المحتوي على سبع فرائد من الكتاب القيم الذي ألفه حديثاً أستاذ المحققين، وممن تلقوا راية العلم باليمين. عين أعيان قطره، وفخر قضاة عصره. أبو الفضل المولى محمد بن محمد مخلوف المنستيري أدام الإله حفظه، وأجزل من المثوبة حظه. فألفيته بحراً طامياً وقف الكاتبون بساحله وكوكباً هادياً قصرت أيدي المؤرخين عن تناوله. لا جرم أنه أنهل فأروى، وجمع فأوعى. ولقي من الشعب، ما يلقى الحبيب من الحب. وحلَّ من ذوي الفضل محلاً لم يكن حل من قبل. فرأيت ـ على ما أنا عليه من الشغل المحتدم، والفكر الغير المنتظم ـ أن أعلق عليه بالأبيات الآتية تنويهاً بشأن جماله، وإطراد لواضعه بذكر البعض من خصاله. فقلت:

يـصـون عـتـيـق الـمـجـد متـقـد الـعـزم ... ويحمي حمى الأسلاف مستكمل الحزم
ويـعـنـي بـآثـار الـذيـن تـقـدمـوا ... أخـو هـمـة تـرمـي إلـى قـمـة الـنـجـم
أصـيـل مـعـالـي الـنـفـس أكـبـر هَـمِّـه ... مـسـابـقـة الأقـران فـي حـلـيـة الـعـلـم
ألا قل لمن خص النهوض بمن مضوا ... وأعـلـن أن الـجـد مـخـلـولـق الـرسـم

رويـدك مـا هـذا الـغـلـو فـإنـه من الخطأ المحض التسرع بالحكم
فكم في الزوايا من خبايا لباحث وكـم مـن بـقـايـا فـي أسـاتـذة الـيـوم
قِفنْ بحمى فخر القضاة محمد أبي الفضل مخلوف تجد أيما شهم
يريك مثال الجد في طلب العلا وساطع نور الفكر في الأعصر الدهم
وتشهد أن العلم ما زال شاغلاً لأهل النهى عن كل ذي شرف وهمي
همام رأى أن استمالة شعبه لأحيائهم فخر الجدود من الختم
وآنس في التاريخ أعظم كافل بنيل المنى فانساب في ذلك اليمّ
وخاض به تلك المخاطر تاركاً بساحله من كان مستضعف العزم
وآب وقد حازت يداهُ فرائداً تراءت لنا في سلك مختصر فخم
كتاب جلا نهج الأوائل وانطوى على حجج أخنت على لدد الخصم
حوى من سراة الدين كل سميدع أقرَّ له بالفضل متسع الفهم
وبات به مفتي المدينة آمناً على المذهب السامي البناء من الثلم
فلا عجب إن حلَّ من كل ناظر إليه حلول البرء من صاحب السقم
وذاد عن الأوساط نومة ذاهل وسورة أيام حزن إلى العظم
تطلع من أُفق الإجادة فانبرى إليه بفرط المدح ذو الأدب الجم
وصار حديث القوم في كل منتدى يقدر حق القدر جدوى أولي العزم
وأصبح بين الناقدين وبينه من البعد ما بين الأباطح والعصم
أبا الفضل إن عز الثناء بما يفي بحقك فالإغضاء شأن أخي الحلم
قضى الله أن يلفي صنيعك فوق ما نود من الإطراء بالنثر والنظم
كتبت فألهمت الشبيبة رشدها زقت لوجه الله بالواجب القومي
وأحييت ذكرى الغابرين من الأُلى بهم بلغ الإسلام مبلغه العلمي
وجئت بوضع سابغ النفع لم تزل بفضلك بين الناس أنباؤه تنمي
تبارك من أوحى إليك بصنعه وخصك بالإبداع في البدء والختم

* * *

ومنها ما جادت به قريحة شمس المعارف، وملمع بروز الأسرار واللطائف. الغنى بنسبه الطاهر عن التعريف؛ شيخنا عبد الحي الكتاني الشريف مذيلاً بإجازة عامة، مرت الإشارة إليها بالمقصد ومحل الحاجة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى. أما بعد، فقد وقفت على هذا المدون الجامع، والتاريخ الذي يتدفق إفادة بلا مدافع. فشكرت سعي مؤلفه العالم النحرير، وهمة جامعه الدراكة البدر المنير. ولعمري إن الاعتناء بجمع تراجم أعيان الملة، وفضلاء الأمة. لمن المتعين على الخلف، قياماً ببعض ما يحب لرجال السلف. فهم آباؤنا في الدين، والوسائط بيننا وبين سيد المرسلين. فحفظ آثارهم يعين على الاقتداء بمناهجهم. ولذا ورد أن من أرخ مؤمناً فكأنما أحياه وذلك لأن بإحياء ذكره وهممه يقوى الانبعاث على الاقتداء بهداه. فنعم السفر المسطور، والعمل المبرور. فما على المؤلف حفظه الله تعالى بعد التعب، وطويل النصب، إلا إذاعة هذه المجموعة، وعدم إبقائها عن الاستفادة ممنوعة. فإن الخير النافع يجري مجرى المياه في تعميمها ووقوع الحياة بها من غير مدافع. وبما تحقق لي من فضل المؤلف وبراعته وسموّ مداركه وحسن سمعته قلت إجابة لمطلبه وإسعافاً لرغبته: أجزت العلامة القاضي المؤرخ الأديب محمد بن محمد مخلوف... انتهى محل الحاجة.

* * *

ومما جادت به قريحة فضيلة شيخي بالإجازة العلامة النظار كريم النجار الشيخ سيدي بلحسن النجار المفتي المالكي بقطر إفريقية حفظه الله وشكره.

نحمد الله ونشكره، ونصلي على سيدنا محمد وآله وصحبه صلاة طيبة مباركة، ونسلم تسليماً.

أما بعد؛ فإن همم عظماء الرجال تتجلّى في آثارهم، ونتبيَّن من إخلاصهم في عملهم وإن تأليفك الجليل، وصنعك الجميل المسمى «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» قد تمثّلت فيه نفسك المالية، ومعارفك الفيّاضة، وإخلاصك السامي في أجلى المظاهر وأجملها.

طالعته فوجدت منه مَعلَمة في رجال المذهب المالكي، من أحسن ما أُخرج للناس من كتب الفهارس والتراجم والطبقات في أسلوب مبتكر ولفظ منسجم.

بيّنت فيه، أيدك الله تعالى، تاريخ انتشار المذهب المالكي وحلقات اتصال الخلف بالسلف طبقة فطبقة، ودوراً فدوراً، وهو مع ذلك تاريخ متسع لقسم عظيم من علماء المسلمين وأئمتهم:

إن سعة اطلاعك، وإتقان ضبطك، ورجاحة تحريرك، وإحسانك إلى قومك. تدعو إلى الإعجاب بك. وتعيد فينا ذكريات سلفنا الصالح وما لهم من إحاطة وعناية وانقطاع للصالح العام. فشكراً لك شكراً.

27 جمادى الآخرة سنة 1350

كتبه فقير ربه
بلحسن النجار الشريف
خادم العلم بجامع الزيتونة لطف الله به

مصادر ومراجع

ـ أ ـ

- الابتسام عن دولة ابن هشام لإدريس الجعيدي، مخطوط عدد 12490، الخزانة الملكية، الرباط.
- إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس لعبد الرحمٰن بن زيدان، المطبعة الوطنية، الرباط، الطبعة الأولى، السنة 1932م/ 1350هـ.
- إتحاف المُطَالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع عشر، تأليف عبد السلام بن عبد القادر بن سودة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، السنة 1997م/ 1417هـ.
- الإتحاف الوجيز تاريخ العدوتين تأليف العلامة محمد بن علي الدكالي، تحقيق مصطفى بوشعراء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، سنة 1986م.
- أزهار البستان في طبقة الأعيان لابن عجيبة، مخطوط عدد 286 ك الخزانة العامة، الرباط.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، السنة 1956م.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، دار الفكر.
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام لعباس المراكشي، المطبعة الملكية، الرباط، السنة 1977م، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور.
- الأعلام للزركلي، الطبعة 12، السنة 1997م، (ودار العلم للملايين 1999م).
- الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية، تأليف زكي محمد مجاهد، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط2، السنة 1994م.
- أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة للدكتور: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، السنة 1995م.

- اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، فهرس أبي سالم العياشي، تحقيق ودراسة نفسة، الذهبي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، السنة 1996م، الطبعة الأولى.
- الإكمال لابن ماكولا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى سنة 1411م، بيروت، لبنان.
- ألف سنة من الوفيات في ثلاث كتب، مطبعة دار المغرب بتحقيق محمد حجي، السنة 1976م/ 1396هـ المغرب.
- الانتقاء في فضائل مالك والشافعي وأبي حنيفة لابن عبد البر، طبعة مصر 1350م.
- أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ، مطبعة أكدال، الرباط، السنة 1965م.

- ب -

- البداية والنهاية لابن كثير، دار الفكر، بيروت، سنة 1978م/ 1398هـ.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع لمحمد بن علي الشوكاني، مطبعة السعادة مصر القاهرة، السنة 1348م الطبعة الأولى.
- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لأبي عبد الله محمد بن محمد الملقب بابن مريم التلمساني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تأليف الضبي أحمد بن يحيى، دار الكتاب العربي، سنة 1967م.
- بيوتات فاس الكبرى لإسماعيل بن الأحمر، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972م.

- ت -

- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1978م.
- تاريخ الثقات للعجلي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، السنة 1984م/ 1405هـ.
- تاريخ تطوان لمحمد داود، مطبعة المهدية، تطوان 1959م/ 1962هـ، المغرب.
- تاريخ الخلفاء للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة 1988م.
- تاريخ الشعر والشعراء بفاس لأحمد النمشي، مطبعة ليدن، فاس، الطبعة الأولى سنة 1924م.

- التاريخ الصغير للبخاري، دار الطباعة الحديثة، تحقيق وتعليق وتخريج محمود إبراهيم زايد، سنة 1976م/ 1396هـ.
- تاريخ الضعيف الرباطي، تحقيق الدكتور البوزيدي الشيطي، طبعة دار الثقافة، السنة 1409هـ/ 1988م، الدار البيضاء، المغرب.
- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضي عبد الله بن محمد الأزدي، تحقيق عزت العطار، مكتبة المثنى، بغداد 1954م/ 1374هـ.
- تاريخ قضاة الأندلس للشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن البناهسي المالقي الأندلسي، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الخامسة، سنة 1983م/ 1403هـ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- التاريخ الكبير للبخاري، دار الفكر، تحقيق ماسح الندوي.
- تحفة الأحوذي لمحمد عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تدريب الراوي في شرح تقريب النووي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، سنة 1979م/ 1399هـ بيروت، لبنان.
- تذكرة الحفاظ لشمس الدين الذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- تذكرة الحفاظ للقيسراني، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، السنة 1415م، تحقيق حمدي عبد المجيد إسماعيل السلفي.
- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين لابن شامة المقدسي الدمشقي، دار الجيل، الطبعة الثانية 1974م.
- ترتيب المدارك للقاضي عياض.
- التشوف إلى رجال التصوف لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات، تحقيق أحمد التوفيق، مطبعة النجاح، ط2 سنة 1997م.
- تعريف الخلف برجال السلف، تأليف أبي القاسم محمد الحفناوي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1982م/ 1402هـ بيروت، لبنان، تحقيق محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ.
- التقاط الدرر لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى السنة 1983م.
- تقريب التهذيب لابن حجر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت 1993م/ 1413هـ.
- التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير للنووي، دار الكتب العلمية، ط1، السنة 1987م/ 1407هـ.
- التقييد لمحمد بن عبد الغني البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، تحقيق كمال يوسف الحوت.

- التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار لمحمد بن عبد الله القضاعي الأندلسي، تحقيق عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة 1955م/ 1375هـ في جزأين.
- تلخيص الحبير لابن حجر، المدينة المنورة، تحقيق عبد الله هاشم اليماني المدني، السنة 1694م/ 1384هـ.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر الأندلسي، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب.
- تهذيب التهذيب لابن حجر، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
- تهذيب الكمال للمزي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، تحقيق بشار عواد، بيروت، لبنان.
- توشيح الديباج وحلية الابتهاج لبدر الدين القرافي، تحقيق أحمد الشتيوي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1983م/ 1403هـ.
- التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية لإبراهيم حركات.

- ث -

- ثمرة أنسي لسليمان الحوات، تحقيق د .عبد الحق الجيمر، مطبعة الحداد، يوسف إخوان، الهداية، المغرب، السنة 1996م.

- ج -

- جامع كرامات الأولياء ليوسف بن إسماعيل النبهاني، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان 1988م/ 1408هـ.
- جذوة الاقتباس في ذكر من حَل من الأعلام بمدينة فاس لأحمد ابن القاضي المكناسي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1973م.
- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تأليف الحميدي، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية سنة 1983م/ 1409هـ.
- الجرح والتعديل لعبد الرحمٰن بن أبي حاتم الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1952م الطبعة الأولى.

- ح -

- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة 1997م/ 1417هـ.
- الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تأليف محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر 1970م.

- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني، دار الكتاب العربي، سنة 1405هـ، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان.
- الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية للدكتور محمد الأخضر، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، السنة 1977م.

- خ -

- خلاص الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي، دار صادر، بيروت، طبعة قديمة.

- د -

- درة الحجال في أسماء الرجال لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي، تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، مصر.
- الدرر البهية للفضيلي، مطبعة فضالة بإشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، السنة 1999م.
- الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، تأليف عبد الرحمٰن بن زيدان، المطبعة الاقتصادية، الرباط 1356هـ/ 1937م.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- دليل مؤرخ المغرب الأقصى، تأليف عبد السلام بن سودة، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى للجزء الأول، سنة 1960م والطبعة الثانية للجزء الثاني 1965م.
- دوحة الناشر لمحمد بن عسكر الحسني الشغشاوني، تحقيق محمد حجي، الرباط 1976م/ 1396هـ، مطبوعات دار المغرب.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1996م/ 1417هـ.

- ذ -

- ذيل الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، تحقيق وتعليق الشيخ أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى، السنة 1998م.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق محمد بنشريفة، مطبوعات أكاديمية، المملكة المغربية، الرباط 1984م في جزأين.

- ر -

- الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري، تحقيق وإعداد معروف زريق، وعلي عبد الحميد بلطجي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية بدون ذكر سنة الطبع.
- الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة لمحمد بن جعفر الكتاني، دار البشائر الإسلامية، لبنان، بيروت 1986م/ 1406هـ.
- الروضة السليمانية تأليف: أبو القاسم الزياني، مخطوط عدد 1275 د. الخزانة العامة، الرباط.
- الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس المنسوب لأبي عبد الله محمد بن عيشون الشراط، دراسة وتحقيق زهراء النظام، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1997م.
- الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة لأبي الربيع سليمان الحوات، دراسة وتحقيق عبد العزيز تيلاني، مطبعة النجاح البيضاء، السنة 1994م، الطبعة الأولى.
- رياض الجنة أو المدهش المطرب لعبد الحفيظ الفاسي، المطبعة الوطنية، الرباط، الطبعة 1، السنة 1350هـ/ 1931م.
- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم، تأليف أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية 1951م.

- ز -

- الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، تأليف محمد حجي، المطبعة الوطنية، الرباط 1964هـ/ 1384م.

- س -

- السر الظاهر لسليمان الحوات، طبعة حجرية.
- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمرادي، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، السنة 1997م.
- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، طبعة حجرية، فاس 1898م/ 1316هـ.
- سنن ابن ماجه، دار الفكر.
- سنن أبي داود، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر 1994م.
- سنن الترمذي، مراجعة وضبط وتصحيح محمد بن جميل العطار، دار الفكر، بيروت، لبنان، سنة 1994م/ 1414هـ.
- سنن الدارقطني، دار الفكر 1414هـ/ 1994م بيروت، لبنان.

- سير أعلام النبلاء للذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1413م الطبعة التاسعة، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي.
- السيرة النبوية لابن كثير، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

- ش -

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحسين بن العماد الحنبلي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، بدون ذكر سنة الطبع.
- شرف الطالب في أسنى المطالب لأحمد بن قنفذ، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة، تحقيق د. محمد حجي، الرباط 1976م/ 1396هـ.
- شرح معاني الآثار للطحاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1399م ط1، تحقيق محمد زهري النجار.
- شرح منظومة علم الأثر للسيوطي، دار الفكر، الطبعة الرابعة 1981م/ 1401هـ.

- ص -

- صحيح ابن حبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، تحقيق شعيب الأرنؤوط، السنة 1993م.
- صحيح ابن خزيمة، المكتب الإسلامي، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، بيروت 1970م/ 1390هـ.
- صحيح البخاري، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، تحقيق د .مصطفى ديبا البغا، الطبعة الثالثة، سنة 1987م/ 1407هـ.
- صحيح مسلم مع شرح النووي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، السنة 1995م/ 1415هـ.
- صفة الصفوة لابن الجوزي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.
- صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر لمحمد الصغير الإفرانسي المراكشي، طبعة حجرية، فاس.
- الصلة لابن بشكوال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، السنة 1966م.

- ط -

- طبقات الحفاظ للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت 1403م، الطبعة الأولى.
- طبقات الشاذلية الكبرى المسمى جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية لأبي علي الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، السنة 2001م.

- طبقات علماء إفريقية وتونس، تأليف أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، الدار التونسية، تقديم وتحقيق علي الشابي، نعيم حسن الباقي، السنة 1968م.
- الطبقات الكبرى لعبد الوهاب بن علي الأنصاري المعروف بالشعراني، دار الفكر، طبعة قديمة.
- طلعة المشتري في النسب الجعفري لأحمد بن خالد الناصري، طبعة حجرية.

- ع -

- العبر في خبر من غبر للحافظ شمس الدين الذهبي، تحقيق د. إصلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت 1966م.
- عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي، الطبعة الأولى، السنة 1965م، مطبعة لجنة البيان العربي.
- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تأليف: أبو العباس الغبريني، تحقيق عادل نويهض، الطبعة الأولى، السنة 1969م منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان.

- ف -

- فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1989م الطبعة الأولى.
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، السنة 1995م/ 1416هـ.
- فهارس علماء المغرب تأليف الدكتور عبد الله المرابط الترغي، مطبعة النجاح الجديدة، السنة 1999م، الطبعة الأولى.
- فهرس ابن عطية لأبي محمد عبد الحق بن عطية المحاربي الأندلسي، تحقيق محمد أبو الجفان ومحمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ط2 السنة 1983م.
- فهرس ابن غازي، تحقيق محمد الزاهي، الدار البيضاء 1979م/ 1399هـ دار المغرب.
- فهرسة التاودي بن سودة عدد 752 د الخزانة العامة، الرباط.
- فهرس الفهارس والأثبات، تأليف عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط2 السنة 1982م، لبنان، بيروت.
- فهرست لابن النديم، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني، دراسة وتحقيق محمد عبد الرحمٰن عوض، دار الكتاب العربي، ط1 السنة 1986م.

- ق -

- قضاة قرطبة علماء إفريقية لأبي عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشني، مكتبة بغداد ومكتبة الخانجي، القاهرة، السنة 1372م.

- ك -

- الكاشف للإمام الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1983م/ 1403هـ.
- كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب، تأليف الحاج أحمد سكيرج، دار الكتب العلمية، ط1، 1999م.
- كشف الظنون لحاجي خليفة، منشورات مكتبة المثنى، بغداد.
- كفاية المحتاج لأحمد بابا التنبكتي، تحقيق محمد مطيع، مطبعة دار فضالة بإشراف وزارة الأوقاف، المغرب، السنة 2000م.
- الكنى والأسماء لمسلم بن الحجاج، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، تحقيق عبد الرحيم محمد أحمد القسقري، سنة 1404م.

- ل -

- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان.
- لسان الميزان لابن حجر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت سنة 1986م الطبعة الثالثة.
- لقط الفرائد لأحمد ابن القاضي المكناسي، تحقيق الدكتور: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب، الرباط، السنة 1396هـ/ 1976م.

- م -

- مؤرخو الشرفاء، تأليف ليڤي بروڤنصال، طبعة الرباط 1977م، تعريب عبد القادر الخلادي.
- مستدرك الصحيحين للحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت 1990م/ 1411هـ، الطبعة الأولى، تحقيق عبد القادر عطا.
- مصابيح السنة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- مصنفات مغربية في السيرة النبوية، تأليف الدكتور محمد يوسف، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، السنة 1992م/ 1412هـ.
- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، المطبعة الرسمية العربية، تونس، السنة 1320هـ.
- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت.

- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون سنة.
- معجم المطبوعات المغربية لإدريس بن الماحي الإدريسي القيطوني، مطابع سلا ـ سلا، السنة 1988م.
- معلمة التصوف الإسلامي عبد العزيز بن عبد الله، الجزء الأول، التصوف المغربي، خواص ومميزات، دار نشر المعرفة، الطبعة الأولى، السنة 2001م، الرباط.
- مفتاح السنة أو تاريخ فنون الحديث للأستاذ محمد عبد العزيز الخولي، دار الكتب العلمية.
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة لعبد الرحمٰن السخاوي، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية 1994م/ 1414هـ.
- مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، دار الكتب العلمية سنة 1989م/ 1409هـ.
- ممتع الأسماع في الجزولي والتباع لمحمد المهدي الفاسي، تحقيق وتعليق عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، مطبعة النجاح، السنة 1994م، الدار البيضاء.
- مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، السنة 1899م/ 1409هـ.
- المنتقى لابن الجارود، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت 1988م، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد الله عمر البارودي.
- موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1417هـ/ 1996م، بيروت، لبنان.
- موطأ الإمام مالك، مطبعة فضالة المحمدية، الطبعة الثالثة، المغرب، السنة 1996م/ 1416هـ.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي، دار الفكر العربي، تحقيق علي محمد البجاوي وفتيحة علي البجاوي.

ـ ن ـ

- النبوغ المغربي لعبد الله كنون، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، السنة 1961م.
- نشر أزهار البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان لمحمد بن زاكور، المطبعة الملكية، الرباط، السنة 1967م/ 1387هـ.

- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني تأليف محمد بن الطيب القادري، تحقيق: محمد حجي ـ أحمد توفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الجزء الأول 1977م، والجزء الثاني سنة 1982م، والجزء الثالث والرابع سنة 1986م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، حققه د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي، الطبعة الأولى، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، سنة 1989م.

ـ هـ ـ

- هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، تأليف إسماعيل باشا بن محمد البغدادي، وكالة المعارف، إستانبول، السنة 1951ـ 1955م في جزأين.

- و -

- الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، ط2، 1974م/ 1394هـ، دار النشر فرانز شتايز.
- الوفيات لأبي العباس أحمد بن حسن بن علي ابن الخطيب بن قنفذ، حققه وعلق عليه: عادل نويهض، الطبعة الأولى، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، السنة 1971م.
- وفيات الأعيان وأبناء الزمان لابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- وفيات الونشريشي، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب، الرباط، السنة 1976م/ 1396هـ.

فهرس تراجم الأعلام

الأعلام	رقم الترجمة

- أ -

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

- ز -

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

- م -

- ن -

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

فهرس الجزء الأول

فصل في ذكر الكليات الإسلامية: الفسطاط، والأزهر وجامعي الزيتونة والقرويين ومؤسسوها

الرقم الترتيبي

فصل في ذكر الخرقة ولبسها (التصوف)

فصل في ذكر انتشار المذهب المالكي في البلدان الآتية

الرقم الترتيبي

الرقم الترتيبي

الرقم الترتيبي



فهرس المحتويات